الحياة

على الدرب الروماني القديم



تأليف : ڤاهان توتوڤينتس
ترجمة : هراج ساهاكيان

الحياة على الدرب الروماني القديم

* سلسلة روائع الأدب الأرمني ـ 5
* الحياة على الدرب الروماني القديم
* تأليف: ڤاهان توتوڤينتس (1894 ـ 1938)
* ترجمة: هراج ساهاكيان
* الطبعة الأرمنية الأولى 1933
* الطبعة العربية الأولى 1998

* الناشر:
دار الحوار للنشر والتوزيع
ص.ب 1018 ـ هاتف 422339 ـ اللاذقية ـ سورية
نادي الشبيبة السورية ـ اللجنة الثقافية
حلب ـ ص.ب: 3699 ـ سورية

* تصميم الغلاف: كريبس لفنون الغرافيك
* عنوان المترجم: حلب ـ ص.ب: 7002 ـ سورية

ڤاهان توتوڤينتس

الحيـــــاة

على الدرب الروماني القديم

«من الأدب الأرمني»

ترجمة: هراج ساهاكيان

* جميع الحواشي الموجودة في الكتاب هي من وضع المترجم.
* يتوجّه المترجم بالشكر
إلى السيدة هدى حنا على ملاحظاتها القيّمة.



المؤلف ڤاهان توتوڤينتس بريشة الفنان مارديروس ساريان

مقدمة

الترجمة طريق الأمم للتعريف بثقافاتها لأن أدب كل أمة مدون بلغتها ولابد من اتباع طريق الترجمة لنقل تلك الثقافات من لغة إلى لغة أخرى. فالترجمة جسر اتصال بين ثقافتين يزيد من فرص الاحتكاك بينهما ويمتّن أواصر علاقتهما.

تعود العلاقات الأرمنية ـ العربية إلى عصور قديمة ولكنها في العصر الحديث تبلورت حول حدثين هامين الأول منهما يتمثّل في وصول مئات الألوف من الأرمن خلال أعوام الحرب العالمية الأولى إلى الديار العربية هرباً من المجازر التي نفذتها الحكومة العثمانية، ومشاركتهم ـ بعد النهوض من كبوتهم ـ في الحياة العامة في الأقطار العربية. والحدث الثاني هو استقلال أرمينيا المعاصرة بعد تفكك الاتحاد السوفياتي عام 1991 وماتبع ذلك من تغيُّر في طبيعة العلاقة بين أرمينيا والبلاد التي اتخذها الأرمن أوطاناً جديدة لهم ومنها البلاد العربية.

الكاتب ڤاهان توتوڤينتس (1894 ـ 1938) يعود بجذوره إلى أرمينيا الغربية التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. ولد في مدينة المزيرة قرب خاربيرت عام 1894 (تذكر مصادر أخرى أنه من مواليد عام 1889). تلقّى تعليمه الأوليّ في «المدرسة المركزية» في المزيرة حيث تتلمذ على أيدي اثنين من الأدباء الأرمن المشهورين هما المربّيان «تلكادينتسي» و«زارتاريان» اللذان أثّرا تأثيراً كبيراً في أسلوب تلميذهما

الموهوب وقدراته الإبداعية. وظهرت باكورة إنتاجه في جريدة «الصحافة الشرقية» عام 1908 وهي جريدة كانت تصدر في إزمير.

بعد صدور الدستور العثماني (1908) يذهب توتوڤينتس إلى استانبول ومن هناك ينتقل إلى أوروبا وأمريكا. وفي العالم الجديد يكسب رزقه بمزاولة أعمال يدوية شاقة وفي الوقت نفسه ينكبّ على التحصيل الجامعي ويتم قبوله في جامعة ويسكنسن عام 1912 حيث يتابع المحاضرات في الأدب والتاريخ والفلسفة ويتعمّق في معرفة اللغة الانكليزية ويدرس أيضاً الفرنسية كما يبحث في موضوعات تتعلق بالأدب العالمي.

ومع نشوب الحرب العالمية الأولى وإقدام الحكومة العثمانية على تنظيم عمليات لإبادة الرعايا الأرمن، يلتحق توتوڤينتس بصفوف الحركة الفدائية ويحارب في منطقتي ڤان وأرزوروم (أرضروم) ويساهم في أعمال تفيد الصالح العام مثل إعانة المهجّرين وتدبير أمورهم. بعد استلام القوات السوفياتية السلطة في أرمينيا يعود توتوڤينتس إلى أمريكا ولكنه يرجع عام 1922 ويحاول التأقلم مع الواقع السياسي الجديد. كان في أوج نشاطه الأدبي عندما اعتقل عام 1936 أثناء موجة تحقيقات شملت المفكرين الأرمن وقضى نحبه بعد عامين في ظروف غامضة ولكن ما خلّفه وراءه يكفي ليحفظ له مكانة مرموقة في سجل الأدب الأرمني.

جرّب توتوڤينتس أنواعاً أدبية مختلفة وأنتج أعمالاً كثيرة، منها الشعر والقصص القصيرة والروايات والمسرحيات. وتعتبر الفترة الممتدة من عام 1929 حتى آخر عمره من أكثر الفترات ثراءً في حياته الإبداعية. وكتابه المترجَم هذا يعدّ من أشهر أعماله نُشر عام 1933 وتُرجم إلى الروسية والانكليزية.

«الحياة على الدرب الروماني القديم» سرد لحياة الكاتب في فترتي الطفولة والمراهقة، تجري أحداثها في المدينة الريفية الجميلة التي ولد فيها الكاتب، وهي مدينة تاريخية تقع على الدرب الروماني القديم القادم من الشرق والواصل حتى العاصمة روما. هذا الطريق شاهد على استمرارية الحياة في تلك البقعة من الأرض منذ زمن بعيد.

الأسى الذي يشعر به الكاتب بسبب فقدان الحياة الماضية يطغى على المشاعر لأنه أسى ذو منحيين: الأول على الصعيد الشخصي والآخر على الصعيد القومي. إن الكاتب لم يفقد فقط أشخاصاً عزيزة على نفسه بل حُرم تماماً من رؤية موطن ولادته. وفقدان الأفراد مقترن هنا بفقدان الأرض بكل مايحمل ذلك من مضامين.

منذ السطور الأولى ينجلي أمامنا مشهد المدينة الريفية التي عاش فيها الكاتب. أناس يحيون حياة دعة وسكون ويمارسون أعمالهم اليومية. وقبل أن يهمّ القارئ بتقليب الصفحة الأولى يكون الكاتب ـ وهو الطفل الذي ولد لتوّه ـ قد وجد مكانه في حضن أمه الدَفيئ، فتحمله وتصعد به إلى سطح الدار وتناجي القمر: «تعال أيها القمر، تعال وخذ هذا الولد الشقي...» وفي الصفحات التالية يتجلّى لنا مدى تعلق الأم بأولادها وزوجها وماتكنّه لهم من حب وحنان وكذلك بالفقراء البائسين وبسائر المواطنين العاديين. إنه حب كبير عميق بعيد جداً عن الأنانية وحسابات المصالح الفردية.

وبدءاً من الوسط العائلي الضيق ـ من والديه وأخوته والأشخاص الآخرين المقربين إليه ـ يشرع توتوڤينتس في توسيع مادة وصفه التحليلية وينتقل إلى السرد من منظور أوسع مليء بالأحداث المتتابعة والشخصيات المتلاحقة، فيقدم للقارئ عالماً خاصاً فريداً يتميّز بتتابع

جملة من الأحداث الطريفة في بحر من المواقف المأساوية، فيبدو الكاتب في كل هذا كأنه يرى مايجري من مقصورة خاصة به يطل منها على الأحداث.

أبطال الكتاب أناس حقيقيون وهم بحركتهم الدائبة واندفاعاتهم يبدون لنا وكأننا نعرفهم منذ زمن طويل. أبواه شخصيتان متناقضتان تماماً وقد برع توتوڤينتس في إظهار أوجه التباين والتكامل بينهما. فمنذ الفصل الأول يظهر الوالد بكل مايتميّز به من عزم وصرامة. فهو يشرف بنفسه على صنع التابوت الذي سيحوي رفاته بعد مماته. أمّا والدته فتظهر بأعمالها ومظاهر سلوكها تجسيداً حيّاً للتواضع.

إن موطن ولادة الكاتب توتوڤينتس على هذا الدرب الروماني العتيق هو بلا شك ليس بالقرية الصغيرة ولا بالمدينة الكبيرة بالمفهوم الحالي، إنّما هو شيء بينهما. أبطال سائر كُتّاب الأدب الريفي الأرمني في مطلع هذا القرن لايقومون بالتعبير عن حبهم بشكل حسّي ملموس ولايقدمون على تقبيل المرأة إلّا من خدّها. أما أبطال توتوڤينتس فلهم الجرأة على القيام بأكثر من ذلك إذ يعرفون كيف يقبّلون الشفاه. وتتجسّد الرذيلة بامرأة عاهر وجدت في المدينة مستقراً لها. السكان يشيرون إليها بالبنان ولكنهم يحجمون عن التحدث إليها أو الاختلاط بها فهذا عار عظيم. بل حتى أولئك الذين يقضون الليل معها، يتظاهرون عندما يسيرون بمحاذاتها في النهار بأنهم لايعرفونها.

نلتقي في الكتاب ـ ضمن من نلتقي ـ بأحد العائدين إلى الوطن بعد طول غربة في أمريكا ونرى كيف أنّه يسعى عندما يتحدث إلى الناس، إلى لوي شفتيه بشكل يثير الضحك، وقصده من وراء ذلك إظهار أسنانه الذهبية التي تدل على ثرائه. نقرأ عن الجمل القادم من الصحراء،

الذي من فرط إحساسه بالغبن يصيبه مسّ من العناد فلا يتزحزح من مكانه ويبقى على حاله هكذا إلى أن تتساقط ندف الثلج على جفونه وتشتد توسلات الجمال فيشرئب الجمل وينتصب واقفاً على قوائمه ويتابع سيره نحو شمس الجنوب.

ومن الشخصيات الأخرى التي تطل علينا في الكتاب: الخادم الأمين «كوكو» الذي يواجه المتاعب مع ورثة الدار بعد وفاة ربّ الأسرة، «العريس مانوك» الذي يرتزق من وراء نبش القبور وبيع أكفان الموتى، الأخوان «ڤاهرام» و«هراتْش» اللذان يتصارعان للاستحواذ على حبّ الفتاة نفسها إلى أن يقودهما الاقتتال إلى موتها المفجع، «علي» الملقَّب بـ «أمير الرماد» الذي لايجد أمامه وسيلة لارتقاء درجات السلم الاجتماعي في المجتمع العثماني سوى القيام بمناسك الحجّ. وأخيراً وليس آخراً «كشَّاش الحمام آكوب» الذي يضطر إلى ذبح حمائمه أثمن مايملكه في الوجود من أجل ابنته.

يكتب توتوڤينتس عن الفئات الاجتماعية المتواضعة بكثير من التعاطف وهذا يشمل أيضاً الفلاحين الذين يعملون في مزرعة والده. ولايخفى عن نظره النشاطات التي يمارسها المبشرون الدينيون الزاحفون من أوروبا وأمريكا إلى أعماق الريف الأرمني والذين يقومون بالتبشير بالمسيحية كما يفهمونها يبشرون بها السكان الأرمن الذين هم مسيحيون أصلاً ويسعون إلى استتباعهم إلى الطوائف التي يمثلونها في أوروبا وأمريكا ويكشف توتوڤينتس عن الأساليب التي يتّبعها هؤلاء الدعاة وعن خواء نفوس المتخاذلين من القيم الأخلاقية، أولئك الذين يتعاملون معهم من أجل مكاسب مادية.

لعل الدافع الرئيسي الذي جعلني أميل إلى ترجمة هذا الأثر هو إحياء

لذكرى أرض قديمة وحياة سالفة وأناس عاشوا في عصور ماضية. فالكتاب أنشودة منبعثة من الماضي، ذكرى للأناس الذين عاشوا على تلك الأرض ومارسوا فيها حياتهم اليومية آملين بغد أفضل لم يُكتب له أن يجيء. وهل بقي شيء بعد ذلك يذكرنا بهم غير الكتب؟

الخلفية الجغرافية والتاريخية للكتاب

تجري أحداث الكتاب في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في مدينة المزيرة التي تقع على بعد خمسة كيلومترات جنوب غربي مدينة خاربيرت. المدينتان المتجاورتان تحتلان مكانة طليعية ضمن مدن أرمينيا العثمانية باعتبارهما الأكثر تقدماً وازدهاراً وتقعان في سهل خاربيرت الخصيب. ويمر في هذا السهل فرعا نهر الفرات قبل التقائهما ليشكلا نهر الفرات الذي يسير جنوباً راسماً الحدود بين ولايتي خاربيرت وديار بكر أولاً وخاربيرت وحلب ثانياً قبيل الدخول في أراضي ولاية حلب.

المناخ في سهل خاربيرت قاريّ مع تبدلات يومية واضحة في درجة الحرارة، معدّل درجة الحرارة في شهر كانون الثاني أقل من الصفر المئوية بقليل بينما هو 25° مئوية في شهر تموز ودرجة الحرارة القصوى صيفاً 40° مئوية. ومعدّل سقوط الأمطار يبلغ 400 - 600 ملمتر سنوياً.

ونتناول فيما يلي كلتا المدينتين بالتفصيل:

مدينة خاربيرت (خربوط في المصادر العربية). وهي المركز الاقتصادي والثقافي لولاية خاربيرت العثمانية. في أيامنا هذه هي بلدة قريبة من مدينة إلازيك في تركيا.

تعتبر خاربيرت من أهم مدن أرمينيا العثمانية وكانت في مطلع هذا القرن أكثرها نمواً وازدهاراً. وهي عقدة وصل هامة بين الشرق والغرب

كان يمر فيها أحد أهم طرق القوافل التجارية في العصور القديمة والوسطى. ففي عهد الإمبراطور داريوس الأول (522 ـ 484 ق.م) أراد الفرس أن يشقّوا طريقاً يربط عاصمتهم بالبحر المتوسط. وقد مرّ هذا الطريق المسمَّى بـ «الدرب الملكي» في إحدى قرى خاربيرت. وحتى يومنا هذا لاتزال خاربيرت محتفظة بموقعها الاستراتيجي ويمر بالقرب منها طريق ملاطية ـ ديار بكر البري.

انتقلت خاربيرت عام 1071 إلى حكم السلاجقة بعد هزيمة البيزنطيين في معركة ملازكرت. وتمكن أحد القادة الأرمن في الجيش البيزنطي المهزوم أن يحتفظ بالمدينة كعاصمة لدولة أسسها على أنقاض انسحاب البيزنطيين. وفي عام 1185 انتقلت المدينة إلى سلطة حكام بني آرتق ثم تعرَّضت لهجوم المغول وتناقلتها الأيدي فمرّ عليها تيمورلنك وحكمها قبائل التركمان فترة من الزمن كما تعرَّضَت للنهب والتدمير على يد شاه الفرس اسماعيل عام 1507 إلى أن احتلها العثمانيون عام 1515 في عهد السلطان سليم الأول.

ومع سيطرة الأتراك على مجرى الأحداث في المدينة وفي الغرب الأرمني عموماً ازداد مصير الشعب الأرمني سوءاً. وتفاقم الوضع في نهاية القرن السادس عشر عندما انهار الاقتصاد المحلي وتعرَّضت المنطقة لمجاعة دامَت عقداً من الزمن انتقل على أثرها جزء هام من سكان المدينة إلى المناطق الغربية من الإمبراطورية حيث توفرت ظروف عيش أكثر أماناً.

في عام 1617 تعرَّضت خاربيرت للنهب والتخريب على يد أحد البكاوات فنزح قسم من السكان إلى موقع مجاور أسسوا فيه قرية سُمّيت المزيرة وتوسَّعت على مر الأيام.

كانت خاربيرت ونواحيها حتى مطلع القرن الثامن عشر تتبع ولاية سيواس ثم تبعت ولاية ديار بكر. في عام 1878 صدر قرار بفصل خاربيرت ونواحيها عن ولاية ديار بكر واستحداث ولاية جديدة اختيرت المزيرة مركزاً إدارياً لها.

اشتغل سكان خاربيرت في الزراعة والتجارة والمهن الحرة وقد توسعت علاقاتهم التجارية لتشمل معظم مدن الإمبراطورية العثمانية كما وصلوا إلى الأسواق العالمية فكانوا يبيعون منتجاتهم من قطن وصوف وجلد وحبوب وحرير ومشروبات وسجاجيد وفواكه مجفّفة ويستوردون مواد التنظيف والسكر والملح والملابس الجاهزة الخ. ونتيجة لتوسع العلاقات الاقتصادية ازدهر الإنتاج المحلي وتحولت المدينة إلى حاضرة مزدهرة، أُقيم فيها العديد من المشاريع التي اعتمدت على المواد الأولية المتوفرة في سهل خاربيرت.

كانت خاربيرت من المدن الهامة على الخارطة الثقافية لأرمينيا وقد حملت لقب «أثينا الريف» اعترافاً بدورها الريادي في هذا المجال. فلقد تأسّس فيها بين عامي 1859 ـ 1915 مدرسة لاهوتية قامت بتدريس كافة المواد اللغوية والأدبية والفلسفية والعلمية. واشتهر في المدينة أيضاً «معهد الفرات» الذي كانت تديره الحركات التبشيرية، كما اشتهرت «المدرسة المركزية» التابعة لمطرانية الأرمن وهي مدرسة ساهمت في العمل التربوي وخرّجت طوال فترة عملها (1887 ـ 1915) العديد من الشخصيات الأدبية والاجتماعية التي برزت على الساحة الأرمنية. ولم تكن المدينة تخلو من مدارس للإناث وحركات نسائية وفرق مسرحية ومجلات دورية مختلفة.

ولكن حركة الهجرة إلى خارج الإمبراطورية العثمانية ـ لاسيما إلى

القوقاز وكندا والولايات المتحدة ـ بدأت تتصاعد خاصة بعد حملات السلطان عبد الحميد التي ذهبت ضحيتها عشرات الألوف من الرعايا الأرمن.

بلغ عدد سكان خاربيرت عام 1915 حوالي 20 ألف مواطن تقريباً نصفهم من الأرمن. في مطلع ذلك العام وضعت الحكومة التركية يدها على كل مايمكن استخدامه لاحقاً كأداة دفاعية بما فيها أدوات الزراعة وسرعان ماجاء القرار بإغلاق المدارس الأرمنيـة واعتقال المئات من الشخصيات المرموقة الذين تم زجّهم في السجون. وسيق الذكور ممن تراوحت أعمارهم بين 18 ـ 45 إلى الجيش حيث نظمت لهم مذابح جماعية ودفنوا في الترع التي أمروا بحفرها بأنفسهم وانتشر النهب والسلب في كل مكان وسادت حالة من انعدام الأمن. وفي شهر تموز من العام نفسه راح المنادي يقرأ على السكان الفرمان الحكومي الذي يأمرهم بالتحضير للهجرة خلال ثلاثة أيام. تحرك السكان الأرمن في قافلتين تضمّ الواحدة منهما من 2500 ـ 3000 شخص وساروا تحت حراسة الدرك العثماني في الطريق الواصل إلى ميافارقين ورأس العين ثم إلى دير الزور حيث أبيدوا ولم تكتب النجاة لغير مئتين منهم وصلوا إلى حلب في حال يرثى لها.

مدينة المزيرة (كلمة مشتقة من «المزرعة»): وهي المركز الإداري لولاية خاربيرت العثمانية وعُرفت أيضاً باسم مأمورية العزيز وهي الآن مدينة في تركيا تدعى إلازيك (مركز ولاية إلازيك) يفوق عدد سكانها الـ 200 ألف نسمة.

أسّسها الأرمن من سكان خاربيرت المجاورة عام 1617 عندما انتقل قسم كبير منهم للسكن فيها هرباً من غارات البكاوات. في عام 1878

تحولت إلى مركز الولاية الإداري. بلغ عدد سكانها عام 1915 حوالي 16 ألف نسمة نصفهم من الأرمن. ويمكن اعتبار المزيرة في تلك الفترة التي تتزامن أيضاً مع أحداث الكتاب بمثابة بلدة كبيرة أشبه بمدينة تشكل مع خاربيرت المجاورة حاضرة عمرانية عدد سكانها مع القرى القريبة مايقرب من خمسين ألف نسمة.

اشتغل سكان المزيرة بالتجارة والمهن الحرة ومن أهم المعامل التي شيّدت فيها معمل الحرير الذي تأسس عام 1869 واشتهر بإنتاجه عالي الجودة الذي كان يباع في مدن الشرق الأوسط عامة.

من المعالم الثقافية الهامة في المزيرة «المدرسة المركزية» التابعة لمطرانية الأرمن وقد تأسست عام 1892 وفيها درس ڤاهان توتوڤينتس. أنشئ في المدينة أيضاً معهدان أجنبيان أحدهما فرنسي والآخر ألماني.

تعرض سكان المزيرة من الأرمن للقتل والتهجير عام 1915. وقد كان مصيرهم مأساوياً إذ صدرت أوامر ترحيلهم في تموز 1915. وكان المثقفون والقياديون منهم قد تم اعتقالهم قبل ذلك بفترة قصيرة واحتجزوا في سجن المزيرة حيث التهمتهم النيران التي أُضرِمَت في السجن يوم الترحيل.

خرجت قافلة الترحيل البائسة من المدينة بعد ثلاثة أيام من تعميم الأوامر ولم تكد تغادرها حتى انهمر عليها رجال الدرك الأتراك والغوغاء المحتشدة فأبادوها إبادة شبه كاملة. ومن المؤسف حقاً أن معظم الشخصيات التي يتحدث عنها الكاتب في كتابه هذا قد لقيت نهايتها المؤلمة على هذا النحو.

ومن أجل تقدير هول المصاب الذي حلّ بالسكان الأرمن في ولاية خاربيرت يكفي القول أنّ تعدادهم الذي كان في الولاية 205 آلاف

نسمة ذهب منهم ما مجموعه 180 ألف نسمة ضحايا للمجازر واستولى الأتراك على ممتلكاتهم من أراضٍ ومساكن ومزارع ومحالّ وأماكن عبادة.

يوجد أرمن من أهالي خاربيرت ونواحيها في أنحاء كثيرة من العالم وكذلك في أرمينيا المعاصرة حيث هاجر إليها ثلاثة آلاف نسمة أسسوا في عام 1929 ضاحية في أطراف العاصمة يريڤان عُرفت باسم نور خاربيرت (خاربيرت الجديدة).

المترجم

ذهبت والدتي إلى حظيرة الحيوانات لتقوم بحلب البقرة ومضى وقت طويل دون أن تعود إلى الدار.

ـ يا للعجب ـ صاحت عمتي فجأة ـ ماذا جرى للعروس[1]؟ لقد ذهبت إلى الحظيرة ولم ترجع بعد.

ركضوا جميعاً باتجاه الحظيرة ليروا والدتي وهي تفترش الأرض على مقربة من البقرة وتحمل في حضنها وليدها الأزرق العينين.

وكنت أنا هذا المولود.

* * *

احتضنتني والدتي وصعدت بي إلى سطح الدار وقالت مناجية السماء:

ـ تعال أيها القمر، تعال وخذّ هذا الولد الشقيّ...

توجّهتُ بناظريَّ إلى حيث تنادي فرأيت القمر وقد أوشك على الغروب يتربّع على قمة الجبل الداكن الزرقة. يا له من قمر كبير لم أرَ بمثل ضخامته بعد ذلك في حياتي أبداً. تأملت إشعاعه المتألق وابتهجت كثيراً ثم أمسكت بيد واحدة شعر والدتي ورميت بنفسي متدلياً نحو

(1) العروس: هي المرأة مادامت في عرسها (المعجم الوسيط) ـ في الريف الأرمني تظل المرأة تُعرف بالعروس من قِبَل أهل زوجها حتى بعد مضي وقت طويل على زواجها.

الأمام - كنت أرغب في أن أدنو أكثر فأكثر من القمر - وشرعت أمدّ يدي الطليقة نحوه مخاطباً إياه بنفسي. نظرت إليَّ والدتي وضمّتني بغتة إلى صدرها في حركة تجمع بين الحزم والحنان. ووجدت نفسي أستمتع بضمّها لي واستهوتني الرائحة المنبعثة منها ولو أن القمر غاب عن ناظريَّ.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها من مثل هذا العلو البيئة المحيطة بنا - سهل زمردي فسيح مسيَّج بسلاسل جبلية زرقاء. حاولت - وأنا نصف ممسك بأطراف شعرها - أن أرمي بنفسي في الهواء الطلق وأطير نحو الحقول. وبدا لي بأنني سأتمكّن - حالما تأذن لي والدتي - من القفز إلى سطح الدار المقابلة ومن هناك إلى السهل المنبسط.

صعدت امرأة إلى سطح الدار المجاورة وبعد أن رأت القمر في أوج امتلائِهِ رسمت إشارة الصليب على وجهها ونظرت إلينا وقالت:

- أراكِ صعدت بالطفل إلى السطح..

- أجل..

- آه، يا له من طفل وفير الصحة. أبعد الله عنه عيون الحسد..

نغزتني والدتي في الموضع الأكثر نعومة في جسدي.

لم أنتبه بعدئذٍ إلى ماجرى من حديث. لقد استأثر هذا السهل الهادئ الفسيح باهتمامي. ووقع نظري على المآذن وأشجار الحور تتمايل في جمرة المغيب، ثم تكشَّفت أمام ناظريَّ دور السكن وكانت دارنا هي أول ماوقع بصري عليه. وكانوا فيما مضى لايحملوني أبعد من الباب الخارجي أو - في أحسن الأحوال - يقفون بي وراء المشربية لأراقب مايجري من حولي. وكانت قد سنحت لي الفرصة من قبل لرؤية الدار المقابلة لنا فتعرفت على شكلها ولكنني لم أكن قد رأيت

دارنا من قبل وخاصة من هذا المنظور الذي يمكّنني من استيعاب كامل شكلها. وعندما أخذتني والدتي إلى الطرف الآخر من السطح ألقيت نظرة إلى الأسفل ورأيت حديقة دارنا، كما رأيت بركة الماء وقد بدت صغيرة جداً. رأيت خادمنا «كوكو» الذي كان يقوم بسقاية الأزهار وبدا أقصر مما هو عليه. بل إن الشجيرات وحتى الأشجار التي كانت قبل قليل ضخمة جداً بدت وكأنّها تقزّمت. التفتّ نحو والدتي وقد تملكتني الدهشة وتوقعت أن أراها هي أيضاً متبدلة ولكنني وجدتها كما عهدتها.

راحت طيور السنونو تحلّق في ضباب الغروب البنفسجي ـ آلاف منها ترفّ في السماء، والبعض منها تحلق فوق رأسي مباشرة، تمضي مسرعة مطلقة أصواتها الحادة. وفي كل مرة أتابع فيها طيران أحدها ـ وأتخيّل مسار حركته وكأنّه خيط من الخيوط ـ أجد نفسي آخر الأمر أمام كبّة من الخيوط المتداخلة.

ما أكثر ما لهوت يومها وأنا في حضن والدتي محاولاً تقليد الطيور إلى أن داهمني التعب فتعلقت برقبة والدتي وتدلّى رأسي ببطء نحو نهديها ولمسَت شفتايّ الحلمة الدافئة. ولم أستيقظ إلّا في الصباح الباكر عند طلوع الشمس وكان صدر والدتي مكشوفاً وهي مستغرقة في نومها، فدفنت رأسي بين حناياه. ودون أن يرفّ لها جفن لفّتني بيدها.

□ □ □

1

كان والدي من ملّاكي الأراضي وموظفاً حكومياً رفيع المقام. ولكنني - قبل كل شيء - يجب أن أبدأ بحكاية وفاته.

لقد استعدّ والدي لملاقاة ربه وكأنه عريس يدرس كل ما يتعلق بتفاصيل الزفاف. فقبل شهر واحد فقط من وفاته (كان لايزال قادراً على الوقوف على قدميه ويتمتع بنشاط وافر ولكنه مع ذلك كان على يقين من أن جرثومة الموت تنخر في عظامه) استدعى أحد النّجارين وانتقى معه ألواحاً طويلة من خشب الجوز.

- هذه خشبة عجراء - قال والدي - ودفع بها جانباً واستبدلها بأخرى أكثر تجانساً، ثم تمدّد على أرضية الغرفة فوق الكِرمانية[2] ومضى النجار يقيس طوله.

- بربّي إنك صاحب قامة مديدة، يا حاج أفندي - قال مدوناً القياس. ابتسم والدي ابتسامة لامبالية.

شرع النّجار يفصّل تابوت والدي بحضوره شخصياً ووفقاً لإرشاداته وتعليماته الصارمة. كانت والدتي في غرفة مجاورة ترثي نفسها وتبكي بكاءً مرّاً بينما انهمك النجّار في عمله، يقطع الخشب، يهذّبه، يشذّبه، يكسبه لمعاناً، ويلتفت نحو والدي ممازحاً، يقصّ عليه شتى الطرائف

(2) الكِرمانية: سجادة من صنع كرمان بإيران.

دون أن يشغله ذلك عن تناول جرعة من العرق بين الفينة والأخرى.

يوصيه والدي:

- يا معلم ماركار، لأريدك أن تستعمل المسامير أبداً عندما تحكم إغلاق تابوتي.

- أمرك مطاع، يا حاج أفندي.

أما أنا فقد كنت أُراقب عمل المعلم ماركار بروح مرحة ساذجة معتقداً كل الاعتقاد بأن والدي إنّما يقوم بترتيبات رحلة سفر طويلة قد تأخذه إلى استانبول أو إلى مدن أخرى أبعد من ذلك وأنّهُ سيعود حتماً إلينا محمّلاً بالهدايا. فقد كان كل مرة يرجع إلينا من السفر يغدق علينا الهدايا.

أَنجزَ المعلم ماركار صنع التابوت بكل بساطة وبدا من فرط لامبالاته كأنه صنع طاولة أو خزانة ملابس اعتيادية.

- دعني أقصّ عليك ماجرى قبل عشرين عاماً، يا حاج أفندي... - يهمّ المعلم ماركار في سرد حكاية جديدة ويضحك دون أن يفقد اهتمامه في تطويع الخشب الذي بين يديه.

ولكن عندما طلب والدي من أفراد أُسرته أن يخلوا له الغرفة للمرة الأخيرة كي يتمكّن من الاستلقاء كما يشاء في التابوت للتأكد من اتقان العمل، أجفل المعلم ماركار يلحق بالآخرين خارج الغرفة وقد أوجفه الخوف. وقال:

- اشهد بجبروت الله أنّ له قلب أسد.

وفي خارج الغرفة انخرط الجميع في البكاء يشاركون والدتي رثاءها، واغرورقت عيناي بالدموع وحلّ ثقل غريب في نفسي بدل خفّة الروح

التي لازمتني حتى تلك اللحظة، وداهمتني الشكوك بأن والدي ولاشك مشرف على الموت.. ولفّني رعب شديد ازداد وطأة بمرور الوقت وبحلول الليل كان قد خيّم على كامل روحي.

صرت أشعر بالخوف من كل قطعة أثاث في الدار: من خزانة الملابس ـ خاصة إذا كانت أبوابها غير موصدة ـ من بئر الماء والصندوق الضخم تحت الدرج، الذي كنّا في بعض الأحيان نتّخذه مخبأً لنا أثناء اللعب.

حين فتح والدي باب الغرفة لم يجرؤ أحد غيري على الاقتراب منه. أسرعت إليه وتشبّثْتُ به وغرست رأسي في صدره الرحب، أتنشّق بعمق رائحة قميصه. وبثّت تلك الرائحة في نفسي شعوراً بالدفء وبدّدت مخاوفي فاحتضنني والدي وحملق في عينيّ ولاحظت كيف ترقرق الدمع في عينيه. وكنت قد ألفت مشاهدة الدموع في عينيّ والدتي أمّا والدي فهذه هي المرة الأولى التي رأيت الدمع فيهما.

ـ ولدي، ولدي الأزرق العينين ـ قال متنهداً وغمرني بالقبلات.

أخذ الآخرون يقتربون من والدي رويداً رويداً. ووقفوا في صف واحد أمامه، أمّا هو فقد استوى على سريره وأفرد لي مكاناً في حضنه ثم رفع رأسه ونظر إلى كل من حوله وعندما رأى العيون متورمة من كثرة البكاء استشاط غضباً وصاح:

ـ ماذا دهاكم تقفون أمامي هكذا؟ هيا، ابتعدوا من هنا.

وابتعدوا جميعاً وحمل الخادم التابوت وأخذه إلى الخارج.

أطرق والدي برأسه ورنا إليَّ مثل سحابة ثقيلة سوداء.

جاء المعلم ماركار بعد قليل فأطراه والدي على عمله المتقن ودفع له

أجره كما أترع كأس عرقه عدة مرات. رفع المعلم ماركار الكأس الأولى ليشرب نخب والدي وقال:

ـ أشكر لك كرمك، يا حاج أفندي، وأتمنى لك أن تتهنّى...

وجم بغتة وجمد في مكانه مشدوهاً وكأس العرق في يده معلقة في الهواء.

ـ هيا، لابأس عليك، اشرب ـ قال والدي وابتسم.

* * *

دلفت بعد يومين إلى مخزن الحطب ورأيت هناك شيئاً طويلاً مكسواً بلحاف أبيض، مُسْنداً إلى الحائط. دنوت منه ونحّيت عنه اللحاف، فتبيّن لي أنه تابوت والدي.

ركضت إلى الخارج وقد لفّني الرعب. صادفتني والدتي فنظرت في عينيّ نظرة خاطفة وفي الحال أسدلَت جفوني بأصابعها وضمّتني إلى صدرها. من يدري ماذا شاهدَت فيهما؟ كان جسدي يرتعش وكأنني ملقى دون ثياب أمام ريح قارسة. لم تسألني والدتي شيئاً ولكن يبدو أنها أدركت أنني رأيت تابوت والدي.

* * *

كان والدي يذهب إلى مكتبه معتمداً في تنقلاته على حمار ضخم أبيض اللون من نوع «الرهوان»، سرجه مزيَّن بنجوم فضية وأحجار فيروزية، حين يعدو تقدح حوافره الشرر على حجارة الطريق. كان لزام على الخادم أن يركض لاهثاً وراء الحمار ليكون مستعداً ـ مع وصول والدي إلى مكان عمله ـ للإمساك باللجام بيدٍ والرّكاب باليد الأخرى، فيتمكن والدي عندئذ من الترجّل.

وكان الخادم يعيد الحمار إلى الدار من غير أن يمتطيه، فلا أحد غير والدي له الحق في ذلك. وفي المساء يأخذ الخادم الحمار ثانية إلى مكان عمل والدي ثم يرجعه إلى الدار وهكذا دواليك.

كنا فضلاً عن الحمار نحتفظ أيضاً بحصان ونعتني به لغرض واحد فقط هو أن نضعه تحت تصرف الأصدقاء والأقارب حين يأتي إلينا واحد منهم ويقول بأن والدي يبعث إلينا السلام والتحية ويوصي بوضع الحمار تحت تصرفه ليتمكن من الذهاب إلى الضيعة.

ولم يكن والدي يحبّذ أن يرى أُناساً غيره يركبون على حماره، بل إن الحمار نفسه كان من الصعوبة عليه أن يسمح بذلك لأحد غير والدي. وكان لايتوانى ـ عندما يُفرَض عليه شيء من هذا القبيل ـ أن يطيح بالراكب ويلقيه في أول حفرة أو خندق يصادفه في الطريق. يبدو أن الكثير من الصفات الأرستقراطية التي تمتَّع بها والدي قد وجدت طريقها إلى الحمار وتطور تكوينه النفسي أيضاً على النحو نفسه.

قبل موعد رجوع والدي كانت الحركة تدبّ في كل أرجاء الدار ـ يتفرّغ كل فرد لعمل يقوم به مابين ترتيب للأشياء وإعدادها وتنظيفها ومسح الغبار عنها وتغيير مواضعها الخ، فكل شيء يجب أن يظهر في منتهى النظام ـ الأحذية يجب أن تكون مرتبة، أبواب الخزائن موصدة، أزهار الحديقة معتنى بها تمام الاعتناء، شعر الأطفال مسرَّح، ملابس الأسرة نظيفة مهندمة، كوب الماء لايبعد كثيراً عن الابريق واتجاه المَشكَة معاكس للجدار، المكنسة في الزاوية المخصَّصة لها، أمّا العلّاقة الخاصة بمعطف والدي على مشجب الملابس فيجب أن تكون خالية تماماً.

كان ينزل من على ظهر الحمار عند باب الدار ويتمهّل بعض الوقت ويشعل سيجارة، ليحيط أهل الدار علماً بقدومه. في الحقيقة لم تكن هناك حاجة إلى ذلك، لأن الحمار كان يطلق نهيقه منذ إطلاله على ناصية الشارع معلناً عن مجيئه.

تلتقي والدتي في باحة الدار بوالدي ويصعدان معاً السلالم ولم يكن بوسع أحد منا أن يقصده من تلقاء نفسه، وإنّما يختار هو أن ينادي علينا واحداً تلو الآخر ويقبلنا ويداعبنا أو ينهرنا وأخيراً يأمرنا بالانصراف.

* * *

كان والدي أيام الآحاد يذهب إلى المزرعة ويبقى فيها حتى منتصف الليل، يجلس بمحاذاة البركة الرائقة، يشرب العرق ثم يتناول طعام العشاء الذي يأتيه خصيصاً في الوقت المحدد له، وهو طعام معدّ سلفاً لإطعام عشرة رجال تحسّباً من حلول ضيوف غير متوقعين عليه.

عند منتصف الليل يرجع والدي إلى الدار راكباً على ظهر الحمار. وتمكث والدتي بانتظاره حتى لو اضطرته الظروف ليتأخر كثيراً، إذ لابد أن تتبادل معه بعض الحديث قبل أن تأوي إلى الفراش.

لقد قضيت طفولتي في تلك المزرعة على حافة البركة الصافية وتحت ظلال أجنحة الحمام. ما أكثر النجوم التي كانت تسقط ليلاً من السماء الزرقاء إلى أعماق البركة معكرةً صفاءها الجليل. وفي النهار كانت الشمس تعوم فيها وكأنها تنتعش في مياهها الباردة وتركن البركة في الليل إلى غموضها الكوني العميق ويفترش قاعها الأملس بساط أزرق،

فتبدو مياهها الداكنة وكأنها ابتلعت آلافاً من النجوم، ويسود صمت مطبق لامتناه وتميل أشجار الصفصاف على وجه البركة فيصدر عنها صوت تهامس متناغم.

فجأة يخترق صفحة الماء وميض شِهاب يتلاشى في قاع البركة. إنه ليل غاسق يعمّ الكون ظلاماً ويرهو بأجنحته الضخمة فوق كل الأصقاع مثل حلم مديد مبثوث في كل مكان، حلم تتراقص فيه الألوان وتَتَكلّلُها الغيوم البيضاء فيبدو المشهد كله وكأن شيئاً مجهولاً يتساقط من السماء الزرقاء قطرة تلو القطرة مثل دمع الغزال، شيئاً يولد مثل الرعشة ثم ينتشر وينتشر حتى يعمّ الكون بأسره.

ويتفجّر الثمر بألوانه الصارخة على الشجر الذي تعلو هامته على العشب الأخضر النضر المبرقع بأزهار الخزامى الحمراء. تتلون خاصرة الجبل بحمرة الشمس ومن خلفه تأسر الجبال الزرقاء في حضنها بحيرة صافية مثل حجر الفيروز فتبدو وكأنها استقطبت الآلاف من عيون الأطفال التي تطرف معاً.

وتتدلى حبات العنب من العريش وكأنها عيون أطفال صافية شفافة، حبات متنوعة الألوان تتشرّب بما تجود عليها الشمس من ضياء وألوان وطيب مذاق، كأن الشمس نفسها قد تكثّفت وارتشحت قطرة قطرة ثم تبلورت على شكل حبّات.

في الخريف تفيض الأرض خيراً وبركة فتبدو وكأنها ستتمزّق بعنفوان جامح ويجود الثمر وتتناثر حباته كأنها رذاذ المياه المنسابة من أعالي الجبال. ويزبد عصير العنب في المِعْصَرة ويسيل ليملأ براميل النبيذ ابتهاجاً بالأرض ودعاءً للشمس مثل أنشودة تتداخل فيها قوى الأرض والسماء.

وأنا أيضاً تعتريني الرغبة في الشدو بكل ما أوتيت من قوة إنشاد وما تنعَّمْت به من ضياء الشمس وزهوتها.

* * *

في تلك الأيام المعطاءة من فصل الخريف كان والدي يعد العدّة للسفر إلى استانبول. يقال بأن هناك امرأة أغوته في تلك المدينة، ولكنني سأتعرض لهذا الموضوع عندما يأتي ذكر والدتي.

* * *

كنا نجلس إلى مائدة الطعام في جو يخيّم عليه السكوت التام. الإلتزام بالصمت شرط صارم جداً تطالبنا والدتي ألّا نحيد عنه. فلا بسمة ولا التفاتة ولا حتى نصف كلمة. هذا ما يرغب به والدي. أمّا والدتي فقد كانت تعارضه في ذلك لأنها ترى أن تناول الطعام يجب أن يمضي في جو من الهزر والصخب والصيحات السعيدة التي لابأس أن تخرج قليلاً عن حدود الانضباط، كأن يعطس أحدهم في وجه الآخرين واللقمة ماتزال في فمه (هكذا كنا نفعل في الحقيقة عند غياب والدي). ولكن بحضوره تقوم والدتي نفسها بدعوتنا إلى الالتزام بالصمت نزولاً عند مشيئة زوجها.

«الضحك والكلام قبل الطعام وبعده ولكن ليس أثناءه» هكذا كان يوجز والدي فلسفته في هذا الخصوص وحين نحاول في بعض الأحيان تجاوز النظام المفروض علينا كان يسرع إلى زجرنا.

كان والدي يرتدي البزة الرسمية مرتين في السنة، يلبسها حانقاً غاضباً مطلقاً السباب والشتائم لأنه من الصعب عليه ركوب الحمار بها، فهي مؤلفة من سترة طويلة من نوع «السرطق» مزرّرة بالكامل من الأمام ذات ياقة عالية مزينة بكِتفيتين مهدَّبتين بشراريب ذهبية اللون، يغطي

صدرَه شريط عريض متموّج أخضر اللون ينحدر بشكل مائل من كتفه اليمني. وعند عودته من العرض الرسمي كان يخلع البزة بأسرع مايمكن مردداً «أوف، أوف، لقد تخلّصت منها».

يتميّز يوم العرض بالسلام والهدوء المميّز للأعياد، فتكون أرضية الباحة نظيفة إلى حد تنعكس عليها انعكاساً باهتاً أخْيِلَة الناس الذين يمشون عليها، وتزيِّن البيارق العثمانية ذات النجم والهلال واجهة دارنا وتتوّج قناطر من أغصان الغار الخضراء مدخل الباب الخارجي وقد احتوت على فوانيس متعددة الألوان تضيء الليل.

* * *

كان والدي يقضي ساعات طويلة في الصيف قرب بئر الماء في حديقة الدار إلى جانب شجيرة الورد الكبيرة. منذ الصباح الباكر تتدلى سلة صغيرة إلى درك البئر توضع فيها زجاجة عرق صغيرة وبعض الثمر والخضار. وما أن يتخذ والدي مجلسه قرب البئر حتى تُرفع السلة وتتولى والدتي ترتيب محتوياتها على الطاولة الموضوعة تحت شجيرة الورد.

تتولى إحدى أخواتي خلع حذاء والدي واستبداله بالخُفّ. كان والدي يرفع هامته بين حين وآخر ويمسك غصن الورد مقرّباً وردة كبيرة حمراء إلى أنفه يشتّم عبيرها.

لأزال إلى يومنا هذا أشعر وأنا أجول في بقايا الرماد الأغبر لذاك العالم المندثر وكأن دماً أحمر يرشح من الورد مثلما ينضح الدمع أو ندى الصباح أو صمغ شجر التّنّوب، ذلك لأن السماء تهاوت ذات يوم على ذاك المشهد كما تنهار القبة الفيروزية لمعبد قديم عندما يصيبه الزلزال.

* * *

في ليلة رأس السنة بينما كنا نحن الأطفال ننتظر بشغف بابا ـ نويل ليأتي إلينا بالهدايا، طرق الموت باب دارنا وأمسك بيد والدي وضغط عليها بحرارة، فخرجا معاً ـ الموت ووالدي ـ ومضيا متأبطين ذراعي بعضهما بعضاً. ومشياً على الثلج الأبيض وابتعدا ولم يرجعا ثانية.

□ □ □

2

أعتقد بأن التاريخ لم يشهد سوى مسيحيَّين اثنين، أولهما هو السيد المسيح نفسه، أما الثاني فهي والدتي.

كانت والدتي تواظب على قراءة كتاب واحد دون غيره هو الانجيل، لا همّ لها طوال اليوم سوى تطبيق ما ورد فيه من وصايا. كانت تجلس مع الفقراء على مائدة الطعام وتقوم بأعمال البرّ شريطة ألّا يعلم بها أحد، وفوق ذلك كله كانت لاتكفّ عن الصلاة.

كانت امرأة متواضعة حتى نِقْي العظم، تواضعها طبيعي متأصل فيها إلى حد كان يخلق العديد من الخلافات الحادة بينها وبين والدي. لقد كانت امرأة على أتمّ الاستعداد لتلبية كل مايطلبه زوجها ـ ولو وصل الأمر إلى حد ارتكاب جريمة ـ ولكنها غير قادرة على التخلّص من تواضعها، إذ كانت أسيرة لهذا التواضع. دع الناس يحتقرونها ويبصقون في وجهها ويوسمونها بكل صفات السوء، فهي مستعدة لتحمّل كل ذلك بيالغ التواضع. هذا ما أوصى به الإنجيل.

كان والدي يطلب منها أن تحتل منزلة سيدة الدار الآمرة الناهية وتتصدّر حجرة الجلوس وتحيط نفسها بالوسائد المحشوّة إلى حد التخمة وأن لاتتدخل في الشؤون الاعتيادية والأهم من ذلك أن لاتستضيف أي رجل دين في الدار، إذ كان يشعر بالنفور الشديد منهم.

كان الألم يحزّ في نفس والدتي كلما سمِعَتْه يردد هذا القول، لكنها

كانت تقاوم مفاهيمه التسلطية بصمت وتواضع وعناد لايُدانى، فتُعاون الخادمة خلسة في الغسيل - موصية إيَّانا أن لانبوح لوالدي بشيء - كما تكنس الدار وتفرك مع سائر الخدم أرضية الغرف متوارية عن الأنظار خلف الغبار المتصاعد وتقوم بتحضير الطعام وإيقاد النار في المدفأة، أي بكل ما تقوم به المرأة الريفية. وهي لولا هذا الجهد الذي تبذله لكانت جليس الموتى.

ولكن عندما يحين الوقت ويُرسل الحمار ليركب عليه والدي راجعاً إلى الدار تنقلب الأمور رأساً على عقب، فترتدي والدتي والآخرون ملابس توحي وكأنهم مدعوون لحضور عرس. إلّا أن حدة ملاحظة والدي لاتلبث أن تكشف تجاوزات والدتي وخروجها عن دائرة السلوك الأرستقراطي فينتهرها بعنف قائلاً:

- ألا تكفّين عن هذا!

وتبتسم والدتي بتواضع وتتلقف يديه وترفعهما بصمت ضاغطة إياهما على وجهها فيلوذ والدي بالصمت إزاء هذا التصرف الودود ويتقهقر تحت ثقل رأفتها ولكن الغضب العاصف في نفسه لايهمد وإنّما يدفعه إلى الصعود إلى معتزله حيث يغوص في تفكيرٍ عميق.

كلاهما عنيدان. والدي أرستقراطي عنيد ووالدتي ديموقراطية عنيدة، ولم يستطع والدي أبداً حتى آخر يوم من حياته تقبّل طباعها تلك ولاهي تقبلت طباعه.

كانت والدتي على علم بأنه يحتفظ بمحظية له في استانبول ولكنها كانت مرتاحة البال حيال هذا الأمر. ولم يكن هذا نابعاً عن عدم مبالاتها بزوجها وإنّما من حبها الدفين له، فبحبّها له أحبّت أيضاً آثامه.

- إنه رجل - كانت تقول - ولاحدود لمشاعره الجيّاشة.

وإنّي لأذكر أنه بعد وفاة والدي، حينما اعتزم أخي الأكبر أن يسافر إلى استانبول وموانئ البحر الأسود أعطته والدتي قفّة مليئة بالهدايا كي يسلّمها في استانبول إلى عشيقة زوجها. أذكر وقتها كيف اغرورقت عيناها بالدموع، لامن أجل المرأة الأخرى في استانبول وإنّما لأن والدي لم يعد موجوداً. ثم تنهدت قائلة:

- آه لو يعود حيّاً ويحب من النساء ما يشاء.

تمنّت والدتي أن تنال تلك المرأة في استانبول قسطها من الإحترام لأنها جزء من الذكريات النبيلة المتعلقة بوالدي. وتلقّت المرأة الأخرى القفّة التي أرسلتها والدتي بعينين دامعتين بعد أن أخبرها أخي الأكبر لأول مرة عن وفاة والدي.

وهكذا بكت امرأتان من أجل رجل واحد، رجل كان قد ملأ قلب كليهما رهبةً وارتوى من نسغ شفتيهما.

وحكى لنا أخي الأكبر كيف ذهب إلى تلك المرأة في استانبول وكيف أنها عرفته في الحال وأخذته بالأحضان والقبلات وبكت بكاءً مراً.

- إنها فارعة الطول نحيلة، شعرها طويل وعيناها بلون الجوز ولها أنف يوناني وعلى عنقها تحمل شامة سوداء.

كانت والدتي تستمع إلى حديث أخي بتشوق وإثارة وهي تذرف الدموع من عينيها. وتقول:

- لقد أصبحت يتيمة تلك المرأة البائسة.

وإلى يومنا هذا لم أستطع استيعاب عمق تلك المحبة وعندما أجهد في التمعّن في أغوارها أشعر بالزوغان ويرتجف قلبي من هول الفكرة.

لم تكن والدتي قد حظيت بثقافة عالية في حياتها قط، فجلّ ما أوتيت به لايتعدّى حدود الإنجيل ولكنها في كنف حبها الأعظم اهتدت إلى الوئام الروحي التام. فالمرأة عندما تحب تقدر على تحريك الجبال.

* * *

كان عزاء والدتي الأكبر يتمثّل ـ كما ذكرت ـ في أن تجلس القرفصاء مساء كل يوم أو عصر أيام الآحاد في إحدى زوايا الغرفة وتشرع في قراءة الإنجيل، في البدء من أجل راحة نفس والدي المتوفى، أمّا في السنين اللاحقة فمن أجل سلامة إخوتي المغتربين أيضاً.

ـ لأقرأ فصلاً من فصول الإنجيل من أجل ابني كيفورك ـ كانت تقول وتقلب الصفحات وقبل أن تباشر في القراءَة تطفر عيناها الكستنائيتان الصافيتان بالدموع. وبعد أن تختم قراءة الفصل تقول:

ـ لأقرأ الآن فصلاً آخر من أجل ابني ليڤون.

ويملأ نفوسنا شعور عميق من الوجل والرهبة وتسري فينا رعشة غريبة وأمام بصرنا تشخص والدتي وكأنها امرأة لانعرفها. بعد القراءة كانت ترتل صلوات صامتة ولم تكن تضنّ علينا بشرح مفصّل تعبّر فيه عن قناعاتها الشخصية وذلك كلما طرحنا عليها التساؤلات عن أحداث الإنجيل وشخصياته.

ذات مرة كنت مستلقياً على السرير والنعاس يكاد يغلبني. كانت والدتي منشغلة في أعمال الخياطة بينما زوجة أخي الأكبر تقرأ في الإنجيل بصوت عالٍ. وفجأت كفّت عن القراءَة والتفتت نحو والدتي وقالت:

ـ أُماه، أريد أن أسألك شيئاً. يقول الكتاب المقدس أن الأفعى تحايلت

على حواء وأقنعتها بكلامها المعسول بأن تأكل من شجرة التفاح، وتُقدِّم لآدم التفاحة نفسها، فطردهما الله من الجنة عقاباً لهما. هذا الفصل لا أفهمه البتة...

- صه يا عروس - قاطعتها والدتي - الزمي الصمت لئلا يسمعك الولد.

كنت أنا المقصود بالولد. وقد كنت حتى وقتها أُغالب النعاس وكان من الممكن أن أستسلم لسلطان النوم لولا أنني - بعد أن سمعت تحذيرات والدتي - وجدت نفسي متيقظاً ومتنبهاً إلى أقصى حد.

- الولد يغطّ في النوم - قالت زوجة أخي.

وعندما تأكّدت والدتي أنني نائم فعلاً أسهبت في شرح قصة الأفعى وقالت:

- يا عروسنا الصغيرة، أنتِ الآن أمّ لولدين ولكنك مازلت جاهلة بالأمور، لاتعلمين منها شيئاً. قولي لي لماذا لاتُسمَح للمرأة بأن تقوم بما يحلو لها؟ لماذا لاتعتلي النساء منصة المذْبَح في الكنيسة؟ هذا الكائن الذين يسمونه امرأة قد وقع في العديد من الخطايا. معظم آثام العالم من فعل النساء. سأخبركِ بالقصة ولكن عليك أن تحتفظي بها لنفسك. إن حواء حملت قبل زواجها وهذا شيء لم يسرّ الله لأنه لم يكن قد أذن لها بذلك. حواء لم تتمالك نفسها وارتمت في أحضان آدم، وغضب الله مما حدث ولعنهما وطردهما من الفردوس. الأفعي هي النار التي تتأجّج في صدر المرأة. هل سبق لك أن شاهدتِ رجلاً يمسّ امرأة دون أن تكون هي التي قد لوّحت له بمنديلها أولاً؟ اللعنة على هذه المرأة حواء التي حبلت دون زفاف وأودت بنا إلى مثل هذا الحضيض. ألم يكن من الأجدر بها أن تصبر قليلاً حتى يأذن الله لها بالزواج. عند ذاك

كان من الممكن لها أن تحضنه دون أن ينافسها في ذلك امرأة أُخرى، إذ لم يكن يوجد على وجه البسيطة وقتها غيرها هي وآدم.

أطلقت زوجة أخي صيحة استهجان في الوقت الذي ختمت والدتي شرحها قائلة:

ـ في الحقيقة، إنَّ حواء هذه لاتمت إلى الأخلاق الحميدة بصلة.

* * *

إلى اليوم لاأنسى كيف أنني كنت وراء الذعر الشديد الذي أصاب والدتي الطيبة في يوم من الأيام. كان الطقس صيفاً ولم أجد أنا ملاذاً من الحرّ القائظ سوى اللجوء إلى القبو المظلم. وفي الجو الرّطب هناك خلدت إلى النوم. لا أدري كم من الوقت مضى وأنا نائم وقد بدأ أحدهم ينزل على الدرج. حملقتُ ورحت أمعن النظر حولي وفجأة سمعت صيحة مرعبة أفلتها النازل أعقبه ارتطام على الأرض. فوثبت من مكاني فوراً في الوقت الذي هرع إليَّ باقي أفراد الأسرة.

كانت والدتي هي التي أُغمى عليها ووقعت على الأرض. قمنا بحملها ونقلها إلى حجرة النوم واستفاقت بعد رشِّها بالماء مراراً، وبدت شاحبة اللون ترمق بعينين خائفتين تارة يمنة وتارة يسرة وكأنها تبحث عن زوجها الراحل.

سرعان ما حضر أخي الأكبر (يصغرها بثلاث عشرة سنة فقط) وأخذ رأسها بين يديه وهو يتساءل:

ـ ماذا حدث؟

تخلَّصت والدتي من عقدة لسانها وتنهَّدت قائلة:

ـ هناك شيطان في القبو، عيناه تلمعان كالشَّرَر.

تأثر أخي الأكبر من هذا الكلام وظن أن شيئاً ما قد ألمَّ بها وأن لوثة أصابت عقلها ولكنني أسرعت لاستدراك الموقف واقتربت منها وأسكنت رأسي على صدرها العطر وقلت وأنا أبكي.

ـ أنا الذي كنت مستلقياً في القبو وليس الشيطان.

أراد أخي الأكبر أن يعاقبني على فعلتي ولكن والدتي لم تسمح له بذلك. فرغم كل الخوف الذي سببته لها أزهرت على شفتيها ابتسامة خفيفة وأخذتني في حضنها وقالت:

ـ لك عينان مثل عيني الشيطان.

ثم راحت تداعب شعري الأشقر بأصابعها بحنان فائق.

* * *

في وقت متأخر من الليل نهضت من سريري وذهبت إلى والدتي. كنت لاأزال أشعر بكثير من الألم لما سببت لها من ذعر. رقدت في فراشها حتى الصباح مطوّقاً رقبتها. ومع إشراقة الصباح حينما أمعنت النظر في عينيها وأبحرت في لجة صفائهما حملتني ابتسامتها السمحة إلى الأجواء السامية.

* * *

كانت والدتي جميلة المظهر، دؤوبة الحركة، تتمتع بالصحة والعافية. عندما أتذكرها لابد أن أتذكر أيضاً شجرة السّرو في حديقة دارنا. فهي في مخيّلتي أشبه بها.

كانت تمسك الجرن المليء بالماء وترفعه على الأرض دون عناء وتُفرغ منه الماء معتمدة على قوة معصميها. وهي لاتستعين بأحد حين تحتاج إلى نقل طاولة ما أو أي غرض آخر ثقيل، إنّما تقوم بكل ذلك

بمفردها وبخفة حركة تامة وكأنها تنقل غصناً صغيراً من موضع إلى آخر.

وكانت قبل أن يجيئها الطلق بنحو ساعة تتخلّى عن أعمالها الاعتيادية، تكاد لاتظهر آثار ألم على قسمات وجهها، بل تبتسم ابتسامة صافية رائقة، تنهض بعدها لتختلي بنفسها وتحكم الإمساك على طرفي خاصرتها وهكذا يخرج الواحد منا إلى نور الحياة. يقال إن البعض منا قد أطلق صرخته الأولى قبل أن يرى النور بعد وساقاه لاتزالان في أحشائها. لقد أنجبت والدتي أطفالاً أصحاء أشداء يتدفّق الدم غزيراً في عروقهم حتى يكاد يُخشَى عليهم من الاختناق، بل إن أحد إخوتي مات مختنقاً على هذا النحو وهو لم يَعْدُ الشهرين من العمر بعد.

كان حليب والدتي مدراراً وكنا نذهب إلى الأمهات اللواتي لاقدرة لهن على الإرضاع ونأتي بأطفالهن إلى والدتي لترضعهم.

أتذكر بكل وضوح - وأنا بعد طفل بعمر 3 - 4 سنوات - كيف كنت أجلس في حضن والدتي وأرضع فتضغط هي بلمسة إصبعها على طرف الثدي كي تتحرَّر طاقتا أنفي الصغيرتان فأحسن التنفس. كنت أرغل بتوق ونهم شديدين فيرغى الحليب الدسم ويروي غليلي. أتذكر صدرها الأبيض الطاهر الزكيّ والحلمتين الرشيقتين الداكنتين.

أُماه، إنني أذكر السعادة التي كانت تغمرك وابتهاجك الأمومي عندما كنت أنا وإخوتي نرشف الحليب من أعماق صدرك الحنون. أماه، أذكر أيضاً إشارات الغضب في عينيك العسليتين عندما كنا نوجعك ونحن نرضع بأسناننا الحادة الحديثة النشوء.

لقد وجدت الراحة في أحضان كثيرة في حياتي ولكني لم أجد أبداً

مايمكن أن يريحني ويشعرني بمثل ذاك الانشراح الذي تبثّه في نفسي قيثارة حضنك.

الأم ـ إنها المعزوفة الخالدة النضرة المتجددة أبداً. إنها الشجرة الذهبية التي نبتت في حقل السماء الزرقاء.

إنه لتغمرني الكآبة الشديدة الآن وأنا أتذكر كيف كنت السبب في ذرف دموع والدتي الغالية مرّات عديدة نتيجة نزواتي الطائشة. وتجتاحني رغبة أكيدة بأن ينهرني أحدهم بعنف على ما أقدمت عليه لكي تنعم روحي البائسة بالراحة ويخمد في صدري صوت أنين أزلي لم يزل يؤرقني.

ويسدل الستار على مشهد الشمس السائرة إلى الأفول في حمرة من الشفق المتكاثف المتثاقل وتعصف ريح ضارية ويلفّ العالم برد لاذع. أغلقوا الأبواب في وجه هذا العالم. هاهي ابتسامة والدتي تسمو من وراء الجبال الزرقاء وتتماهى مع إشراقة الشمس فأرى خصلات شعرها وقد اختلطت مع أشعة الشمس، ويخلص إلى مسمعي صوت منبعث من فيض ضيائها يقول:

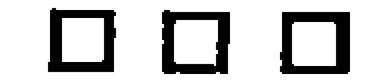
«افتح لي قلبك، يا وليدي العزيز، يا أنشودة كياني، ابتهج في كنف هذا الربيع أنت يا ثمرة ربيعي، سح يا غزالي الحبيب فوق السهول الفيحاء الدائمة الخضرة، سر فوق زبد الموج وابتسم مثل صفاء الحليب الذي أرضعتك، فالحياة مبعث دفء يابني، يا شجرتي السامقة، يا بهجتي، يا حبي».

وهكذا ينبلج صباح يوم جديد جليل ناشراً جناحيه على مراتع الكآبة في نفسي، باعثاً البهجة في رحاب روحي. أسمع صوت والدتي وكأنه آت من بؤرة الشمس. والشمس نفسها تبدو وكأنها أمّ ذات عينين

عسليتين وشعر ذهبي خالص، تطلّ بأنشودتها الذهبية على أخضر الحقول فتسري فيها نضارة الحياة وتمتلئ كؤوس الأزهار بنفحات روحها الحنون.

وأتنشق عبير الورد الطيّب الشذي كأنه حليب أمي. ويحلّ الليل من جديد، ليل هادئ لطيف، ليل عميق سماؤه مرصّعة بالنجوم. وتغيب والدتي مع أفول الشمس.

وأترقّب أنا الصبح وأنتظر بشغف عسى أن تعزف والدتي من جديد على مزمارها الياقوتي الوهّاج.



3

لابد لي هنا أن آتي على ذكر جدي ـ والد أُمّي.

على النقيض من طبيعة والدتي الدمثة كان جدي إنساناً صعب المراس، فقد كان يتشاجر مع كل الناس ويغالي في خصوماته، لايتوانى عن اتهام الناس بالكسل وهو لم يتولّ طوال حياته أي عمل قط وإنّما اعتمد على ماترك له والده من أملاك، مستهلكاً القسم الأكبر منها في دفع نفقات المحامين الذين وكّلَهم لكسب قضية من قضاياه المفتعلة. وعندما بدَّد أموال أبيه وجد أن أبناءه قد شبُّوا فراح يعيش على حسابهم.

في الصباح كان يدوّن على قصاصة من ورق البَرْديّ قائمة بالأشياء التي يريد أن يشتريها إذا ذهب إلى السوق (هذا إن ذهب إلى السوق فعلاً). وعادة ماتكون القائمة مؤلفة من 3 ـ 4 بنود. أوقيتان من السكر، 25 غراماً من الزنجبيل، زجاجة خلّ واحدة، خبز ـ وكان يعتبر مايقوم به هذا عملاً عظيم الشأن.

ـ ويقولون أنني لاأقوم بأي عمل... ألا يعتبر هذا عملاً؟ ـ كان يتساءل مشيراً إلى جدول مشترياته المدون على قصاصة البَرْديّ.

ركوبه على الحصان وذهابه إلى الكرْم والعودة منه كان يعتبره عملاً بحد ذاته إذ لابد له أن يتشاجر مع حارس الكرْم ويرفث في كلامه. أمّا تردده على الكنيسة والصلاة فيها وتعرُّضه للكاهن فهذا أيضاً عمل

مشهود له من مصاف أعماله الرائدة، خاصة ما إذا أدى إلى فضيحة مجلجلة.

ليس من عادته أن ينادي أقرباءه أو معارفه بأسمائهم الحقيقية. فاللائحة تحتوي على العديد من النعوت التي تُنسب إلى كل واحد منا: الكلب، القط الأسود، الخُنْفَساء، ذيل الثعلب، الثرثار، الخُصيَة المتدلية، النَّفَّاخة، الضرير، وهلم جرّاً. على سبيل المثال، عندما يدور الحديث عني يقول: «كلبنا الأزرق».

في الكنيسة لايجرؤ الكاهن أن يوجز صلواته حين يلمح الحاج آراكيل آغا بين الحضور، ذلك لأن من عادة جدي ـ أي الحاج آراكيل آغا ـ أن يمضي ـ وهو واقف على قدميه حيث هو ـ في تلاوة الفقرات التي أُوجزت بصوت عالٍ غير آبه لما يدور حوله. وحدث ذات مرة أن الكاهن أصرَّ على اختصار صلاة ما رغم علمه المسبق بحضور الحاج آراكيل آغا. فمضى جدي يتلو صلاته ولكن الكاهن لم يعره انتباهاً، وواصل جدي صلاته بصوت أشد وعناد أوضح مبعداً الكاهن عن رغبته في إتمام القداس مبكراً في ذلك اليوم. ولم ينتهِ الموضوع عند هذا الحد وإنما مكث جدي يترقب خروجه من الكنيسة وبادره قائلاً:

ـ لو لم تكن كاهناً لكنتَ الآن تتخبَّط تحت رحمة ضرباتي، أيها اللعين.

وكان ينتقد الشمَّاس لأنه لم يقرع الأجراس مدة كافية وينال القندلفت[3] أيضاً قسطاً من التأنيب لأن الثريا الوسطى في الكنيسة قد انطفأت قبل أوانها... وهكذا.

عند عودته إلى الدار كان يشمّ أفراد الأسرة واحداً فواحداً ليتحقق

(3) القندلفت: هو حافظ المقدسات في الكنيسة ويعتني بكل موجوداتها.

من أن لاأحد منهم قد تناول شيئاً من الطعام قبل انتهاء القدّاس. فينادي على كلٍ واحد بدوره ويأمره «قل آه». نقول «آه» من طرف وتنهال علينا لطمة كفِّهِ من طرف آخر. فمن له القدرة على البقاء دون طعام حتى انتهاء القدّاس؟

كان من المألوف لدينا أن نأكل الملفوف دون طهي نظراً لمذاقه الحلو، وهو يقدَّم على مائدة الطعام كسائر أنواع الثمر. ذات يوم أحضر الخادم من السوق رأساً من الملفوف. أسرع أحد أخوالي ويدعى بارتيف باقتطاع جزء من الملفوف لنفسه، فزجره جدي قائلاً: «لن تأكل منه شيئاً قبل أن يقدَّم على مائدة الطعام».

ولم يكتفِ جدي بذلك وإنَّما ضرب على يد خالي ولكن عندما قُدِّم الملفوف على المائدة مقطّعاً إلى شرائح امتنع بارتيف عن الأكل، وأمره جدي بأن يأكل ولكنه تمسَّك برفضه، فما كان من جدي إلَّا أن أخذ شريحة ملفوف ودسَّها عنوة في فمه، وراح يضربه على قفاه ويتوعد:

ـ ستأكل الملفوف وإن متَّ ستأكله.

راح بارتيف يئن ويصيح ألماً وقد سُدَّت فمه بشريحة كبيرة من الملفوف.

ـ يا حاج آغا، يا حاج آغا، سيأكل ولاشك، سيأكل ـ توسَّلت إليه جدتي ولكن الحاج آغا لم يخفِّف من ضرباته وقال موعزاً.

ـ هيا، سأسمع بنفسي صوت الملفوف وهو يُهْرَس.

راح بارتيف ـ رغبة منه في التخلّص من الضربات ـ يأكل تارة ويبكي تارة أخرى وارتاح جدي عندما سمع الصوت المميَّز للملفوف تحت أسنانه.

كان لجدي شوارب طويلة تصل حتى أذنيه، يتأملها في المرآة بفخر

شديد ولاينصرف عنها إلّا بعد أن يفرك طرفيها السليطين ثلاث أو أربع مرات.

ومن عادته عندما يتسلّم رسالة من أمريكا أن يلجأ إلى فضّ الظرف باستعمال المقصّ. كانت جدتي تنتظر بفارغ الصبر وبعينين دامعتين قراءة رسالة من أحد أبنائها المغتربين، ولكن جدي ـ بإصرار بهيمي ـ كان لايفضّ الظرف إلّا إذا توفر له المقص حتى لو استغرق البحث عنه أياماً. بعد أن يتم له ذلك كان يتوانى كثيراً قبل المضي في قراءة الرسالة، يفرك عدستي نظارته بكل تؤدة، يلف سيجارة، يأتي بالمنفضة ويضعها أمامه بكل حذر ثم يتناول جرعة من العرق ويسعل ويتفل وأخيراً يشرع في القراءة. ولاتظنّ أنه سيقرأ جهاراً، بصوت عال أو مسموع، وإنّما قراءته الأولى تكون لنفسه فقط وذلك لكي «يطّلع على المحتوى» كما يحلو له أن يقول، وبعد ذلك يقرر ما إذا كان ممكناً لباقي أفراد الأسرة الإطلاع عليه، وحين يجد جدتي تقف متلهفة انتهاء إجراءاته المتزمتة يستدركها قائلاً:

ـ هيا قومي لتحضير الغداء ووافيني بعد ذلك.

كانت جدتي امرأة ضئيلة الحجم ذات يدين ناعمتين شديدتي البياض وعينين واسعتين سوداوين وكانت دائمة الابتسام والكياسة، شديدة الاهتمام بالنظافة، يفوح العبير المُسكِر من ملابسها البيضاء الداخلية النظيفة، وعندما تتحدث إلينا تصدر منها الكلمات مجزّأة بصياغة ذكية سائغة.

في الصيف كانت تحب الجلوس على الشرفة فتنبسط أرض الحديقة أمامها متحدّرة نحو جدول كبير ذا مساقط مائية عديدة، ينبجس ماؤه من أعالي الجبال وينزل إلى وديان عميقة حتى يصل إلى سهول رائعة

الجمال. وعندما تهب الريح المعتدلة من صوب جبل «خورا»[4] وتدبّ الحركة في أوراق الشجر كانت جدتي تفتح ثغرها وتتمتم:

ـ آه، ما أحلى نبعك يا جدول.

كيف عاشا معاً هاتان الشخصيتان المتناقضتان طوال 41 عاماً؟ السر يكمن في تلك الوصية الجائرة من العصور السالفة التي تقول «يا امرأة، أطيعي زوجك».

ذات ليلة رأى جدّي في منامه أن هناك قِدراً فخارياً مليئاً بالذهب مدفوناً منذ زمن الأجداد على عمق ذراع تحت أرضية حجرة المؤن. هبَّ من غفوته واقفاً وأرغمنا جميعاً أن ننهض معه وننبش الأرض في وسط الحجرة تماماً. بدأنا بحفر الأرضية الصلدة وفعلاً وعلى العمق المذكور تقريباً لاح القِدْر للعيان وما أن شاهده جدي حتى فقد رشده من فرط الفرحة. تعاضدت سواعد عشرة أشخاص حتى تمكّنّا من حمله إلى حجرة النوم في الطابق العلوي. أذكر أنني كنت أحمل إحدى ذراعيه كي لاترتخي وكانت تلك بحد ذاتها مهمة شاقة.

وفي الصباح استعاد جدي وعيه وطلب أن يحضروا إليه القِدر المكتشف فوراً، فجاؤوا به، وكان فارغاً تماماً وما أن رأى ذلك حتى أُغميَ عليه من جديد وفي هذه المرة طال الأمر وتطلّب تدخُّل الأطباء حتى يستعيد وعيه.

لم يرضَ جدي طوال حياته بالاعتراف بأي ذنب. فقد كان مؤمناً على الدوام بصواب رأيه، وعندما تذكّره جدتي بمحاكماته القضائية المتعددة وعناده الذي لايجدي كانت تتلقى منه الجواب نفسه:

(4) جبل خورا: قمة من قمم جبال طوروس المطلة على سهل خاريرت.

ـ لو تسنَّى لي أن أعيش مرة أخرى لكنت سأُعيد مرة أُخرى كل ماقمت به.

لم يكن يطلب مشورة أحد ولكنه كان يطالب معارفه كلهم بأن يقصدوه لطلب المشورة. على ماذا كان يعتمد جدي في ذلك؟ هل كان حكيماً؟ كلا، وإنَّما هو الحاج آراكيل آغا ليس إلَّا. وماذا كان هذا الحاج آراكيل آغا يمثِّل في الحقيقة؟ لاشيء على الإطلاق. لقد ورث غروره هذا بصفته سليل أسرة ثرية في الماضي رافضاً التخلِّي عن خُيَلائِه وتبجّحه.

وإذا حدث أن قدّم له أحدهم مشورة عابرة ـ ولو لأمر بسيط ـ كان يتجاهل سماعها حتى لو كان مقتنعاً في قرارة نفسه بصحّة وجهة نظرها وفائدتها. كيف يجوز وهو الحاج آراكيل آغا أن يعمل بنصيحة الآخرين...

أتذكر تماماً كيف ارتقى جدي السلم ذات يوم وأراد أن يثبّت مسماراً كبيراً في الحائط. كانت هناك حاجة إلى تعليق شيء ما في ذاك الموضع وأرادت جدتي أن يُدَقّ المسمار بقوة. لكي تحقق غرضها طلبت منه أن يخفِّف من قوة طرقاته، فعمد جدي ـ بقصد مخالفتها الرأي ـ إلى طرق المسمار بكل ما أوتي من قوة، لذلك انغرس المسمار بأكمله في الحائط وهكذا توصَّلت جدتي إلى مبتغاها وابتسمَت خلسة.

عندما تشتهي جدتي قضاء الصيف في منتجع ما، كانت تعمد منذ الشتاء الباكر إلى ذكر مساوئه فتقول على سبيل المثال:

ـ وهل ذاك مكان جيد يقصدونه؟ الطقس فيه قائظ يشوي الناس...

وعندما يحين فصل الصيف يتخذ جدي الترتيبات ويصحبها إلى

المصيف ذاته الذي كان موضع الانتقاد طوال الشتاء. وهكذا كانت مشيئة جدتي هي التي تتحقّق في آخر المطاف ليس في موضوع الاصطياف فقط وإنّما في كل شيء، فهي تعوّل على هذا الأسلوب لتحطيم إرادة جدي الفولاذية.

□ □ □

4

كانت لي عمة متقدمة في السنّ، تراها في كل مكان ومناسبة ـ في الجنائز والأعراس، في الفتن والمآبر، في السوق، على سطح الدار، عند النبع، في الحديقة، على رأس المريض، تحت أقدام المرأة الواضع، عند توزيع حصص الإرث والتركات، في الدهاليز المعتمة لترتيبات الخطبة والقران.

إنها امرأة لم تعرف معنىً للحبّ في حياتها، وهي أشبه بتلك القطة التي فاتها الالتقاء بذكَرها في شهر أيار فصارت تقضي وقتها على الأسطحة وفي حنايا الدار محدّجة حولها بنظرات ثاقبة مثل نمر جائع، متربصةً في كل لحظة لإبراز عدوانيتها.

وعمّتي لم يفتها شهر أيار واحد فقط وإنّما 65 شهراً وباتت تصول وتجول، داخل الدار وخارجها، وهي تنز مرارة وأسى، تشهر غضبها على الأيام والأشياء والبشر على السواء. لقد تحولت هذه المرأة المحبطة إلى عدوة لدودة لروح السلام الأسريّ، كل جزء من جسدها يزفر بحسرة لاتوصف.

سألتُ والدتي ذات يوم:

ـ كيف يمكن، يا أُمي، لعظام عمتي أن تتعدّل في الصيف وتتقوّس في الشتاء؟

وردّت عليّ:

ـ في الشتاء تتشنّج أعصابها برداً أما في الصيف فهي ترتخي.

العصب ـ هذه هي الكلمة التي تعبّر عن جوهر عمتي. فالأعصاب لاتؤثر فقط في هيئتها وإنّما تتحكم بكل تفاصيل حياتها.

كانت امرأة دميمة، تميل بشرتها إلى السّمرة ويعلو رأسها شعر قصير مشتّت، عيناها غائرتان مثل ليل دامس، أصابعها رفيعة، تبرز عليها العروق المنتفخة، جبينها مائل، صدرها منقبض نحو الداخل أمّا بطنها فلا أثر له. ومن صدرها مباشرة تنبثق ساقاها اللتان تلتحمان بالأرض دون أدنى استطالة، يبرز رأسها على منكبيها وكأنه نتوء حاد لايستند إلى رقبة. أمّا أنفها المحصور في الأعلى بالطرفين الحادين لزاويتي عينيها فإنه يعوض عن هذا التضيّق المفروض عليه بالتوسع دون حساب نحو الأسفل منتهياً بأرنبة الأنف التي تحتقن مرة كل شهر وتنتفخ ثم تتخضّب بلون فاقع قبل أن تتفجّر.

من الصعب بمكان وصف شكل فمها لأن ليس له أصلاً شكل معين أو ثابت. فبرفقة أفراد الأسرة مثلاً يكتسب الفم شكلاً آخر غير مايظهر عليه عند استقبال الضيوف. بوجود والدي يضيق الفم وينقبض إلى أبعد الحدود ولكن عندما تبدأ بالنميمة تتزايد أبعاده كثيراً. ويالهول المنظر عندما تخلد إلى النوم ـ حينئذ تفقد السيطرة تماماً على فمها ـ الذي يتحول إلى جحر مقفر مهجور يتحرك فيه خروجاً ودخولاً كل ماهبّ ودبّ وتبرز من أطرافه أسنانها الثلاث المبعثرة مثل بقايا صوارٍ في سفينة قديمة محطمة ملقاة على البرّ.

أمّا ثيابها فهي قديمة العهد دائماً. كانت تشعر بالسعادة في ارتداء أسمالها الرثّة تلك، وعموماً كانت تعارض كل شيء جميل حتى لو

كان ذلك من خلق الطبيعة. فكانت تبغض كل من يتأنّق بهندامه. أمّا كرهها الأعظم فهو من نصيب النساء الحسناوات.

أتذكّر ثيابها الخُبُب المهترئة ومعطفها العطن وسربالها المبقّع بألف رقعة ورقعة، وأتذكر خاصة خمارها الذي حاول ذات يوم سائح انكليزي أخرق اقتناءه على أنّهُ عمل يدوي فريد.

* * *

كان لدى عمتي صندوق ضخم مصنوع من خشب الجوز (يمكن لثلاثة أشخاص أن يجلسوا القرفصاء فيه). من الصعب عليّ الآن أن أتذكر محتوياته: ملابس حريرية مخيّطة بطرز قديمة تعود إلى خمسين سنة خلت، أحذية متنوعة، أنواع مختلفة من الكِعاب الملونة، خيوط مختلطة بعضها ببعض، مناشف شخصية، أغطية تخوت، جوارب، أنواع من القلنسوات، ملابس بيضاء داخلية وقمصان، أنواع من الإبر والدبابيس، أقمشة متفاوتة الجودة، قطع ذهبية قديمة، لآلئ وجواهر، أشياء نفيسة صغيرة، صحون فضية، أنواع من الغلايين والسبحات والزنانير، زجاجات عطور، لوحات فنية وأطر لوحات، عملات قديمة، أقلام مذهّبة الأطراف، محابر، نسخ قديمة من الإنجيل، صلبان مقدسية، أزرار وقبعات، أهداب طرابيش وكشاتبين الخ...

أمّا هي فقد كانت تتدثر بخرقها «الفخمة» وترتدي جوارب قديمة مازالت تُرقّع منذ ثلاثين عاماً حتى بلغت من السماكة قدراً لايستوعبها أي حذاء.

* * *

قبل سنين عديدة طلبها للزواج ناظار آغا ولكنها رفضته ثم صارت تقول:

ـ يا لشدة حماقتي وأنا لم أرضَ به، ففي داره كنت سأحيا حياة السيدات الخوانم[5].

بعد أن تنطق بهذه الكلمات كانت تتنهد بعمق وتذرف الدموع التي تنحدر على خديها المتغضّنين المسودّين.

أما ناظار آغا هذا فقد كان رجلاً ذا شعر جاف نافر، يعتمر طربوشاً لامع الملمس ويقتني مظلة تشبه السروال المتدلّي، لاتفارقه صيفاً شتاءً. عيناه تنظران في اتجاهين متباينين ومشيته أشبه بمشية الحمار المثقل بالمتاع، الذي لم يرَ صاحبه كيف زحل الحمل إلى مؤخرته وصار يضغط على ردفيه أثناء صعوده المرتفَع.

ولكن هذه ليست بالتأكيد صورته في نظر عمتي، إذ كثيراً ما كان يُسمَع منها وهي تقول:

ـ ياله من رجل، قامته لاتشوبها شائبة وكذلك حركته ومشيته، رزين مقلّ في كلامه، يحسن التخاطب مع زوجته، بيته عامر وكسبه وفير.

كان ناظار آغا يملك كشكاً صغيراً مثلّث الشكل يقع في موقع منزوٍ خلف السوق، يقصده المجنَّدون فيحرّر لهم رسائل نموذجية. يتألف كامل أثاث هذا «المكتب» من طاولة متداعية وكرسي مدعم بالعديد من الألياف ومن محبرة مليئة بالوبر وبضعة أقلام من القصب تستعمل في تدوين المكاتيب التي يحررها بالتركية وخابية فخارية وكأس زجاجية مغبرّة إلى حد فقدت معه شفافيتها وأخيراً مكنسة مهترئة غدت لقلة استعمالها تؤلف جزءاً من نواس عنكبوتي.

فضلاً عن كتابة الرسائل العادية كان ناظار آغا يقوم بتحرير طلبات الالتماس المتعلقة بقضايا الإرث والزواج، يقوم بنسخها من

(5) الخانم: سيدة عريقة الأصل، السيدة العقيلة، جمعها خوانم. ويقال أيضاً هانم وجمعها هوانم.

بطن كتاب ضخم بعد أن يُجري التغييرات المتعلقة بالأسماء والتواريخ، فيتقاضى عشر بارات عثمانية نظير الرسائل العادية وستين بارة لتحرير المناشدات.

هل فكَّر ناظار آغا يوماً ما في عمتي؟ لاأعتقد ذلك، لأنني كنت أُلاحظ أنه لدى مروره من أمام دارنا لم يكن يكلف نفسه عناء رفع رأسه إلى الأعلى لسماع ما قد تقوله عمتي.

ذات مرة سألت والدتي عن موضوع ناظار آغا فقالت:

ـ لا أتذكر تماماً يا ولدي، ولكن قبل سنين طويلة دار حديث بهذا الخصوص ولكنه لم يتجاوز حدود الحديث قيد أنملة.

* * *

كنت أذهب مع نسوة الدار إلى الحمّام الشعبي. مازال عندي نفور حتى يومنا هذا تجاه الحمّامات الشرقية لأنني أتذكر رائحة الآجر والدخان الكثيف المتصاعد والمياه الحامية الفوّارة التي تسبب الغثيان وكتل اللحم والشحم المتراكمة على أجساد النساء.

لم يكن الاستحمام وحده مايشغل عمتي وهي تتردَّد على الحمّام الشعبي فقد كانت تراقب بكل دقة وسوء نيّة الصبايا اللواتي بلغن سن الرشد ثم ـ بعد أن تغادر الحمّام ـ تبدأ بنسج الافتراءات والأقاويل. وكانت من الصعب عليها أن تدور على بيوت الناس توّاً بعد انتهاء الحمّام، لأنها عادة ما تكون منهكة بسبب فركها الشديد لجسمها بالصابون الزجاجي المصقول واستخدامها الأدوية الكاوية. ولكن اليوم الذي يلي الحمّام يكون يوماً مشهوداً إذ تطلي عمتي وجنتيها بالمرهم الزيتي وتلقي خمارها العتيق على رأسها وتجول من بيت إلى آخر. فتدخل على «يغيس» خانم.

يغيس خانم امرأة متوجِّسة تخاف من ظل نفسها، ستائر بيتها مسدلة على الدوام وهي تتجنَّب ذكر اسم أي شخص كي لايُفسَّر الأمر خطأً على أنه إساءة لذكره. لها ابن يبلغ الأربعين من العمر وابنة في الخامسة والثلاثين. لم تجرؤ على تزويج ابنها خشية أن يكون ذلك مثار حديث الناس، أمّا الابنة فلم يسبق أن رآها أحد كي يطلب الزواج منها. تسمح لها بالخروج من الدار مرة واحدة كل سنة وذلك حين تصحبها إلى الكنيسة حصراً. وهناك تجبرها على الوقوف في الصف الأخير من الشرفة ولاتسمح لها بأن تكشف من وراء الحجاب سوى عن جزء يسير من أنفها وإحدى عينيها.

تتخيَّل عمتي عن عَمْدٍ بأن يغيس خانم تنوي خطبة ابن كوڤار خانم لابنها، فتتعمد الافتراء عليها ـ وهي التي قد عاينتها في الحمّام مجرّدة من ثيابها ـ فتقول:

ـ إنها تحمل أثَرَيْ سكين على ظهرها. من يدري؟ لعلها مصابة بمرض ما. لاتصلح أبداً أن تكون من نصيب ابنك سمباط.

فتردّ يغيس خانم:

ـ لم يحن بعد وقت زواج ابني سمباط.

أما صاحب الشأن سمباط فهو في الأربعين من عمره.

وتضيف عمتي:

ـ رأيت أنه من واجبي أن أُعلِمك بالأمر.

ثم تدلف إلى بيت آخر حيث تقول:

ـ رأيت ابنة هازارخان خانم وهي تدلك مرهماً على ساقيها. لابد أنها عليلة.

وهاك تعليق آخر عن فتاة أُخرى:

ـ وجهها يبدو على خير مايرام ولكن جسمها شديد النحافة، على غرار جسمي أنا.

وعن فتاة أُخرى:

ـ يكسو جسمها شعر مثل الرجال. تقزّز نفسي.

وهكذا دون توقف أو ملل ودون أن تفلح في إشباع رغباتها الشريرة.

ذات يوم جاءت إلينا ـ في القسم الذي تم تخصيصه لنا من الحمّام الشعبي ـ سيدة من معارفنا وطلبت من والدتي أن تسمح لها بالاستحمام معنا. ثم مضت تستحم بعد أن أذنت لها والدتي بذلك.

وحدث أن غادرت والدتي المكان، فجاءت عمتي وأمرتها بالخروج حالاً.

ـ يا ڤارتير خانم ـ قالت أوغابير خانم موضحة الموقف ـ ماركاريد خانم هي التي سمحت لي بالبقاء.

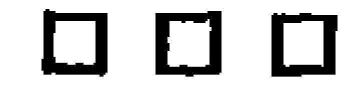
ـ هذا الأمر لايعنيني، هيا اخرجي من هنا ـ أصرّت عمّتي.

استشاطت أوغابير غضباً إذ لم تكن هي أيضاً من ذوات الطبع الهادئ وتعالت التعابير النابية من كلا الطرفين ـ اخرجي ـ لن أخرج ـ كلبة من أنت؟ ـ كيف تتجرّئين على النباح؟ واحتدم بينهما الشجار فتجمّع أقارب أوغابير وأزيح الستار عن مشهد تراجيدي كوميدي.

سحبت أوغابير وأقرباؤها المناشف التي كانت حتى تلك اللحظة تغطي عورات أجسامهن ولففن بها طاسات الماء الكبيرة وبدأنَ يكلن بها الضربات على عمتي التي تاهت وسط هذا الجمع. وتكشّفت أثداء النسوة المليئة بالشحوم وهي تعلو وتهبط وكأنها رؤوس كلاب صغيرة

متوحشة، وانزلقت قدم إحداهن فسقطت بكل ثقلها على أرض الحمّام ولكنها تمالكت نفسها وهبّت واقفة على قدميها ثانية وعادت أشرس من ذي قبل.

اعتمدت عمتي على كرسي الحمّام للرد على ضربات غريماتها فكانت تهوي به دون هوادة على عظام ركبهن وأقدامهن، فتصرخ من تتلقى الضربة ألماً قبل أن يغمى عليها. أخيراً ألقت عمتي الكرسي على جمع النساء واندفعت بما تبقى لديها من عزم نحو أوغابير قبل أن تفقد وعيها هي الأخرى. كانت والدتي قد عادت فتوقف الاقتتال. أما أنا فقد ارتديت ملابسي بالسرعة القصوى وانطلقت لاحضار عربة تقلّ عمتي إلى الدار.



5

كان «كريكور» كبير الخدم عندنا وكنا ندعوه «كوكو» اختصاراً، وهو خادمنا أمام الجيران والناس فقط أما في الحقيقة فقد كان بمثابة «متصرّف عام» لشؤون الدار كما كان يحلو لوالدي أن يصفه.

كان رجلاً متوسط القامة ذا عينين ضاربتين إلى الحمرة ومنكبين عريضين متينين وقدمين ضخمتين متثاقلتين، يعتمر طربوشاً تحيط به لفافة تتدلى مغطية نصف جبينه. وكانت المهام الموكلة إليه كثيرة منها تأمين احتياجات الدار من الخضار واللحوم، الاعتناء بالحديقة، نزح الماء من البئر، حمل صرّة الملابس إلى الحمّام الشعبي، إزالة الثلج المتراكم على السطح شتاءً، التعاقد مع عامل النفايات، معالجة اللحم المعدّ للطبخ ومهام أخرى كثيرة.

فضلاً عما ذكر كان يقوم بانتقاء الضيوف الذين يريدون زيارتنا (ومن هنا جاءت تسميته بالمتصرّف)، فيقول بكل بساطة لمن لايرتاح إليه:

ـ شخصيتك لاتعجبني كثيراً وعليك أن تحدّ من ترددك علينا.

كان والدي يعنّفه على هذا التصرّف ويحضّه على الاهتمام بالمسائل التي تخصّه وأن «لايدسّ أنفَه في شؤون غيره» ولكنه كان يستمر في موقفه هذا بعناد شديد، إذ كان يجد أن ذلك من صميم عمله.

كان والدي يطلب منه أن يذهب إلى مارديروس أفندي ويدعوه

لمؤانسته في لعب النرد. وهذا الأخير من الشخصيات التي لايحبّذها كوكو، ولكنه مع ذلك لايريد أن يتصرف تصرفاً مخالفاً لإرادة والدي، لذلك كان يخرج ليس لدعوة مارديروس أفندي وإنّما ليجول بعض الوقت في السوق ثم يعود ويقول:

ـ مارديروس أفندي غير موجود في داره.

أقام كوكو في دارنا مدة 35 سنة وقد منحته تلك الفترة الطويلة الحق في السهر على مصالح الدار بكل تفانٍ وإخلاص. فمن يبتغي مصاهرتنا كان لابد له أن ينشده، وإذا كان الأمر يتعلق باختيار عروس لأحد منا فلا بد أن يرافقنا إلى بيتها ويعجب بها هو أيضاً.

لقد عهدت إليه وإلى حسن تدبيره ونفاذ بصيرته مسؤوليات الدار المعيشية كاملة، فكان يبدي عناية فائقة بكل التفاصيل بدءاً من الحجر الصغير التافه ورقاقة الخشب المهملة وانتهاءً بحبة البطاطا ورأس البصل.

ذات يوم فوجئ كوكو عند عودته إلى الدار إذ وجد أنَّ والدي قد أرسل في طلب مجموعة من العمال من أجل تلميع الجدران. فاستاء في البداية من هذا التصرف الذي حدث دون أخذ مشورته ولكنه بعد أن طرح عليهم بعض الأسئلة تبيَّن له أنه كان من الممكن تأمين غيرهم بأجر أقل، وبعد أن فكر في الأمر مليّاً اتّخذ قراراً قاطعاً بالاستغناء عنهم والإتيان بآخرين بأجر منخفض، دون أن يمنعه عن ذلك تعاقد والدي المسبق معهم.

في الربيع عندما تبدأ بقرتنا بالخوار وتحرمنا من النوم ليلاً كان والدي يوصيه بأن يفكر في أمرها. يبلع كوكو دخان تبغه بشراهة ويقول:

ـ يا حاج أفندي، لنتركها بعض الوقت فريسة الهيجان...

بعد أن يدعها عدة أيام على تلك الحالة يأخذها إلى قرية مورينيك،

الموطن التقليدي للثيران، كي يهمد هياجها. وبالفعل، تعود البقرة وقد هدأت تماماً بل وأصبحت تمتاز «بالجدية».

عند وصولهما إلى الدار يسرع كوكو إلى قنّ الدجاج ويلتقط بيضة طازجة ويأتي بها ويخبطها على جبين البقرة ويمسح بصفار البيض كامل وجهها. إنه تقليد محلي وفأل خير.

لم يكن لأحد الحق في قطف أي شيء في الحديقة. وحده كوكو هو صاحب الأمر المطلق في ذلك. وقد يحدث أن يتجاسر أحد المارة ويرمي بحجر على غصن من الأغصان المحمَّلة بالثمار والمتدلّية خارج السور. فيكون هذا بالتأكيد إيذاناً ببدء عراك مخضَّب بالدم، فيستشيط كوكو غضباً وترتفع حدة عقيرته وتختلط أصواتهما ويأخذ كل منهما بخناق الآخر حتى ترعف الأنوف. وكانت والدتي تشفق وتقترب من كوكو بحنان وتقول له بصوت خفيض:

ـ دعهم يقطفون قليلاً أيضاً، لاتمنعهم. لن ينقص شيء من محصولنا جراء ذلك.

ـ ياخانم ـ يرد عليها كوكو وعيناه يتطاير منهما الشرر ـ إمّا أن أُقتَل شرّ قتلة هنا تحت الأشجار أو يبتعدون عنها.

لم يكن أحد منا يحمل قدر مايحمله كوكو من مشاعر الحب والحنان تجاه دارنا. كان يدخل إلى حجرة نومنا مساءً ويقول مطفئاً النور.

ـ هيا إلى النوم، لقد تأخر الوقت، أرى أنّكم لن تفيقوا صباح غد إلّا والشمس قد تجاوزت صرّة الواحد منكم.

ونذعن له لأنه كان قادراً ـ وله الصلاحية أيضاً ـ في أن يصفعنا.

كان حنق كوكو يصل إلى ذروته عندما يكتشف آثار خربشات

أقلام أو كشط أظافر على الجدران البيضاء الملساء، فيقوم بفحص أقلامنا وأطراف أظافرنا ويتوصل أخيراً إلى المذنب ومن ثمَّ تنزل الصفعة المشهودة.

في مطلع كل خريف كان كوكو يعقد اجتماعاً مع والدتي لبحث موضوع المؤونة الشتوية. ومهما كانت والدتي تؤكّد على أن المقادير التي حدّدها للزيت أو الأرز أو أيّ من المواد التموينية الأخرى هي ضئيلة ولاتفي بالحاجة، يظل كوكو متمسكاً بمقاديره لايحيد عنها.

ـ لابد من التوفير والاقتصاد، يا خانم ـ كان يقول معبراً عن وجهة نظره التي كانت دون شك هي التي تنفّذ.

* * *

كان كوكو رجلاً متزوجاً ولكن زوجته لم تكن تعيش معنا، إنّما تقيم في الريف حيث يملكان قطعة أرض صغيرة. كانت تأتي إلينا مرة أو مرتين في السنة ولكن لايراها سوى والدتي والأطفال الصغار، أمّا والدي وأخي الأكبر فقد كان من المعيب أن تظهر أمامهما. كانت امرأة ذات وجه أحمر قاني مثل الشوندر وجسم بدين مكوّر وقامة قصيرة، وكانت ترد على الأسئلة الموجهة إليها إمّا بإيماءَة رأس أو بكلمات أحادية المقطع. كان كوكو نادراً ما يتحدث إليها تحت سقف دارنا مكتفياً بتوجيه الأسئلة ذات الطابع الرسمي إليها وخاصة تلك المتعلقة بشؤون البيت أو الأرض، ثم يلوذ بالصمت، إذ كان الاستطراد في الحديث يعدّ عيباً.

وكان يحدث (عندما تغيب زوجته في القرية) أن تلمّ به عصبية غير مبرَّرة، فيضجّ غضباً ويحطم الصحون والأواني ويسيء معاملة البقرة الخ، يقوم والدي على أثرها باستدعاء والدتي وتدور بينهما محادثة قصيرة يقول فيها والدي:

ـ يا ماركاريد، لقد أصاب الهياج هذا الرجل ثانية ولم يعد يرى حوله بوضوح. أرسليه إلى ضيعته لعله يرتاح قليلاً ويعود إلينا معافى.

تبدي والدتي موافقتها على هذا التدبير فنرى كوكو في اليوم التالي راكباً الحمار يسير باتجاه القرية ليمضي فيها بضعة أيام.

ويعود كوكو إلينا وقد تحول إلى إنسان هادئ باسم عطوف تكتسب نظراته تعابير مغايرة تماماً لما كانت عليه، فلا يبدر منه أي انزعاج إذا ماأبقينا النور مشعلاً طوال الليل، بل كان من شدة تعاطفه معنا يحملنا على كتفيه ويدور بنا هنا وهناك.

في تلك الأيام لم أكن أعي شيئاً مما يحدث، أمّا الآن فيمكن لي أن أفهم السبب وراء تقلّبات مزاجه. وما أن تظهر عليه علامات الاهتياج والعصبية من جديد وتتضاعف عدد الصفعات التي يكيلها لنا كنّا ـ نحن الصغار ـ نقصد والدتي ونرجوها قائلين:

ـ ليتكم ترسلونه إلى القرية، لقد عاد يضربنا من جديد.

وتنفرج شفتي والدتي عن ابتسامة هادئة خافية وتدبُّر أمر إرساله إلى القرية دون أن تستعين هذه المرّة بمشورة والدي. ويكون هذا التصرف محطّ فرحنا العارم لأنه إيذان أولاً بتغيُّب كوكو عن الدار عدة أيام وثانياً لأنه بعد عودته يكون رحيماً وخيِّراً إلى أبعد الحدود. وتمضي فترة أُخرى تبدأ فيها ملامح الانتكاسة بالظهور ثانية على محيَّاه. فترة جديدة من عذاب لامناص منه.

ـ أُماه، أرسلوا كوكو إلى بيته...

ـ لديه عمل كثير يا ولدي، أيجوز إرساله إلى القرية كل مرة؟

ـ ليتكم ترسلونه، يا ليت...

يروح كوكو ويجيئ طيباً صالحاً.

في أحد تلك الأيام التي كان فيها هادئاً مسالماً أنقذ كوكو حياتي أو على الأقل خلّصني من إعاقة محتملة كادت تلحق بي.

على سقف حجرة الجلوس كانت هناك كتابة تعود إلى زمن إعمار الدار، تقول:

«أبنائي هاكوب وكيفورك وليڤون هم ورثة هذه الدار».

ولأنني لم أكن قد ولدت بعد وقت تشييد الدار لم يرد اسمي في المدوّنة. ذات يوم خطر ببالي أنه لايجوز لي أن أكون من «ورثة هذه الدار» دون أن يكون هناك ذكر صريح لاسمي. فأحضرت السلم الثلاثي القوائم خفية من الطابق السفلي، وصعدت عليه كي أضيف اسمي تحت قائمة الورثة.

لم أكد أبدأ بتدوين اسمي حتى أحسست بالسلم يتأرجح تحت قدميّ ويتمايل. ولكنّي لحسن الحظ وجدت على مقربة مني كُلّاباً حديدياً قديماً كنا نستعمله في تعليق المصباح الكبير عليه شتاءً. فأمسكت به بينما راح السلم يتحرك تحت قدميّ وبات من المستحيل النزول عليه، ذلك لأنه إذا أفلتّ الكُلّاب من يدي يؤول السلم الهرمي إلى السقوط لامحالة. بدأت أصيح وقد تملكني الخوف والرهبة، وعندما سمع كوكو صوت زعيقي المفجع أجفل وبعد أن أدرك الواقعة جاءني على جناح السرعة وثبّت السلم في موضعه. فهبطت دون خوف. ولم تكن قدماي تطآن الأرض الصلبة حتى هوت لطمة كوكو كالصاعقة على وجهي.

ـ لماذا صعدت على السلم دون أن تثبت خطاف الأمان؟ ـ قال موبّخاً.

على أية حال كنت راضياً من الصفعة. وفي المساء أجلسني والدي على ركبتيه وسألني مداعباً شعري الأشقر:

ـ لماذا صعدت على السلم؟

تشجعتُ من ملاطفته لي وتحدثت عن غايتي بكل صراحة. فضحك والدي بصوتٍ عالٍ وأعلن أمام الجميع:

ـ ثروتي كلها لولدي الصغير، أمّا هذه الدار، فبعد مماتي أوصيكم جميعاً أن تعطوها لحبيبي الصغير هذا دون غيره.

بعد سنوات من وفاة والدي وعندما احتجنا إلى اقتسام أملاكه، اقترحَت والدتي في غيابي أن يكون البيت الأبوي من نصيبي وألّا يُحسب عند توزيع التركة ولايكون مادة للمزاودة أو النقاش، وذلك احتراماً لكل ماقاله والدي حتى ولو لم يكن يقصد يوم قالها غير المزاح..

وهكذا أصبحت الدار من نصيبي، تلك الدار التي لم يرد على أي شاهدة فيها ذكر لاسمي.

* * *

بعد وفاة والدي تعلّق كوكو بدارنا بمزيد من مشاعر الحب الجارف الغامض، ولكن في الوقت نفسه طرأ تبدُّل في طبيعة العلاقات. فقد ظلّت العلاقات بين أمي وكوكو كما هي ولكن تلك التي بين كوكو وأخوتي فقد تغيَّرت تغيراً جذرياً، خصوصاً وأن شوارب اخوتي بدأت بالظهور وأصبحوا يشعرون بمزيد من الثقة أنهم «ورثة هذه الدار». وباتوا يظهرون علامات تمرّد تجاه سطوة كوكو، متهكمين من طريقته في الإدارة، ولكن كوكو تظاهر لفترة طويلة بعدم سماع أو رؤية مايحدث لأن والدتي كانت تقول له:

ـ لاتكترث بهم، فهم مجرد أطفال صغار.

رغم ذلك لم يصبر كوكو على تهكماتهم طويلاً، وذات يوم صاح في وجه أحد الصبية:

ـ أنت يا ولد يا صعلوك، بوسعي أن أبتلعك مثل نشقة تبغ.

فأفسح هذا مجالاً لمزيد من تردِّي العلاقات لاسيما مع أخي ليڤون.

ذات يوم جمع ليڤون أصدقاء الدراسة وجاءَ بهم إلى حجرة الجلوس لقضاء وقت ممتع. فنصحه كوكو قائلاً بأنه ليس من اللائق لأولئك الصبية ـ وعددهم 10 ـ 12 وكلهم في مثل عمره وشقاوته ـ أن يمرحوا في حجرة الجلوس ومن الأفضل لهم التوجُّه إلى حديقة الدار والتمتُّع بوقتهم هناك على عشب المَرْج. ووعد بأن يأتي إليهم بالكراسي ويحضِّر لهم عصيراً يشربونه.

عارض ليڤون الفكرة لمجرد أنها من تدبير كوكو وقال معانداً:

ـ لن أذهب.

تأهّب كوكو ليقمع عناده وحثَّه على ذلك خاصة تلمُّسه في الأونة الأخيرة تدهوراً في سلطته في الدار التي كان هو فيها بمثابة الحاكم المتنفِّذ لما يقرب من 40 سنة. ولكن والدتي اقتربت منه وهدَّأت من فورة غضبه قائلة:

ـ لاتكترث بهم، دعهم يمكثون في حجرة الجلوس.

ـ يا خانم، أنتِ التي تقصمين ظهري ـ قال كوكو معاتباً.

بدأ الصبية يمرحون في حجرة الجلوس ولم يكن مرحهم هذا سوى إساءَة للآداب العامة ـ يشعلون السجائر ويرمون بأعقابها على الأرض، يقلبون السجاد رأساً على عقب، يتراشقون بالوسائد... إلى أن وصل بهم الأمر إلى تحطيم المرآة الكبرى.

أنصَتَ كوكو فترة غير وجيزة للجلبة المرتفعة من حجرة الجلوس وكظم غيظه لا لسبب سوى لأن والدتي قد رجته بذلك، ولكنه عندما أدرك أن حجرة الجلوس قد تحولت إلى مسرح للفوضى صعد إليها وطرد كل الصبية منها الواحد تلو الآخر.

بدا ليڤون أمام رفاقه عديم الحيلة فأصابه الخزي وعضّ على شفتيه. لقد كان مستعداً أن يتحمَّل مثل هذا الموقف المخجل بوجود والدي أمَّا بعد وفاته فهذا غير مقبول على الإطلاق.

صاح بعد أن كان رفاقه قد ابتعدوا:

ـ أنا أحد سادة هذه الدار. ليس للخادم الحق في التدخل.

ـ وأنا أحدهم أيضاً ـ ردّ عليه كوكو.

ـ لست كذلك.

ـ بل نعم.

فصاح ليڤون:

ـ ستخرج من هذه الدار.

كان هذا بمثابة «الانقلاب الحكومي» الأول تجاه سلطة كوكو.

أطرق كوكو وتحصّن بالصمت لا لأن ليس لديه ما يقوله وإنَّما لأنه شعر بالأسى العميق يوغل في صدره. لقد خدم تلك الدار بمنتهى الأمانة والشهامة وبأعلى درجات الصدق مدة 40 سنة، بل إن ليڤون نفسه قد تربَّى على يديه وكثيراً ما كان يحمله على كتفيه وزنديه... وفجأة يجد نفسه في مواجهة هذه الوقاحة الفاضحة. تراكمت المرارة في عينيه قطرة تلو قطرة وبدا الحزن واضحاً في كل ثنية من ثنايا وجهه وفي كل غضن، مثل ذاك الحزن الذي يلفّ الوجه بأكمله عندما يتحطّم قلب الإنسان.

استمر ليڤون في إلحاحه.

- سيخرج من الدار.

تدخَّلَ أخي الأكبر هاكوب وأراد أن يوقف ليڤونْ عند حدِّه ولكن هذا الأخير أعاد إلى الأذهان كلام والدي:

«أبنائي هاكوب وكيفورك وليڤون هم ورثة هذه الدار»

أخيراً تدخلت والدتي وبدَت ممتنة لكوكو إلى أقصى حد بسبب التزامه الصمتَ واحتفاظه ببرودة أعصابه. تميَّز تدخّلها أول الأمر بطابع الهدوء. فقد أرادت أن تهدّئ من روع ليڤون قبل أن يتفاقم الأمر، ولكن تصرّفها المسالم هذا دفع ليڤون إلى التشبُّث بمطلبه المجحف بمزيد من الفظاظة.

- يا بني، لقد عاش كوكو في هذه الدار 23 سنة زيادة على ماعشته أنت. فأنت لم يمض وقت طويل على وجودك تحت هذا السقف، وإذا كانت التدابير المتّبعة هنا لاتروق لك، يمكنك أن تغادر الدار حالاً.

صمتَ ليڤون وامتقع لون وجوهنا جميعاً. فقد كانت والدتي ببساطة تطرد ابنها من الدار. الأمر أبعد من أن يكون مزاحاً.

غادر ليڤون حجرة الجلوس كاسف البال وأتمّت والدتي كلامها:

- لقد عمل كوكو من أجل هذه الدار وتعب أكثر من أي واحد منا. فكل حجر من حجارة الحائط تحمل بصمات أصابعه، فمن له الحق إذاً أن يطرده من هنا؟ ياللعار.

وكأن هذه الكلمة كانت موجّهة إلينا جميعاً، فنكّسنا رؤوسنا بينما اقترب أخي الأكبر من والدتي وأراد أن يخفِّف قليلاً من غلوّ الحكم على ليڤون.

قالت والدتي:

ـ أنا لاأطرده ـ واستطردت ـ لكنه إذا أصرَّ على موقفه، عليه هو أن يغادر هذه الدار وليس غيره.

بعد هذا الحديث اقترب كوكو من والدتي والدموع تملأ عينيه وقبّل يدها وقال:

ـ يا خانم، دعي ليفون يمكث، سأذهب أنا وسأكون راضياً عنكِ تمام الرضى.

ـ كوكو ـ ردَّت عليه والدتي بنبرة لاتخلو من التأنيب ـ لاتتصابَى مع الصبية، دع من يشاء يقول ما يشاء، أمَّا أنت فاعتمد عليّ.

خرج كوكو من الغرفة صامتاً وتوجه نحو المطبخ وانشغل باشعال نار الموقد. وفي المساء لم يظهر ليڤون على مائدة العشاء ولا حتى استطلعَت والدتي عن غيابه. تناولنا طعام العشاء في جو من الوجوم المطبق. لم يتفوّه أي منا بكلمة. وسعى كل واحد أن ينهي طعامه بسرعة وينهض منصرفاً. بعد العشاء أحضَرَ كوكو قهوة تركية قدَّمها إلى والدتي في الفنجان الخزفي الكبير الذي اعتاد أن يشرب منه والدي ولا أحد غيره ولم يسبق أن استعمله بعد وفاته أحد. تناولت والدتي الفنجان وقطرات دمع كبيرة تنزل من عينيها النجلاوين الكستنائيتين. رأينا فجأة أن كوكو أيضاً كان يبكي، فانخرطنا نحن أيضاً بالبكاء في صمت مرير. وبعد صمت طويل قالت والدتي:

ـ لن يجري أي تغيير في هذه الدار.

كان إعلانها هذا قاطعاً باتّاً لدرجة أننا أُصِبنا جميعاً بالهلع.

ما أن استيقظ ليڤون في صبيحة اليوم التالي حتى توجَّه نحو حديقة الدار حيث كان كوكو منهمكاً في سقاية الأزهار. كان صباحاً صحواً

رائقاً نديّاً. راح ليڤون يقترب منه بتردّد وخوف ولكن بدافع من الإصرار الداخلي أسرع حتى وصل إليه وعانقه. وأسرع كوكو بإلقاء مرشّة الماء على العشب واحتضن ليڤون وقبّله طويلاً ثم تنهّد بمشاعر حبٍّ عميق قائلاً:

ـ يا حبيبي، يا حبيبي الصغير...

□ □ □

6

كان أخي الأكبر هاكوب يحتفظ بفرس عربية أصيلة شبّت وترعرعت عندنا ولم تر أبداً أشجار النخيل ولا انغرست حوافرها في رمال الجنوب الحارة، ولكن في أعماق عينيها كان يسري كل ماتحمله تلك البلاد من إثارة وفي صهيلها تتردَّد أصداء الشوق العارم إلى البراري.

أُنثى الخيل هذه التي أطلق هاكوب عليها اسم ماران كانت سوداء اللون مثل الكهرمان الأسود، لامعة الجلد أملسه، ثلاثة من قوائمها بيضاء وعلى جبينها لطخة فاتحة اللون بيضوية الشكل.

لم تعرف ماران في حياتها معنىً للّجام قط، إذ كانت تتحرك في أرجاء الدار بحرية تامة، بل كانت عند الظهيرة ـ حين تتجمّع أسرتنا حول المائدة الكبيرة ـ تأتي وترخي خطمها على كتف هاكوب وتمكث هكذا حتى تحصل على قطعة حلوى ثم ترخيها على كتف والدي وأخيراً على كتف والدتي التي كانت بطيبة بالغة وبسمة صافية كبسمة عروس شابة، تزودها بقطعة الحلوى الأخيرة وتوعز إليها بالذهاب إلى الحديقة. فتتوجّه ماران صوب الحديقة وهي تلوك الحلوى وتسمعنا من بعيد صوت صهيلها بمثابة الإعلان عن وصولها.

وعند سماع هذا الصهيل كان أخي يجمد في مكانه، بل إن لقمة

الطعام التي ينوي تناولها تبقى معلّقة في الهواء ومن شدَّة بهجته يناغيها متنهداً «إنّي أحبّك».

كان من عادة هاكوب أن ينهض من فراشه كل ليلة ويذهب لإلقاء نظرة أخيرة على ماران، يداعبها يقبّلها ثم يعود إلى فراشه. حجرة ماران (من الصعب تسمية مكان مبيتها بالإسطبل) تقع تحت غرفة والديّ مباشرة. وحين تُسمَع في هزيع الليل حمحمتها الهادئة الصافية كان والدي يقول:

ـ هاقد ذهب هاكوب لملاقاة حبيبته.

كان هاكوب يقتادها كل يوم أحد إلى الأرض المحروثة وهناك يطلق لها العنان فتخبّ ماران كالريح العاتية وتسير كالموج المتداعي على صفحة الحقل الفسيح. ولعلها كانت بهجة عظيمة لشبان المدينة أن يتجمّعوا في الحقل لمشاهدة ماران وهي تسابق الريح حتى تصل إلى تخوم الحقل وتتوقف هناك وترنو بعينين صافيتين إلى الآفاق البعيدة، البعيدة جداً. ترى بماذا كان هذا الحيوان الرائع يحلم؟ لاأحد يدري. وتعود ماران مثل الموج الهائج تأتي لتقف على مقربة من هاكوب الذي يفرد ذراعيه ويلفهما حول رقبتها ويقرّب شفتيه من جلدها الأسود الرطب ويقبلها.

ـ كأنها تطير فوق الغمام ـ كانت كلمات الإطراء تُسمع من كافة الحاضرين.

يعود هاكوب إلى الدار برفقة ماران حيث يكون كوكو قد هيأ بالطبع البيضة الطازجة التي سيخبطها على رأس الفرس، وهو يقوم بذلك كلما اقتيدت ماران خارج الاسطبل أو أُعيدت إليه وذلك لردّ عيون الحسد عنها.

كانت ماران شغل هاكوب الشاغل. فعندما أنهى دراسته الإعدادية واقترح عليه والدي أن يبعثه للدراسة في مدرسة ثانوية رفض الفكرة لالشيء إلّا لأنه ليس بوسعه أن يصطحب معه ماران إلى استانبول أو بورصة[6] أو أية مدينة أخرى في أوروبا.

لم يعد رفاق هاكوب وأترابه يمكثون كثيراً ضمن محيطهم العائلي، إذ استيقظ فيهم جسّ الذكورة وراحوا يحملقون من وراء شقوق الجدران وفتحات النوافذ ويتربّصون بالفتيات في مختلف الأزقة، في باحة الكنيسة أو الشارع العام أو أمام مدخل الحمّام الشعبي. صارت المرأة تحتل موضع الصدارة في أحاديثهم، تلك المخلوقة المثيرة، الغامضة، الغريبة الأطوار، الملتحفة بالحرائر، والتي كانت رنّة صوتها تكفي لتقلب كيان الواحد رأساً على عقب. تزوج العديد من أقرانه ورُزقوا البنات والبنين، وخطب آخرون في حين انغمس نفر آخر في علاقات مشبوهة، كما ضُبط بعضهم عند ماريتسا العاهر. أمّا صاحبنا هاكوب فقد بقي متعلقاً بماران وكان هذا كافٍ لملء فراغ روحه على أتم وجه.

كان أسعد يوم عنده هو يوم خروجه إلى المرعى بصحبة ماران. يأخذ معه خيمة وسريراً وأدوات طبخ وماشابه ذلك ويقضيان هناك ثلاثة أشهر كاملة جنباً إلى جنب، ينام هو الليل في خيمته بينما تطل الفرس عليه برأسها، وفي النهار ترعى هي العشب الطري حتى الشبع ثم تقف تحت الشمس وتهزّ رأسها مراراً إلى الأعلى والأسفل بينما يتابع هاكوب إيماءاتها وهو رابض في ظل خيمته وقلبه ممتلئ بهجة وسعادة، يتجاذب معها أطراف الحديث ساعات طويلة يطرح عليها

(6) بورصة: هي «بروسا» القديمة. مدينة في شمال غرب آسيا الصغرى، كانت إحدى المدن الهامة في مملكة بوتانيا القديمة وسميت على اسم ملكها بروسيوس مؤسس المدينة في القرن الثاني قبل الميلاد. وهي حالياً من مدن تركيا الهامة.

أسئلة ويتلقى أجوبة، فيضحك تارة ويقرصها برفق تارة أخرى ويشغل وقته معها. يسألها:

ـ يا ماران، هل أكلتِ اليوم بما فيه الكفاية؟

تصهل ماران ويتابع هاكوب.

ـ لن نتأخر في العودة إلى البيت ـ تنفض ماران ذيلها وتومئ برأسها.

ـ هيه، ألا تريدين ذلك؟ أتريدين أن تمكثي هنا فترة أطول؟

وتدنو ماران منه وتقضم طرف طربوشه وتطيح به عالياً في الفراغ. وهكذا يطول الحديث بينهما كأنهما صديقان حميمان لاسبيل لسوء الفهم أو الاختلاف بينهما.

وفي الأماسي يستلقي هاكوب أمام باب الخيمة ميمّماً وجهه شطر السماء ويدندن لنفسه أغنية، أمّا ماران فتنصت إليه دون حراك وتركن إلى الهدوء ـ وهي الحيوان الدائم الاضطراب ـ ولكن حين يكفّ هاكوب عن الغناء تدنح رأسها حزناً. فيسألها:

ـ تريدين أن أُغني لكِ ثانية، أليس كذلك يا ماران؟

ويتلقى الجواب صهيلاً رنّاناً تتردد أصداؤه في الأجواء ومن ثمّ يُقبل هاكوب على الغناء.

«أصيص الزهر

فيه البنفسج،

غرام ماران

في فؤادي نسج»

وتمضي الحياة وكأنها صبيحة يوم طويل ميمون. ومع تغير الطقس في أواسط الخريف يعودان إلينا ـ هاكوب وماران ـ فيخرج والداي

لاستقبالهما. ويبدو هاكوب أضخم جثة من ذي قبل وأصلب عوداً وأكثر تمتعاً بالعافية، قد صَهَدَهُ الحرّ حتى استوى وصار كعنقود العنب تفوح منه أرائج الحقول والخمائل الخضر النضرة. أما ماران فتبدو نشيطة ريّانة، عيناها أكثر صفاءً ورونقاً وصهيلها أوقع رنّةً. إنهما يجلبان معهما نضارة الحقول النائية وصدى النجوم التائهة. حين تطلق ماران صهيلها الأول بعد غياب طويل تستنير دارنا المكتئبة بضياء مبهر وكأن نجوم عديدة تسقط من السماء الذهبية وتتفرقع مثل الألعاب النارية. فتقول والدتي لوالدي.

ـ يا حاج أفندي، لقد عمَّرت الدار من جديد.

كانت الدار تبتهج لعودة هاكوب ورفيقته غير الناطقة ماران. إنّها جزء أساسي من حياة الدار وأكثر مكوناتها تشويقاً، يُسمع صدى صهيلها على الجدران ويتردَّد في الزوايا وتحت سقف الدار على مروج الشجر في الحديقة.

يأتي هاكوب بالطفل الوليد الراقد في مهده ويضعه وسط الباحة ويأمر ماران «هيا، مُرّي من فوقه». تشبّ ماران وتحمحم ثم تثب فوق المهد بخفة وتعود ثانية إلى هاكوب وتلعق يده، فيبادله هاكوب بقبلة يطبعها على اللطخة البيضوية في وسط جبينها.

كان مما يمتعنا كثيراً رؤية ماران وهي تقف بمحاذاة البركة تتطلّع إلى الماء الرائق، وحين ترى انعكاس صورتها فيه تجفل مرتدة ثم تعود لتمعن النظر في مرآة الماء ثانية، فترى المشهد نفسه وتثول ثانية، وأخيراً تقرّب خطمها إلى الماء وتنفث فيه نفثة توشي صفحة المساء بالتموجات، فتتكسر صورتها وتزهو هي منتصرة على الكائن المقيم في أعماق البركة، تطلق صهيلها وتعدو صوب الممشَى الذي تحفّ

بجانبيه أشجار الكرز وتمضي من مسكبٍ إلى آخر حتى تصل إلى الحراج المظلمة.

إذا حدث أن حلّ هاكوب ضيفاً عند قوم واضطر أن يبقى عندهم لبعض الوقت، كان ينتهز فرصة يتملّص فيها من رقابة مضيفيه ويثب الدار كي يطمئن على ماران ويعود إلى بيت الضيافة. وإذا لم يلجأ إلى هذا الأسلوب فهذا يعني أن والدته تكون قد وعدته بشكل قاطع بأن تقوم بحراسة ماران عن كثب لاتحيد نظرها عنها ولو لدقيقة. وإذا قرر أن يصطحب معه ماران (وكثيراً ماكان يحدث هذا ذلك لأن هاكوب كان يُدعى هو وماران معاً، أي أشبه بدعوة عائلية) كان يأتي ببيضة ويضعها على كفل ماران فتبطئ من سرعتها وتتخلج في مشيتها وتتراخى مثل الموج، فلا يبقى أحد في الحي دون أن يتوقف ويتابع ألاعيبها وحركاتها المتمرّسة.

هكذا كانت حياة هذين الصديقين ـ هاكوب وماران.

* * *

في يوم من الأيام ظهر ورم صغير يكاد لايُلاحظ في أعلى قائمة من قوائم ماران الأماميتين، مالبث أن تكوّر وتحول إلى جرح راح يتقيّح. كان هناك طبيب بيطريّ في المدينة ولكنه لم يستطع فعل شيء، فلجأ هاكوب إلى الأطباء غير البيطريين الذين راحوا يعرضون عليه تشخيصاتهم دون أن يفلح أحد منهم في وصف العلاج الفعّال في حين مضى الجرح في التورم والتقيّح.

في المرحلة الأولى لم يظهر أي نوع من التأثير على عافية ماران ولكنها بدأت تفقد حيويتها بمرور الوقت وانطفأ بريق عينيها وتداخلت تواترات صوتية غير مألوفة في نبرة صهيلها.

مع اضمحلال عافيتها بدأت علامات التغيُّر تظهر على هاكوب أيضاً، وبدا القلق على والديّ. بدأ هاكوب يفقد فرحة شبابه الربيعي وبدت كآبة شديدة على جبينه الوضَّاح.

سمع والدي بوجود بيطري شهير في سيواس[7] فأبرق إليه كي يأتي لمعاينة الفرس، وجاء الرد بالإيجاب مؤكداً أن الطبيب سيغادر مدينته خلال يومين. عندما قرأ هاكوب نصّ البرقية ابتسم ابتسامة أليمة ولم يقدر على مقاومة دموعه المنهمرة، فطوّقت والدتي ابنها البطل بذراعيها ومسحت دموعه وتنهّدت قائلة:

ـ سيأتي الطبيب وسيشفيها وإن لم يحدث ذلك فلا بأس لأن والدك سيُحضِر لك من ديار بكر[8] طبيباً أبرع منه. لاتبك يا حبيبي.

ـ ماران، حبيبتي ماران ـ تمتم هاكوب وراح يقبل والدتي وهو يجهش في البكاء، فتدلّت من أهدابه قطرات دمع نجمية الشكل.

زعم كثيرون أن عيون الحسد قد أصابت ماران، فأخرجت والدتي من صندوقها قطعة كبيرة من حجر الفيروز وعلقته على رقبة ماران.

تأخر الطبيب. لقد كانت العربة هي وسيلة النقل التي سيستعملها، وتستغرق المسافة التي سيقطعها ثمانية أيام على أحسن تقدير. وماتت ماران صباح ذات يوم.

تجمّعنا كلنا حول هاكوب الذي أخذ يقصّ علينا ـ بكلمات

---

(7) سيواس: إحدى مدن تركيا الحالية. اسمها التاريخي «سيباستيا» وهو لقب من ألقاب القيصر الروماني أغسطس (30 ـ 14 ق.م).

(8) ديار بكر: مدينة على نهر دجلة جنوبي جبال طوروس مركز ولاية ديار بكر في تركيا الحالية. تسميتها القديمة «عميت». تحتل موقعاً تجارياً واستراتيجياً بين العراق وتركيا وقد تناوبت قوى عديدة على حكمها حتى احتلها الأتراك العثمانيون عام 1515م.

امتزجت بالدمع ـ حياة ماران بالتفصيل، بل كان يورد ماجرى بينهما من حديث في يوم من الأيام الخوالي وماباحت به ماران يومها. فلو دخل علينا صدفة شخص غريب غير مطلع على مجريات الأمور وسمع مايقوله هاكوب لما أمكنه أن يتكهن بأن الأحاديث وكلمات الرثاء التي يسمعها هي لوصف كائن غير ناطق.

تمكّنت والدتي أن تدبّر أمر نقل سرير أخي إلى غرفة نومها وانكبّت مع والدي يغمران ابنهما هاكوب بجلّ حنانهما الأبوي، هاجرين واجباتهما البيتية الأخرى، لكي يتمكّن من نسيان الفادحة التي ألمّت به أو على الأقل حتى تخفّ حدّة لوعته على فقدان رفيقته.

كان والديّ يحبان هاكوب حبّاً جمّاً، ليس لأنه ابنهما البكر فحسب، وإنّما أيضاً لضآلة فارق العمر بينهما. فوالدتي تكبره بـ 13 عاماً ووالدي بـ 17 عاماً. فقد كانت مجرد صبية صغيرة عندما شعرت لأول مرة بحركاته الجنينية في أحشائها. والعلاقة بينها وبين أخي هاكوب هي علاقة ألفة حميمة وتكاد هي لاتذكر يوماً في حياتها لم يكن لهاكوب فيه حضور.

مضى شهر كامل وهاكوب يزداد همّاً واكتئاباً، فقرّر والدي أن يقترح عليه أحد أمرين ـ إمّا السفر أو الزواج. لقد كان مقتنعاً تمام الاقتناع بأنّ أحد هذين الخيارين كفيل بالتخفيف من كرب ابنه إلى أن ينسى يوماً ما مصابه. ولبيان مايرمي إليه استشهد بمقطع من أغنية تركية تقول:

«يوم كسائر الأيام يمضي

البكاء عليه لايجدي»

وقع اختيار هاكوب على السفر فاتخذت والدتي ترتيبات كبيرة

وخاطت له ثياباً جديدة وهيَّأت ملابس بيضاء داخلية ولوازم نوم من لحف ودثار واشترت له معطفاً من الفرو كما خاطت قطع النقود الذهبية على زناره.

ودّعناه بالقبل وافترقت والدتي عنه بشق الأنفس أمّا والدي فقد قبّله برباطة جأشٍ وقال له:

ـ اعتنِ بنفسك جيداً.

استغرب الجميع وقتها كيف أن والدي لم تدمع عيناه. ولكن عندما بدأت عجلات العربة تدور واستحالت العربة المبتعدة إلى نقطة في الأفق مالبثت أن تلاشت، ولج والدي غرفته وفتح الخزانة وجرع قدحين من العرق، لاحظنا وقتها أن دموعاً صامتة حرّاء تُذرف من عينيه، فدنت منه والدتي باكية. زمّ والدي شفتيه بقوة دون أن يلتفت نحوها إلى أن خانته العزيمة وجاش باكياً.

ـ الآن فقط ماتت ماران حقاً ـ قال ذلك وهو يستزيد من العرق فقالت والدتي متنهدةً.

ـ لم يشأ الله أن يسبغ نعمته على ابني الحبيب.

على ذكر ذلك أطلق والدي سباباً غامض المعنى جعلها تغادر الغرفة راسمة على وجهها إشارة الصليب.

* * *

عاد هاكوب من السفر سليماً قوياً وقد استعاد عافيته كما كان في سابق عهده وبدا أطول من ذي قبل.

وأخذ المعارف والأصدقاء يستفهمون عنه:

ـ سمعنا أن ابنك عاد بالسلامة.

فترد عليهم والدتي:

ـ نعم، نعم، عاد قرّة عيني.

وصل هاكوب في ترحاله إلى أصقاع شتى وشاهد البحر والعديد من المدن، لاسيما المدن الكبرى من أمثال سامسون واستانبول وإزمير وفارنا[9] وأخذ يقصّ علينا يوماً بعد يوم ما رأى في تلك البلاد فكنا نتعلّق بأقاصيصه أشد التعلق. أمّا والدي الذي سبق له أن ذهب إلى جميع تلك الأماكن فكان يطرح عليه السؤال تلو الآخر:

ـ هيه، هل ذهبت إلى «اسكودار»؟[10]

ـ نعم.

ـ وماذا عن قرية «بوياجي»؟[11]

ـ ذهبت إليها أيضاً.

هل جرّبت أكلة «الحشوة» في نواحي استانبول؟

ـ أجل، جربتها.

ـ مرحى لك يا شاطر، لم تدع شيئاً يفوتك.

وعندما كانت والدتي تسمع من ابنها بأنه قد مرّ بكل تلك المناطق التي سبق وتواجد فيها زوجها، لم تكن تدري من شدة تأثرها كيف تتصرف.

(9) سامسون، استانبول، إزمير، فارنا: مجموعة من أجل مدن الشرق في ذلك الزمان. سامسون تطلّ على البحر الأسود واستانبول على مضيق البوسفور وإزمير على بحر إيجة أمّا فارنا فهي أجمل مدن بلغاريا الساحلية على البحر الأسود.

(10) اسكودار: ضاحية من ضواحي استانبول على الجانب الآسيوي من مضيق البوسفور.

(11) قرية بوياجي: ضيعة قريبة من استانبول تعتبر من ضواحي العاصمة وكانت مشهورة بقصور الأغنياء التي تطلّ على القرن الذهبي وهو شاطئ موجود قرب مدخل البوسفور.

ـ هل دخلت إلى حمّامات «غافزا»؟

ـ كلا، يا أبتِ، لم أجد متسعاً من الوقت لها.

ـ آه منك يا مغفَّل، أيعقل أن يذهب المرء إلى غافزا ولايقصد حمّاماتها.. عندما تذهب إليها مرة أُخرى لاتنسى أن تستحمّ فيها.

فيعده هاكوب بذلك قائلاً:

ـ أجل، سأفعل.

طغى الحديث عن رحلة هاكوب على كل الأحاديث لمدة شهر كامل وأصبحنا نشغل أنفسنا بالاستماع إليه والتمتّع بما جاء به من هدايا متنوعة فيها مايؤكل ومايُلبَس وهدايا أُخرى تزيينية. وكان ماخصَّني منها حذاء أحمر اللون، عندما وضعته في قدميّ لأول مرة وخرجت به إلى الشارع لاح لي وكأن سكان المدينة كلها لاشغل لهم سوى النظر إلى حذائي.

بعد انقضاء شهر واحد فتح هاكوب باب غرفة ماران سرّاً ـ تلك الغرفة التي كان قد أوصد أبوابها بنفسه قبل سفره ـ وخرج منها حزيناً متكدراً. يبدو أن ذكرى ماران مقرونة مع وتيرة الحياة الروتينية في مدينتنا حيث لايجد المرء فيها مايمكن أن يشغل به نفسه غير الجنائن الجميلة، كان سبباً في تلبد جبين هاكوب بالكآبة.

في الأيام الأولى لم تكن ملامح تلك الكآبة بادية تماماً، إلّا أنها صارت تفرض نفسها على مر الأيام وتحولت إلى مبعث هم للوالدين.

ذات مرة حين كنت جالساً في حضن والدي وأصابعه تعبث بشعري الأشقر أخذ والدي يتحدث إلى والدتي في موضوع هاكوب. وقال:

ـ سنزوّج ذاك الولد لامحالة.

التمعت عينا والدتي وقالت:

ـ هذا إن تمكّنت من إقناعه.

ـ سيقتنع بالتأكيد. لقد نمت شواربه بما فيه الكفاية. كما يبدو أنه قد احتكَّ ببعض النساء في استانبول وبلغ مبلغاً من النضج.

ولم ترق لوالدتي تلميحاته تلك وسألته:

ـ وما أدراك؟

فقاطعها والدي بجفاء:

ـ اسأليني أنا، فأنا الذي أدري.

وعدته والدتي أن تقوم هي بمفاتحته بالموضوع. فأوصاها والدي قائلاً:

ـ اطرحي عليه الفكرة بطريقة لائقة.

وقرّرا فيما قرّرا أن العروس لابد أن تكون آية في الجمال. جاءَ ذلك على لسان والدي الذي قال:

ـ لايهمنا من أية عائلة تكون، المهم أن تكون حلوة جميلة.

استغربت منه والدتي هذا الكلام. ما أعمق محبته لهاكوب كي يتخلّى عن مفاهيمه الأرستقراطية. وأضافت على كلامه:

ـ يجب أن تكون جميلة وبنت حلال.

ـ طبعاً، طبعاً، هكذا يكون الاختيار الصحيح.

وأعلن هاكوب عن موافقته. يبدو أن اعتقاد والدي بأنه قد «احتك ببعض النساء» كان في محله. وبدأت مهمة البحث عن الزوجة المناسبة وتبيَّن للحال أن والدي لايريد أن يغضّ النظر عن أية نقيصة مهما كانت

صغيرة فيها. ألحت والدتي بعد طول بحث إلى وجود فتاة حسنة المظهر حقاً وحقيقة ولكن والدي علّق عليها قائلاً:

ـ إنها لاتحسن إسناد رأسها إلى أعلى وتميل به إلى الأسفل قليلاً.

فقدت والدتي الأمل في إيجاد الفتاة المثالية الموجودة في مخيلة والدي والتي في الحقيقة لاوجود لمثلها على وجه الأرض.

قال والدي:

ـ إنني لاأريد عروساً، بل تمثالاً كامل الأوصاف.

مضى شهر آخر وكفّت والدتي عن ذكر الموضوع. ذات يوم فاجأها والدي بالسؤال:

ـ هيه، يا ماركاريد، هل وجدتِ العروس؟

ـ أنت تبحث عن ملاك ـ ردّت عليه والدتي ـ فهل هناك ملائكة في هذه الدنيا؟

ـ أجل، ملائكة، هذا ما أريده بالضبط، أحسنت التعبير، أُريد ملاكاً.

ـ لايوجد ملاك.

ـ بل يوجد ـ أجاب والدي بنبرة مؤكدة ـ يوجد ملاك وقد عرفت أين يوجد هذا الملاك.

ـ من تقصد؟

ـ ابنه كريكور آغا.

ـ إنها صغيرة السن.

ـ ولتكن، أنتِ كنت في الثالثة عشر من عمرك عندما ارتميتِ في أحضاني.

لاذت والدتي بالصمت وأصابها بعض الحياء ثم وجدته محقاً فيما يقول فسألته.

ـ وأهلها، هي سيرضون؟

وكان هذا التساؤل كافياً بالطبع لإلحاق الأذى بمشاعر والدي الأرستقراطية.

ـ وهل يُعقَل أن أطلب منهم أنا شيئاً ويرفضونه. ولماذا لايرضون؟ البنت في الثالثة عشر والشاب في الثامنة عشر.

ـ وليس أي شاب بل شاب مثل الأسد ـ أضافت والدتي على كلامه.

حقاً كانت ابنة كريكور آغا المدعوة يغيسابيت صبية جميلة، صورة طبق الأصل عن الفتاة التي كانت تتراءى لوالدي في تخيلاته. لقد كانت أشبه بفينوس[12] جزيرة ميلوس، بل تفوقها جمالاً إذا أضفنا إلى وصفها بشرتها الورديّة والشامة السوداء على جيدها، فتاة مرحة جزلة، التي ما أن حكت والدتي لابنها هاكوب عنها حتى تبسّم هذا الأخير وأحاطها بذراعيه.

في إحدى الأمسيات قصد أبي وأمي دار كريكور آغا وبعد التداول في موضوعات كثيرة تطرّقا للموضوع الأهم، موضوع يغيسابيت.

ـ يا حاج أفندي، ابنتنا هي بمثابة ابنتكم، ولكن أمهلني بعض الوقت حتى أبحث الأمر مع والدتها ـ كان هذا رد كريكور آغا.

ـ حسناً ـ قال والدي.

(12) فينوس: إلاهة الحب والجمال عند الرومان، تقابلها أفروديت عند الاغريق. تمثال فينوس المكتشف في جزيرة ميلوس اليونانية هو من أهم الآثار الاغريقية القديمة ويعدّ درة مقتنيات متحف اللوفر الفرنسي.

مساء اليوم التالي تلقينا طبقاً كبيراً من الحلوى (البقلاوة) مرسلة من آل كريكور آغا إشارة إلى الموافقة. أعقبه العديد من الهدايا بين الطرفين.

لم يكن قد مضى أكثر من ثمانية أيام على هذا الكلام عندما عادت والدتي ذات يوم من الحمّام الشعبي وصعدت مباشرة إلى والدي وقالت إنها رأت البنت يغيسابيت في الحمّام. بادرها والدي بالسؤال:

ـ هيه، وكيف كانت؟

ـ كأنها نازلة من القمر ـ أجابت والدتي، ثم قصّت عليه كيف أن يغيسابيت قد جاءت إليها بإيحاء من والدتها وقبّلت يدها، ولم تدعها والدتي تعود دون أن تحمّمها بنفسها وتسرح شعرها وتلبسها الثياب وتخصّص عربة وتقلّها هي وأفراد أسرتها إلى دارها.

فقال والدي:

ـ أحسنتِ تماماً بهذا التصرف.

لم يمضِ وقت طويل حتى تمّت الخطبة وأعلن الزفاف. عملت والدتي كلّ مافي وسعها لتجعل حفل الزفاف فخماً لاينقصه شيء ولكنها دخلت مع والدي في مشادة سخيفة، إذ كان والدي لايرغب أن يتزوج ابنه بحضور رجل دين. وقال:

ـ نأتي بها من بيت أبيها إلى هنا وينتهي الأمر... ـ أصرّ والدي على رأيه ولكنه لقي معارضة من والدتي.

ـ إنني أوافقك على ماتقول، ولكن والديها، هل يمكن أن يرضيا بأن تزفّ ابنتهما دون عقد قران؟

كان والدي يدرك بأن ذلك لايصحّ وأن العروس لايجوز أن تُزفّ

إلى بيت زوجها دون عقد زواج، ولكنه، في الوقت نفسه، لم يكن يتحمل فكرة وجود رجل دين لإتمام الغرض.

أخيراً وبعد جدال طويل تراجع والدي عن موقفه وأعلن موافقته على وجود الكاهن شرط ألّا يحضر إلى الدار عقب إتمام مراسم القران في الكنيسة. وافقت والدتي على ذلك ولكنها استضافت الكاهن بعد الزواج دون علم والدي وأوصت الجميع بالتكتُّم على الموضوع. وأكرمته ومدَّتْهُ بالزاد والشراب وأجزلت له العطاء وودعته بما يليق بالمقام. ولعل والدي كان يتوقَّع أن تقوم بشيء من هذا القبيل ولكنه لم يدقّق في الأمر لأن ماجرى كان بعيداً عن مرأى نظره ورغبته كانت مرعية ولو شكلياً.

أشرقت سعادة جديدة في دارنا بقدوم يغيسابيت. فقد كانت بحكم عمرها قريبة منا، تلعب الكرة معنا وتركض في الحقول وتعوم في ماء البركة، وعندما يأتيها هاكوب يحملها بين ذراعيه القويتين ويصعد بها إلى الغرفة العلوية مقبّلاً إياها في طريقه وهو يردد:

ـ ماران، حبيبتي ماران.

* * *

كيفورك هو أخي الذي يلي هاكوب مباشرة وأنا أذكره دائماً بمشاعر ملؤها الغبطة لأنه يكاد أن يكون الوحيد فينا الذي يتمتَّع بهدوء البال والقدرة على تبديد مشاعر الغضب وتحييدها.

كان يحدث أن يغضب أحدهم فتتطاير الشرر من عينيه ويدوّي هزيم رعد يشق طريقه ـ على خلاف العادة ـ صعوداً إلى الأعلى، وعندما يستفحل الخطب ويقتضي علي كيفورك البتّ فيه، كانت ابتسامة هادئة من جانبه أو طُرفة ممتعة أو تهكم بسيط غير مؤذٍ يكفي لتحل الرأفة المُبينة

بدل الغضب الطالح. وكان يحدث أحياناً أن تعقب لمعة العيون الحاقدة لمعة من نوع آخر، تلك الصادرة عن المُدَى، فيتصدَّر حينئذ كيفورك الأطراف المتناحرة متندّراً بطرفة أنجع من حد المُدى حتى يسود السلام التام.

لازلت حتى يومنا هذا من المعجبين به وبأعصابه الحديدية. وقد توصلت إلى نتيجة حاسمة مفادها أن الناس تبهرهم الصفات التي يفتقدونها.

لم تكن لدى كيفورك رغبات ملحة. رغبته الكبرى تتمثَّل في أكل الزبيب، فهو مولع به إلى أبعد حد. الزبيب بالنسبة له ليس مجرد غذاء، إنّما أكثر من ذلك بكثير. كان مقلّاً في مأكله ويحتاط كثيراً في اختياراته ولكن لأحد يمكنه أن يحدّ من شغفه الزائد بالزبيب. الزبيب... طائر حلمه الأزرق. إنه مستعدّ أن يضحّي بكل شيء من أجله وأن يتنازل عن أعزّ ما يقتنيه إذا ما أقدم أحدهم على إغرائه بالزبيب.

هاهو يرقد في سريره معتل الصحة محموماً. يدنو منه والدي ويسأله متلمّساً حرارة جبهته.

ـ هل تريد زبيباً يا كيفورك؟

يفتح كيفورك عينيه كما لو أنه يشعر بسحر الزبيب الآسر حتى عندما يغالبه المرض، ولكنه هذه المرة يردّ بكآبة عميقة:

ـ كلا، لاأريد، إنّي مريض...

فيقوم والدي بتدبير مجيء الطبيب على وجه السرعة معلّلاً:

ـ أن لايشتهي الزبيب فهذا يعني أن الأمر لايحتمل التأجيل.

ويلجؤون إلى الزبيب مرة ثانية كي يختبروا مدى تحسّن صحته.
فتسأله والدتي:

ـ ماذا تريد أن آتي لك؟

وتلتمع عينا كيفورك السوداوان ويتخذ فمه شكلاً يصبح فيه واضحاً أنه على وشك النطق بـ «أريد زبيباً».

* * *

أتذكّر أيضاً أخي البرونزي اللون «ليڤون»، الذي كنا ندعوه «لولو» تحبّباً.

كان شاباً أسمر اللون ذا بشرة ملداء وجبهة عالية وشِدقين قويين وشعر أسود قليل التجاعيد وعينين سوداوين واسعتين وقامة فارعة. إنه هو من كانت تلتمع عيناه أحياناً غضباً وتثور ثائرته ويجهر صوته مدوياً كالرعد، ولاتتورع أصابعه عن كشف وميض المدية. هذا الفتى الرهيب، على خلاف مايُظهره، كان صاحب قلب طيب مثل قلب الحمام.

لم يكن كيفورك يبكي أو يغضب قط، أما ليڤون فعلى النقيض منه كان شديد الغضب والوعيد مثل الحيوان المتوحش، ولكنه يبكي مثل الطفل الذي سلبوه دميته.

وإلى يوم موته المأساوي ظلَّ لايعرف سبيلاً للين والاعتدال في حياته، حتى إنه لم يمت ميتة طبيعية، بل مات مقتولاً. نعم قتل، كما يحكون، بشهامة فائقة واندفاع شديد ولكن بنحو تراجيدي بالغ. على محيّاه نوعان من التعابير: ابتسامة الطفل وكآبة الشَّيْخ.

كنت معجباً بتماسك أعصاب كيفورك، لكنني أهفو بكل لواعج قلبي ونوازع جسمي إلى تطرفات ليڤون، أحبّ الاستماع إليه لدى عودته من مكان ما وهو يحكي لنا:

ـ توغّلنا في أعماق الوادي واختفى كل أثر للشمس وانهمر حَبُّ الغمام، كل حبّة لاتقلّ عن حجم رأسي...

في السنين اللاحقة، وفي خضم الحياة، لم يجد ليڤون مايتجاوب مع اندفاعاته الذاتية سوى شيء واحد ـ بورصة نيويورك، تلك المدينة الغربية الرهيبة ـ فتوغل فيها بشبهوة مادية عارمة وتعرّض لتقلباتها، صعد إلى الذروة مرّةٍ وتعثر إلى الحضيض مراتٍ أخرى، عاشٍ فترات مريرة من حياته، تحكّم بملايين الدولارات حيناً وفي أحيان أخرى كان بأمسّ الحاجة لبضع سنتيمات، ولكنه مع كل ذلك لم يفقد زخمه الرجولي وقدرته العجيبة على النهوض من جديد. لم يستطع شيء في هذا العالم أن يرهبه. فكل ماكان عليه أن يفعله هو أن يرفع أهدابه السود وينظر من خلالها إلى البعيد، البعيد.

استقبلني عند مجيئي إلى نيويورك أمام الباخرة الفرنسية «لو تورين» التي كانت تقلني وسألني:

ـ كيف حال الوالدة؟

قلت له:

ـ إنها بخير، ولكنها عندما تتذكرك أنت وكيفورك تنشج.

ولاحظت أن عينيه الصافيتين قد ترطّبتا بسيل من الدموع. ثم أمسك بيدي ووطِئنا معاً البرّ الأمريكي.

في تلك الليلة أشار ليڤون إلى مدينة نيويورك وقال:

ـ أترى هذه المدينة؟ إنها كبيرة جداً. ليست صغيرة البتّة. وراء هذه البلاد لن تجد بلاداً أخرى. وكل ماستتعلمه لن تتعلمه إلّا من هنا، هيا، لنرَ مايمكن أن تقوم به.

في ذلك الوقت كان يحمل في يده أسهماً لشركة سكك حديد.

لم أقتحم مثل ليفون البورصة المالية وإنّما دخلت إلى عالم الكتب ولكنني منحت من عزيمتي وولعي لهذا الغرض ليس أقل مما قدم ليفون لعالم بورصته.

* * *

أول من علّمني أبجدية ميسروب[13] معلم سرياني يدعى الأستاذ آشور. كان رجلاً قصير القامة عريض المنكبين، قوي البنية، أصلع الرأس، ناتئ الوجنتين، جبهته عريضة ناهضة وعيناه واسعتان شديدتا الزرقة مثل البلور الصخري الأزرق الداكن، شواربه كثّة غير مشذّبة تتوسّع في الأعلى ثم تسترق متدلية بشكل عشوائي على طرفي ثغره الفاغر، ساترةً بذلك الأسنان العلوية الكبرى وتجويف الفم الرهيب كأنه نسق من أذناب صغيرة. الفارق الوحيد بينه وبين الأصنام البابلية القديمة يكمن في نظارته الطبية التي كانت بلا شك تسيء إلى هيئته الوقور الموروثة من العصور القديمة.

كان الأستاذ آشور شاعراً أيضاً، يدوّن نتاجه بلغة مطعمة بألفاظ وتعابير قديمة وبأسلوب معهود عند أعلام التراث القديم ومن عناوين أشعاره «رقاد الغلام»، «رثاء على مقام السيد نيكوغايوس أزنافوريان[14] المبجّل»، «الملائكة»، «في مدح النبيذ»، «في سبيل الوئام العائلي»، «بنيّات السماء» الخ، ولم يكن يتريث في اختيار

(13) ميسروب ماشدوتس: واضع الأبجدية الأرمنية (404 ميلادية) ومن أهم شخصيات التاريخ الأرمني. إليه يعود الفضل في إرساء أسس النهضة الثقافية والدينية التي شهدتها أرمينيا في القرن الخامس بعد الميلاد والذي سمي بالعصر الذهبي.

(14) من أعيان المدينة وسيأتي ذكره في الفصل الثامن.

موضوعاته التي كان يروجها في شتى المناسبات مهداة إلى بعض الشخصيات.

هو الذي علمني تهجئة الكلمات الأولى التي فكّكْت رموزها وهي «أيها الصليب أعنّي». كان هناك بعض التلامذة الذين يعانون مشقة كبيرة في «استجداء العون من الصليب»، وقد أوجد لهم الأستاذ آشور طريقة شديدة البساطة في تذليل تلك الصعوبة تتمثّل في ضربة عصا ومن أجل الأمانة تجب الإشارة هنا بأن ضرباته كانت تنهال حصراً على الأجزاء الرخوة من الجسم. كان الأهالي راضين عن هذا الأسلوب بل كانوا يحضّونه ويشجعونه على ذلك قائلين «هلا جعلت الأجزاء الرخوة تزداد حمرة».

بعد أن تعرّفنا على الأحرف الأبجدية وبدأنا نربط بين أجزاء الكلام المدون ونلفظ الكلمات انتقلنا إلى المدرسة الأهلية. وفي حفل نهاية العام تلا الأستاذ آشور على مسامعنا كلمة ختامية كانت مدوّنة على دَرْج من الورق لم نفقه منها شيئاً، لأنها كانت بأكملها باللغة القديمة[15]، والشيء الوحيد الذي فهمناه أنها تتضمن مجموعة من المواعظ. حملَت كلمته عنواناً هو «مسك الختام»، لم نفهم معناه الحرفي إلّا في ختام حياتنا المدرسية.

لكن علاقة الأستاذ آشور بنا استمرت دون انقطاع، فكنّا نصادفه أحياناً في الزقاق فيوقفنا ويأمرنا «هيا، أقرأ كتاب اللغة»، محاولاً

(15) اللغة القديمة: هي اللغة التي ظهرت بها أولى الترجمات والكتابات الأرمنية بعد اختراع الأبجدية الأرمنية مطلع القرن الخامس الميلادي، وكانت لغة الفكر والدين والحياة اليومية واستمرت بشكل أو بآخر إلى العصور الحديثة إلى أن انحصر استعمالها أخيراً فظهرت اللغة الحديثة بعد صراع لغوي بلغ ذروته منتصف القرن التاسع عشر. حالياً يُعتمد عليها في الطقوس والصلوات الكنسية.

بهذه الطريقة أن يتأكد من مدى التقدم الذي نحققه. وعندما كنا نحسن القراءة يتمتم بابتسامة تنمّ عن الرضى المطلق «ماشاء الله، ماشاء الله، هذا يدل أنني أفلحت في غرس جذور المعرفة عميقة في نفوسكم».

ذات يوم جاء الأستاذ آشور إلينا وابتسامته الراضية تزيّن وجهه وتكشف عن المزيد من خبايا عينيه الزرقاوين. قبل بضعة أسابيع من زيارته هذه كنا قد وارينا «ديكران» ابن أخي الأكبر الثرى وقد نظمتُ قصيدة رثاء في تلك المناسبة بعثتها - دون أن أخبر أحداً - إلى إزمير[16] حيث تصدر جريدة «الصحافة الشرقية»[17] الأسبوعية، فنشرت القصيدة وهي أول «عمل أدبي» مطبوع يحمل توقيعي. جاء الأستاذ آشور إلى دارنا بعد أن قرأ قصيدتي. جاء بابتسامته المعهودة التي تنم عن الرضى والتي في كل مرة تكشف عن المزيد من خبايا عينيه الزرقاوين، وبعد أن أثنى عليّ ببعض عبارات المديح قال «ماشاء الله، ماشاء الله، هذا يدل أنني أفلحت في غرس جذور المعرفة عميقة في نفوسكم».

□ □ □

(16) إزمير: مدينة ساحلية على بحر إيجة في جنوب غرب تركيا الحالية. كانت من أهم المدن المزدهرة في العالم القديم. قطنت فيها جالية أرمنية كبيرة اضطرت لإخلاء المدينة في ظروف رهيبة بعد وقوعها في أيدي القوات الكمالية عام 1922.

(17) «الصحافة الشرقية» جريدة أرمنية أدبية اجتماعية سياسية، صدرت في إزمير بين عامي (1871 - 1909) و(1919 - 1922) واستضافت على صفحاتها أقلام مجموعة هامة من كتّاب وأدباء الجناح الغربي من الأدب الأرمني. سيأتي ذكرها مرة ثانية في الفصل السادس عشر.

7

كانت لي شقيقات ثلاث أسماؤهن: خاسيك وسيرانوش وتساينيك.

تلي خاسيك أخي الأكبر في تسلسل الأعمار ولكنها تكبر أخويَّ كيفورك وليفون. كنت أنا أصغر أخوتي الذكور أمَّا سيرانوش وتساينيك فهما تصغراني عمراً.

ترد خاسيك إلى ذاكرتي في مواقف تتعلَّق بوالدي، إذ كانت تجلب له الخُفّ وتصبّ له الماء كي يغتسل. كانت فتاة مثابرة للغاية، تجد سعادة بالغة في الخدمات التي تسديها لوالدي. ولاأدري كيف جعلوها ترتبط بالرجل صاحب السن الذهبية القادم من أمريكا. فالتفاصيل خافية عليَّ ولكن الشيء الذي أعلمه بكل تأكيد أنها عاشت حياة تعيسة. كانت متفانية في خدمة الآخرين، معطاءة لاتتوانى في بذل كل ماتقدر عليه.

كانت شقيقتي الأخرى سيرانوش سوداء العينين، بيضاء البشرة، شعرها كثيف مُسْتَرسِل، لاتكف عن الثرثرة والقهقهة، إذ كانت بارعة في استفزاز الناس، تتوفّق في ذلك دون أن تلجأ إلى المعارضة العلنية بل بإبداء موافقة لاتخلو من السخرية المبطنة الرقيقة، سخرية تبلغ من الرقّة حدّاً تذكرني بأعمالها اليدوية التطريزية الرائعة.

كنا نذهب معاً إلى المدرسة، أسير أنا في المقدمة، وعندما نبتعد عن الدار تمسك بيدي وتلحقني على مهل حتى تلتصق بي فأشعر بالفخر

وأنا أحمي هذه البنت الناعمة. كنت أحبها لأنها لم تكن تجرب معي أساليب الاستهزاء التي تعتمدها مع الآخرين ولم تكن تتهكم بي أبداً. لقد أصبحت تعيسة هي أيضاً، إذ قُتِلَ زوجها على أيدي أناس أشرار.

أمَّا شقيقتي تساينيك فهي بلا شك أنا نفسي ـ إذا كنت سأولد أنثى ـ عينان زرقاوان تطلان من فسحة تحيط بها أهداب سوداء ويعلوها حاجبان سوداوان يؤلفان معها قنطرة مقوسة، شعر أسود وبشرة بيضاء. تثور ثائرتها في لحظة وتعود إلى رقتها في اللحظة التالية. كم كنت أجيد فهمها. كانت تبدو للكثيرين أشبه باللغز الغامض ولكنني كنت أتقبل مزاجها بل حتى أعمالها التي تفتقد إلى المعنى وكأنني أقرأ في كتاب مبين. فتلك الأعمال التي كانت توصف بأنها تخلو من أي معنى لاشكّ أنني كنت سأقوم بها بنفسي تماماً كما تفعلها هي، وإن شاركت الآخرين في إطلاق الوصف السلبي عليها.

آه، ما أكثر ما أتذكرك يا أختاه، يا صاحبة العينين الزرقاوين، وحين أفعل ذلك تتراكم في مخيّلة روحي صور شتى من الذكريات. أذكر حديقتنا وسطح دارنا وشجر الأكاسيا[18] المزْهِر. أذكر أوراق الخريف الصفر التي كانت الريح تحملها وتكدسها أمام عتبة الدار. أذكر نتف الثلج الناصعة البياض ووثباتك العفوية فوق الثلج. كما تعود إلى ذاكرتي آخر مرّة ولدت فيها أمّي، فمع مجيئك يا أختاه عزف دفق الحياة معزوفته الأخيرة بين حنايا والدتي ثم صمت إلى الأبد. فكنت آخر من ارتوى من لبنها. أنتِ يا أختاه، آخر بنفسجة أزهرت في حضن أمي، آخر شدو، آخر جَيَشان.

* * *

(18) الأكاسيا: شجر من الفصيلة القرنية يعيش في الأقاليم الحارة ويعرف أيضاً باسم السَّنْط.

عرفت أيضاً بنات أخريات غير شقيقاتي، كبرن على مرأى منّي وأزهرن وتلألأن على شطآن طفولتي. ولاتزال صيحة كل واحدة منهن تتناهى إلى سمعي وابتسامتها تتفتّح أمام ناظريَّ. إنّهنّ شذرات من ربيع الحياة يمضينَّ في رحاب الأديم كأزهار تمرح في كنف الأزاهير.

كانت كريستينا واحدة منهن. لون بشرتها فاقع كالعسل الصافي، ولكن عندما ألتقي بها تحمرُّ استحياءً ويتوهَّج الدم في وجنتيها إلى درجة يخيّل إلى المرء أنها ستشتعل في الحال. كانت ضئيلة الحجم ولكن ممتلئة الأعطاف، ناصعة اليدين، ذات غُنَب[19] على جانبي فمها.

ها أنا أقترب منها كي أشدّها من شعرها فتتهرب مني وتطلق ضحكة خافتة تبدو وكأنها فقرة تائهة من سيمفونية رائعة. وتركض كريستينا عبر مسالك حديقتنا مثل غزالة شردت في غابة، ثم تصعد إلى الطابق العلوي من الدار وتفتح النافذة على مصراعيها وتلقي نظرة إلى الأسفل وتضحك مثل شهاب هوى من السماء فاشتدَّ ضياءً.

- هيا، انزلي.

- كلا، أخاف أن تشدّ شعري.

- تعالي، لن أفعل شيئاً.

تنزل إلى الحديقة ولكنني أتوارى عن الأنظار بين الشجيرات الكثيفة. تتبعني إلى هناك. اتخذ لي مكمناً لايمكن لأحد أن يلمحني فيه ولاحتى الناظر من السماء. تتوقف كريستينا بين الخمائل الخضر الداكنة ويبدو لي وكأن يداً غريبة أشعلت سراجاً من نور ثم اختفت. أقتربُ منها فتحني رأسها إلى الأرض فأشعر كأن قلبي يُنتزع من مكانه ويندفع خارج صدري. أمسك بخصلة من شعرها.

(19) الغُنَب: مفردها غُنْبَة وهي دائرة تكون في شِدق المرء أو في ذقنه.

ـ هل أشدّ؟

ـ شدّ ـ تتنهد كريستينا.

ـ أنا لا أشدّ شعرك ـ أقول وأقرّب شعرها إلى شفتيّ. شعرها يفوح عبقاً مستخلصاً من كل أزهار الحديقة.

ألمس يدها فتشع عيناها نوراً. تفلت ثانية من قبضتي فيختفي سراج نورها الزاهر بين الحراج الخضراء.

أيتها النجمة التي هوت من السماء واشتدّت ضياءً. يا كريستينا. إنني أذكرك.

* * *

كنت أرى ڤيرون مرة في العام. كانت والدتي قد خطبتها لي في المهد[20] وكان هذا سبباً كافياً كي تنفر مني. أيتها الصغيرة المتوردة الخدين، إنني أذكر أسنانك اللؤلؤية، أذكر النقرة في طرف ذقنك، أذكر يديك اللتين لم أر مثيلاً لهما في حياتي سوى على صدر الجوكوندا[21]، أذكر جبهتك الشامخة العريضة. لكنني علمت أن السماء قد انهارت على حدائق حياتك الواعدة.

* * *

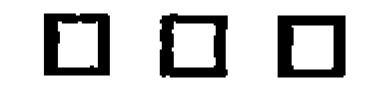
(20) خطبة المهد: خطبة بين وليدين صغيرين تجري بمبادرة من أهل الطرفين بهدف تعزيز أواصر القربى أو الجيرة بينهما وهي قد تثمر في الكبر إلى زواج حقيقي وقد تكون لها نتائج وخيمة كما سنرى في القصة التي تجري أحداثها في الفصل القادم. تعتبر من العادات القديمة التي اندثرت منذ زمن بعيد.

(21) الجوكوندا: أشهر لوحة شخصية في التاريخ أبدعها الفنان الإيطالي ليوناردو دافنشي عام 1503م. تصور امرأة عشقها الفنان تدعى موناليزا جيرارديني. اشتهرت صورة موناليزا بملامحها الناعمة وابتسامتها الساحرة ونظراتها الحالمة وبوضع اليدين الذي يكشف عن رهافة وانسجام بالغين.

أتذكر أيضاً ابنة خالتي ريبيكا. كانت فتاة ضخمة الجثة، وفيرة الصحة، نشطة، حرِكة، ذكية وشاعرية. عيناها الزرقاوان النجلاوان وحدهما تكفيان لإعمار قبة السماء المتهدّمة من جديد.

مع ذلك فقد انهارت السماء على أزهار السوسن البيضاء الرفيعة التي أزهرت في فجر حياتها وخطفتها الأيدي الغريبة إلى البوادي البعيدة وعلمت بأسى عميق أن علامات الوشم قد رسمت على جبينها الوضّاح وعلى خديها.

أختاه، إني أنحني أمام مصيرك القاتم، فتقبّلي دموع أخيك..



8

كان الشارع الذي تطل عليه دارنا جزءاً من طريق الشرق القديم، وهي الطريق التي تنطلق من روما القديمة وتعرج على عاصمة بيزنطة حيث يتخللها البحر الأزرق[22] لمسافة قصيرة، ثم تسلك مسلكاً آخر مطوقة كامل آسيا الصغرى قبل أن تمر أمام باب دارنا وتمضي إلى بغداد «آخر المعمورة».

كانت بغداد أبعد نقطة يأمل المرء في بلوغها إذ لاوجود لبلدان أخرى بعدها. رجلٌ واحد فقط من عالمنا هذا سبق له أن رأى بغداد وعندما عاد وجد نحو نصف سكان المدينة قد خرجوا لاستقباله.

كانوا يقولون:

- ياله من حدث. راح إلى بغداد وجاء.

عندما شرعت لأول مرة في دراسة تاريخ اليونان وروما والحملات الهلنستية في بلاد الشرق وحروب الفرس وسيرة حياة شخصيات من أمثال قُورش والاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر[23] والطرق التي أنشأتها الإمبراطورية الرومانية الخ - تعلّقتُ بحيّنا بمزيد من الحب

(22) البحر الأزرق: هو بحر مرمرة الذي يفصل بين أوروبا وآسيا ويمتد بين مضيقي البوسفور والدردنيل.

(23) قورش، الاسكندر المقدوني، يوليوس قيصر: من عظماء التاريخ الأول منهم امبراطور فارسي والثاني فاتح مقدوني والثالث قيصر روماني.

والافتخار وبدأت أشعر كأنني أستعرض مرور الجيوش الفارسية واليونانية والرومانية من أمام باب دارنا.

في يوم من الأيام وأنا في المرحلة الإعدادية، لاأدري تاريخ أية حملة عسكرية كنت أسرد، تمكنت من تغيير وجهة الحملة وجعلتها تمر من حيّنا. عندها ابتسم المعلم الريفي ابتسامة لم يلحظها غيري ولم يشأ أن يصحح مغالطتي التاريخية.

* * *

شارعنا، إضافة إلى ماذكرت، هو الشريان الذي يربط مدينتنا بالمدن والقرى الأخرى. ففي غداة كل يوم وعلى مدار فصول السنة، يجتازه أصحاب المحالّ التجارية في سوق المدينة وكذلك الحرفيون والفلاحون القادمون من الشطر القديم من المدينة ومن القرى المجاورة. وفي المساء يعجّ المكان بحركة رجوعهم إلى المناطق التي جاؤوا منها.

من بين هؤلاء المارة معلم الرياضيات في المدرسة الثانوية الذي كان يختلف عن غيره بأمرين اثنين: فهو يرتدي قميصاً ذا ياقة بيضاء مقُسَّاة بالنّشا ويركب حماراً أبيض اللون. ومن عادة هذا الحمار، الذي فاقت شهرته شهرة صاحبه، إنه ينهق نهيقاً مفجعاً على مقربة من باب دارنا (وفي الصباح الباكر حصراً) يفيق على أثره سكان الحي أجمعين ويرسمون إشارة الصليب على وجوههم. ومن يحتفظ بساعة حائط في منزله يمكن له أن يرجع إليها ويضبط عقاربها بكل اطمئنان على السابعة والربع. أما أولئك الذين لاساعة لديهم ونهيق الحمار عندهم أمر لاطائل تحته فكانوا يحتدون غضباً ويدمدمون:

ـ أيحق لهذا المعلم أن يزعجنا بالحمار المخصّص له من أموال الشعب؟

عُقد ذات يوم اجتماع في دارنا برئاسة نيكوغوس آغا شارك فيه أيضاً

معلم الرياضيات الذي عند وصوله أخذ منه الخادم حماره وربطه إلى شجرة في حديقة الدار.

كنت طوال الاجتماع أقف قرب باب الحجرة وأنا على أهبة الاستعداد، أترقب اللحظة التي سيلفّ فيها أحد أعضاء مجلس أمناء المدرسة[24] المجتمعين لفافة تبغه حتى أتحفز لإشعال عود الثقاب وتقريبه إلى مستوى أنفه.

حمي وطيس النقاش خلال الاجتماع حول زيادة معاش المعلم، فألحّ هذا الأخير على ضرورة اعتماد العلاوة ولكن مجلس أمناء المدرسة أجمع على رفض طلبه.

كان هذا المعلم يسكن في الريف ويرفض السكن في المدينة، وبسبب تنقّله اليومي بين الريف والمدينة كانت نفقاته الشخصية تزداد. أخيراً، وبعد المداولة، تنحنح أحد أعضاء مجلس الأمناء (الذي كان صاحب شوارب تجاوزت شحمة الأذنين وتشابكت في الخلف مع شعر الرأس) وقال بصوت أجشّ:

ـ يا أستاذ، ألا يكفيك الحمار في تنقلاتك؟

وقبل أن يبادر المعلم بالإجابة نهق الحمار من طرف الحديقة نهيقاً جعل زجاج النوافذ المطلة على ذاك الطرف يترجرج. عندها التفت المعلم نحو العضو صاحب الشوارب الطويلة وسأله:

(24) كانت المدارس الأهلية في أرمينيا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تُشاد بجهود الأهالي وتشرف عليها مجالس مؤلفة من كبار الأعيان من أصحاب المقدرة المادية الذين يقومون بسداد المستحقات المالية. وتمنحهم هذه الصفة الحق في التدخل في العمل التربوي رغم بُعد معظمهم عن الإلمام بمقتضيات التربية. وهناك مجالس أخرى مماثلة تشرف على إدارة الشؤون الدنيوية. هذا الأسلوب في الإدارة التربوية والكنسية لايزال متبعاً في جاليات المهجر الأرمني حتى وقتنا الحاضر.

ـ هيه، هل حصلت على الجواب؟

لم يرتبك العضو صاحب الشوارب الطويلة من هذا الموقف وأسرع في الردّ عليه.

ـ إذا كنت تستعين بالحمار في دروس الحساب أيضاً، فليس لي ما أقوله.

تبيَّن من هذا النقاش أن حمار المعلم مخصّص له من قبل مجلس الأمناء وهو جزء لايتجزأ من عقد العمل بين الطرفين، لهذا كان كل أولئك الذين لايرون جدوى من الحمار ونهيقه الصباحي المزعج يردِّدون «أيحق لهذا المعلم أن يزعجنا بالحمار المخصّص له من أموال الشعب؟».

* * *

لم يمض على انعقاد ذاك الاجتماع أكثر من بضعة أيام حين تعرَّض رئيس مجلس الأمناء الصلف نيكوغوس آغا نفسه لزوبعة عنيفة من الهزء والتسفيه في كل أنحاء المدينة.

عاشت في مدينتنا بائعة هوى واحدة تُدعى «ماريتسا». يقال أن امرأة أخرى تحمل الاسم نفسه كانت قد سبقتها إلى ممارسة هذا العمل فاعتاد الناس على ذكر اسمها عند الإشارة إلى بائعات الهوى على العموم. فكان أحدهم يسأل على سبيل المثال:

ـ من أين أنت قادم؟

ويرد عليه الآخر غامزاً عينه «من عند ماريتسا».

كانوا يشيرون إليها بالبنان من زوايا الشوارع ونوافذ البيوت ومن على أسطحتها، ولكن لاأحد يجرؤ على محادثتها لأن ذلك تصرف

معيب جداً. أولئك الشباب الذين يقضون معها الليالي الطويلة، يلحسون أطراف جسدها مثل الكلاب المدلّلة، كانوا حين يصادفونها في وضح النهار يتظاهرون بعدم الاكتراث بها. أمّا جيرانها على طرفي الدار فقد أحكموا إغلاق النوافذ المطلة على دارها مترقبين رحيل هذه المرأة البغيّ[25] عنهم وانتقالها إلى بيت آخر أو مدينة أخرى أو ربّما إلى العالم الآخر.

النسوة اللواتي يرونها في الحمّام الشعبي كنّ يتهامسن:

ـ انظري إلى كتل اللحم. هل يعقل أن يتقاطر الرجال عليها من أجل هذا كله؟

وكنَّ يحذرن من الاحتكاك بها خشية أن يعديهنَّ الفسوق. لم تكن ماريتسا تمد يدها إلى طشت الماء في الحمّام وإنّما تجلس على كرسي واطئ وتأتي امرأة عجوز (ممتهنة سابقة في مدرسة الضلال، على يديها قد تمرّغ جيل كامل من الرجال في الرذائل) وتتولى تحميم أمثولتها الشابة وتمسّد بشرتها بالزيوت الممسّكة وترشّ عليها الماء المطيّب ثم تحملها إلى حجرة خاصة في الفناء الخارجي تقوم هناك بتجفيف بدنها وإكسائه.

كانت ماريتسا تسير في الشارع، ومن ورائها خادمتها، مشية متهادية، تحمل في يدها مظلّة زرقاء، وتغرز في شعرها مشطاً أشبه بجناحي حمام محلّق، وهي تخلج في مشيتها وترخي خاصرتها بطريقة متكلّفة تارة يمنة وتارة يسرة، تسترق النظر من طرف عينها إلى جموع الفتيان وتبتسم لهم ابتسامة عابرة ثم تمضي في سبيلها.

(25) في الأصل «من أهل سدوم» وهي مدينة بفلسطين القديمة دمّرها الله لانغماسها في الرذيلة والفساد.

لم تطأ قدماها أرض الكنيسة قط إذ لم يكن يُسمح لها بذلك وكان مطران المدينة وهو رجل دين شاب يطلب منها أحياناً أن تمثل أمامه كي «يطلعها على كلمة الربّ».

* * *

في يوم من الأيام سُمع صوت جلبة في طرف الحيّ بدا غير واضح في بادئ الأمر لكنه اشتد قوة وازداد اقتراباً بمرور الوقت. اندفع الناس إلى الشارع واحتشدت النسوة وراء النوافذ وتحلّق الأولاد على الأسطحة.

ظهرت جمهرة غفيرة من الأولاد تتقدّم من أعلى الشارع، أو بالأحرى تزحف بشكل جنوني، تطارد رجلاً تبيَّن أنه رئيس مجلس الأمناء نيكوغوس آغا نفسه. كان الصبية يردّدون:

ـ كان عند ماريتسا..

ـ ها، ها، خرج من عند ماريتسا..

كان نيكوغوس آغا يحاول جاهداً أن يردعهم فيلتقط الحجارة من الأرض ويرميها نحوهم وينجح في بعثرة صفوفهم مثل سرب من الطيور قبل أن يتأهبوا من جديد ويتصايحوا بصوت أقوى:

ـ رئيس مجلس الأمناء عند ماريتسا...

انضم إلى فريق الأولاد غمر من البالغين.

ـ كذب، كذب ـ كان نيكوغوس آغا يردّد مواصلاً جريه المذعور وقد أربكه العار وتملّكه الفزع وراح يتفحّص أبواب المنازل بعيون ملؤها الارتياب، باحثاً عن مدخل يحتمي فيه من براثن الخزي التي أطبقت عليه دون رحمة. وكان الناس يوصدون الأبواب في وجهه ويكتفون

بمراقبة الأمور من الداخل كي لايُعدّوا شركاء في خطيئة هي في الحقيقة مما يقترفها الناس في كل زمان ومكان.

عندما وصل نيكوغوس آغا إلينا أسرع النسوة إلى إسدال ستائر النوافذ، أمّا الباب الخارجي فمن البديهيّ أنه كان قد أحكِمَ إقفاله.

لمحتُ نيكوغوس آغا من مسافة قريبة جداً وأنا على سطح الدار ـ كان يتفصّد عرقاً ويزفر بخاراً وقد انتفخت أوداجه وسال المخاط على شاربه واكتنزت شفتاه. أما عيناه ـ فيا له من منظر مروع ـ فقد بدتا وكأن الذعر قد غُرس فيهما مثل مدية طاعنة.

كان البعض لايزال يردِّد:

ـ قضى الليل كله عندها.

ويتهكّم البعض الآخر:

ـ ياله من رئيسٍ لمجلس الأمناء.

مكث والدي جالساً على أريكته طوال الوقت ولم يحاول أبداً الاقتراب من النافذة. كان يبلع دخان سيجارته ويهمر بغضب:

ـ يا للسفلة، كأن لاعمل آخر لهم.

شقّ نيكوغوس آغا طريقه إلى ساحة السوق الكبيرة وتلاشى في الزحام، تشذّر الحشد كلّ إلى عمله بكل رضى واطمئنان.

بعد هذه الواقعة لم يشاهد أحد نيكوغوس آغا في شوارع المدينة وبقي حانوته مغلقاً وقيل أنه ممتنع عن استقبال أي شخص كان في داره وأنه منزوٍ في غرفة معزولة، يدخن طيلة الوقت ويذرع الغرفة جيئة وذهاباً ويطأطيء رأسه محادثاً نفسه ومطلقاً الشتائم.

بعد ستة أشهر ذاع خبر يؤكد بأنه حمل عائلته على عربة ورحل عن

المدينة ليلاً بعد أن بصق على ترابها للمرة الأخيرة وهو ينفض الغبار عن وجه حذائه. أمّا إلى أين مضى وماذا حلّ به فلم يدر أحد.

* * *

يحلّ الربيع وتثمر أشجار اللوز والتفاح والإجاص والخوخ والأكاسيا التي تحفّ جانبي شارعنا. تتمهّل الثلوج على قمة جبل «ماسدار»[26] البعيدة تعاند مصيرها وتقاومه ـ كأي عنصر من عناصر الطبيعة ـ ولكن خطر تلاشيها يظهر عندما تسطع الشمس بضيائها وتطلّ على السهول الخضراء المزهرة إطلالة الظفر.

في صبيحة كل يوم تدخل إلى المدينة العربات القادمة من الريف وتسير في شوارع حيّنا ورؤوس ثيرانها قد ازدانت بفروع ضخمة من شجر الجوز المزهر لتوّه، فتبدو بأزاهيرها البيضاء المتفتحة أشبه ببقايا الأغصان التي طمرتها الثلوج. يزين أصحاب العربات قبعاتهم بأنساق من أزهار التفاح الوردية فيتميزون بذلك عن الألوان البيضاء التي تحملها دوابهم.

يُسمع صرير العربات باكراً جداً، منذ اللحظات الأولى لانبثاق فجر ربيعي سحري يبلغ فيه الميل إلى النوم مبلغاً لاتجدي معه أية مقاومة. يهدهدنا هذا الصرير في مراقدنا، فنحن معتادون على سماع موسيقاه التي تأسرنا من بعيد وتحملنا على الاسترسال في أحلامنا في جو من الدعة والتمايل والشرود.

يدوم صرير العربات فترة طويلة من الزمن، ننهض خلالها من رقادنا ويبدأ يوم عمل جديد دؤوب، يمتد حتى الظهيرة. إنه صرير رتيب بطيء

(26) جبل ماسدار: قمة من قمم جبال طوروس تطل على سهل خاربيرت وتؤلف فاصلاً طبيعياً بين ولايتي خاربيرت وديار بكر.

يمكن تشبيهه بأي لون من ألوان اللحن ـ السعيد منه أو الحزين على السواء ـ تبعاً لقابلية المستمع النفسية. فعندما يلومونني في الأسرة لسبب من الأسباب ويمعنون في تقريعي على نحو محبط إلى حدّ تنتابني رغبة شديدة في البكاء، كان يبدو لي صرير العربات هذا وكأنه يشاركني لوعتي وكل عجلة من عجلاتها تستجيب لكآبة روحي.

إضافة إلى صوت العربات يمكن للمرء أن يسمع في حيّنا أصوات الطَّرْق الصادرة عن مطارق الحدّادين وهي أصوات متتالية حيناً ومتقطعة حيناً آخر. كان عدد الحدادين كبيراً في حيّنا وكان من الأمور المحببة إلى نفسي الوقوف أمام مشاغلهم ومراقبة مواقدهم التي تستعر بالتدريج بواسطة الهواء المنفوث من بطن الكور، فيساورني الاعتقاد بأن النار تحتدم لأنهم يضايقونها.

كان يصل حماسي إلى ذروته عندما يُخرج الحدَّاد ذو الوجه المشحّر واليدين الغليظتين المتفحمتين قطعة حديد ملتهبة ويرفع مطرقته الجديدة الثقيلة ليفلتها على الحديد المحمّر قاهراً عناده الصلب.

كانت رغبتي الوحيدة تتمثَّل في أن أضفي على قطعة من الحديد الشكل الذي أودّه. كنت حين أفشل في ثني السلك الحديدي الثخين الموجود في دارنا ترِد أمامي فجأة صورة جارنا الحداد الذي له القدرة على صوغ الحديد بالشكل الذي يرغبه، مهما بلغ هذا الأخير من قساوة وصلابة. لقد كانت شخصيته هي شخصية الرجل البطل في نظري، وفي كل مرة كانوا يطرحون عليَّ سؤالهم «ماذا تريد أن تعمل عندما تكبر؟» كنت أجيب بحماسة ودون أدنى تردّد «أُريد أن أعمل حداداً»، إذ لم أكن أتصور حرفة أكثر بطولة من الحدادة.

أكثر ما كان يروق لي وجوههم وخاصة عيونهم التي تلتهب كجذوة

نار تزداد التهاباً فتبدو كمواقد صغيرة على وجوه سَفَعَتْها النار. وكنت أنظر تارة إلى النار وطوراً إلى عيونهم وأقترب أكثر من المطرقة الهاوية كي تحرق ثيابي قبسات الشرر المتطايرة من الحديد الحامي فأتشبه بهم.

كنت موقناً بأن المرء لابد أن يكون حداداً حتى يمكن له تناول طعامه - بعد يوم عمل طويل - بشهية غير منتقصة. كان زادهم اليومي يتألف على الأغلب من بصل وخبز يابس. فكنت أعود إلى الدار وأقضم الخبز والبصل ولكن أجد أنني أفتقد الشهية وهذا ماكان يزيد رسوخاً في نفسي الاعتقاد بأنه يجب أن أصير حداداً. وقد حاولت فعلاً أن أبني لي موقداً وكوراً في دارنا ولكن محاولتي باءت بالفشل.

* * *

عندما أعود بذاكرتي إلى شارعنا، أتذكر أكثر ما أتذكر رفاق طفولتي - أعني كلاب الحيّ. لقد أمضيت طفولتي كلها أتمتّع بمودتهم المتفانية. لقد كان قطيع الكلاب هو الجيش الذي أتحكّم بقيادته. وإلى يومنا هذا، عندما أرى أحدهم يركل كلباً، تتقطّع أواصر قلبي وأتذكر رفاق طفولتي.

لم يكن بينهم كلب لاتظهر عليه علامة من علاماتي. أول ماكنت أقوم به هو أن أجزّ أطراف ذيولهم في وقت مبكر من حياتهم وهم لايزالون يتعلقون بأثداء أمهاتهم، فيكتسبون بذلك مظهراً أكثر رونقاً وجمالاً في نظري. لم أكن أحبّذ الذيول وكنت أستعجلهم في التخلّص منها قبل أن يصيبهم ذلك فعلاً في طور لاحق وفق ماتقرّه نظرية التطور[27].

(27) نظرية التطور: هي النظرية التي وضعها عالم الطبيعة البريطاني تشارلز داروين (1809 - 1882) في أثره الشهير «في أصل الأنواع» الذي أصدره عام 1859 وتعرف أيضاً بالنظرية الداروينية أو نظرية النشوء ومن مفاهيمها بقاء الأصلح وارتقاء الأنواع وتطور الأجناس.

أمَّا هم فقد كانوا يكنّون لي حبّاً عظيماً يختلف عن مفهوم الحب لدى بني البشر، حبّاً خالصاً مجرّداً يجهل الحقد والضغينة ولايصبو إلى مصلحة. كانوا ينسون في الحال أية أذية أسببها أنا «الإنسان» لهم. فعندما أضربهم يقفون هُنَيْهة ثم يحثّون الخطى ويقتربون مني مجدّداً إلى حد الاحتكاك بي ويلعقون الأقدام ذاتها التي رفستهم دون رحمة قبل قليل. هكذا يكون الحب الحقيقي.. حب الكلاب.

وكنت أمضي في الدرب الروماني القديم تحيطني الكلاب من كل جانب، يتقدمني البعض منهم والبعض الآخر يستوي معي على الخط نفسه في حين تتخلّف الغالبية منهم ورائي في أنساق هي بمجملها من وحي تشكيلاتهم الداخلية.

كنت أعرف أسماءهم واحداً فواحداً (أسماء مجردة من النعوت، تماماً مثل أسماء العظام ـ نابليون، الاسكندر الخ) وأعرف أيضاً متى ولد كل واحد منهم بل حتى أصله ونسبه، من أين جاء ومن هو والده ومن هو سلفه من قبله. ولكنهم على ماهم عليه من سلوك كانوا ينسون ذويهم وخاصة أخواتهم الإناث فيتناشبون ويعضّون بعضهم بعضاً ويتناهشون ومن ثمَّ يتودَّدون فيتزاوجون. لم يعترف الكلب «ألو» بأخته وأنجب منها عدة جراء، تغافل كل واحد منهم بدوره عن طبيعة العلاقة الأولية بينهم ومضوا يتناسلون.

كانت الكلاب تعرف متى أخرج من المدرسة فتصطفّ أمام الباب وترافقني إلى الدار. وعندما أدخلها يتفرّقون شذر مذر، وعندما أخرج إليهم ثانية، أراهم قد اصطفّوا من جديد بعيونهم الجذلة وابتساماتهم التي تزخر بكل أنواع الصداقة. أذكرهم الآن وأدرك معنى الحب الحقيقي.

* * *

بنى طائر اللَّقلق عشه على شجرة الحور الطويلة في حديقة دارنا، على ارتفاع شاهق واستقامة تشبه المآذن المرمرية السامقة في صحن الجوامع.

* * *

لم تكن والدتي تسمح لنا عند حلول الربيع بالاستغناء عن ملابسنا الشتوية قبل أن تهاجر طيور اللقلق عائدة إلى ديارنا من بلاد الجنوب. وإذا ظهر اللقلق في الجوار وتأكدنا من مقدمه قبل أن تتاح لوالدتي فرصة المعاينة بنفسها كنا نخلع معاطفنا الشتوية ونطرحها جانباً قبل أن نهرع إلى الخارج.

وحين تأتي والدتي يبدأ الاستجواب:

ـ لماذا خلعتم الأردية الشتوية؟

ـ لقد جاء اللقلق.

ـ أحقاً؟

وتصعد والدتي بدورها إلى السطح لتتأكد من مجيء اللقلق فيصدر هذا الأخير لقلقته المميزة من على ذروة شجرة الحور، ولاأدري ما الذي يدفع والدتي إلى رسم إشارة الصليب على وجهها.

اختيار اللقلق أن يبني عشّه في حديقتنا يعدّ في عرف والدتي فأل خير. كان من المسموح لنا اللهو مع كل أنواع الطير المعشش في حديقتنا إلى حدّ العبث بأعشاشها، ولكن عندما يتعلق الأمر باللقلق فلا أحد يجرؤ على إلحاق الأذى به. أقصى مايمكن للمرء أن يفعله هو أن يسدّد إليه الحجارة ولكن العرش الذي يستوي عليه هذا الطائر يكون عادة من العلو بحيث لايصله شيء، أمّا تسلق شجرة الحور فهو لأمر مستحيل. أن نخيف اللقلق لاطائل في ذلك أيضاً لأنه لايعيرنا أي

اهتمام. فكل ماهو متوفر هو بضع حجارة يمكن أن نرميه بها وكان ذلك أيضاً ممنوعاً من قبل والدتي.

في سنة من السنوات لم يحلّ اللقلق في ديارنا، وقد فجعنا في ذلك العام بوفاة أحد أفراد أسرتنا. بطبيعة الحال اقترن غياب اللقلق ذلك العام بالوفاة مصادفةً ولكن والدتي بقيت متشبثة باعتقادها الذي يجزم بأن وجود اللقلق هو فأل خير وكأن تلك حقيقة قاطعة لاتحتمل التأويل. وحدث أن تخلّف اللقلق عن مجيئه سنة أخرى، فاغتمّت والدتي أكثر فأكثر مع مرور الوقت وصارت تقول والكآبة بادية في نبرات صوتها: «الموت آت». وأخذ اهتمامها يزداد بكل واحد منّا وقد تملكها شعور شديد من التعاطف معنا، ولعلها كانت حينما تنظر إلى أحدنا تتخيّله فريسة للموت المرتقب. كنا نريد أن نبدّد مخاوفها فنقول لها:

ـ لاتصدقي مثل هذا الكلام الفارغ، يا أماه.

ولكنها كانت تقول بإيمان صادق:

ـ سيأتي الموت لامحالة قبل نهاية العام.

وبالفعل طرق الموت باب دارنا قبل انصرام العام وأخذ معه والدي، فانطلقا معاً يداً بيد. غادرَنا والدي دون رجوع تاركاً وراءه والدتي تنتحب وتقول:

ـ كنت أعرف أن شيئاً ما سيحدث، لم يأتِ اللّقلق هذا العام.

* * *

كان الفلاحون يعملون في مزرعتنا الرحيبة من شروق الشمس حتى أفولها.

كانت المواعيد التي تنظم حياتنا ـ نحن أصحاب المزرعة ـ تخضع

أيضاً لقواعد بالغة الصرامة ولكن دون أن تكون لها علاقة بشروق الشمس أو مغيبها ولاحتى بتغيُّر الفصول. كنا بعد أن نفيق الضبح نتناول الإفطار ونذهب إلى العمل، وبعد أن نعود منه نتناول طعام الظهيرة ونأوي إلى الفراش وذلك في المواعيد المحددة لكل واحدة من هذه الواجبات. أمَّا الفلاحون من عمال مزرعتنا فهم محكومون بمزاج الشمس وتقلبات الطقس. نظامهم الخاص يتبع حركة الشمس من وقت الشروق حتى المغيب. وكم كانت الشمس مجحفة بحقهم، تسفع أجسادهم دون رحمة.

كانت معازقهم تشق الأرض دون توقف طوال النهار، وحين يزاح التراب عنها يلتمع حديدها تحت وهج الشمس بلون أقرب إلى لون البحر.

عندما ينتصف النهار يفترش الفلاحون الأرض تحت الشجرة الأوسع ظلاً ليتناولوا ما يدعى «غداءً» وهو طعام ضَلِفٌ لايتعدى الخبز والبصل وفي بعض الأحيان البطاطا المسلوقة وفي مرات نادرة جداً البيض المسلوق. وحين ينشب الخبز اليابس في الحلق ويأبى أن ينزلق في مجرى البلعوم، ينبطح الفلاحون على الأرض فوق صدورهم ويكرعون الماء البارد من الجدول ثم يمسحون شواربهم المبلَّلة بأطراف متدلية من أسمالهم.

في المساء، عند أفول الشمس، في الوقت الذي تطول فيه ظلال الأشجار وتتعانق مع أجنحة الظلام المنتفضة من أعماق الأرض، يهجر الفلاحون معازقهم ويسلكون درب بيوتهم حاملين معهم صرر الخبز، ويبدو الإعياء بادٍ على محيّاهم وعلى أذرعهم وصدورهم المكشوفة وأقدامهم العارية وكأن أجسادهم قد اصطبغت به حتى أطراف الأظافر.

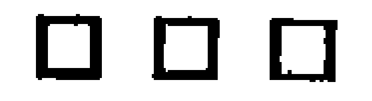
الاعياء....

الدنيا كلها كانت ترحب بكل حبور إشراقة الشمس صباح كل يوم جديد ولكن هؤلاء الفلاحين يستقبلون مغيبها بحفاوة تفوق بهجة الناس في الصباح ويتطلّعون إلى الظلمة الكئيبة بانشراح وفرح لأن الظلام كان يحمل إليهم مايخفّف كروبهم وسكينة ما بعدها سكينة.

كنت حين انظر إلى معازقهم المعلقة على طول الجدار، تلوح لي وكأنها هي أيضاً قد أصابها الاعياء وتغطّ الآن في نوم عميق. ويحدث أن يترك أحدهم معزقته في جوف الأرض مغروسةً في التراب فتبدو لي وكأنها ماضية في عملها رغم التعب والإنهاك.

وحتى والدتي، تلك المرأة الفائقة الحنان، التي كانت تستضيف كل يوم أحد المعوزين على مائدة طعامها وتقدم الإعانات المالية لبعض الأسر ولاتنفك تبكي عندما ترى الجياع، لم يكن يخطر ببالها أن تفكر في أمر الفلاحين وكانت تجد أن عليهم أن يشقوا من بزوغ الفجر حتى الغسق. كان الإرهاق يبدو واضحاً على الفلاحين في انحناءة ظهورهم التي احدودبت تحت وطأة حمل ثقيل غير بادٍ للعيان. إرهاق يتجلّى خاصة في عيونهم وعلى تضاريس أيديهم.

وكان الفلاحون يحضرون مساء كل يوم سبت يصطفّون على امتداد الحائط كي يحصلوا على جراياتهم وعندما يقبضون ثمن أتعابهم يمضون في سبيلهم دون أن ينسوا قبل كل شيء الإفصاح عن شكرهم.



9

استحوذ أوار باهت على الأفق قبيل حلول الظلام، تخضَّب به الغبار المتصاعد في الشارع فاكتسب لوناً وردياً. وتضاءَل جموع العائدين إلى القرى المجاورة فبدا الشارع كأنه يتثاءب تثاؤباً ناعماً مثقلاً بالإعياء.

بدأ أهل دارنا بالصعود الواحد تلو الآخر إلى السطح، وراحوا يفضّون هناك ملاءات النوم البيضاء لينحسر قيظ الظهيرة عن طياتها. خيَّم الهدوء على أرجاء المدينة وكفَّت الأبقار عن خوارها بعد أن حُلبت وفُطمت العجول عنها وتركت وشأنها تنصرف إلى اجترارها.

ـ اهرعوا، وابليتاه، لقد أفنيا بعضهما بعضاً، النجدة.

بهذه الكلمات علا صراخ استغاثة مفجع وممزق للقلب، تحوَّل تدريجياً إلى عويل مرعب. الصوت مألوف. إنَّه صوت جارتنا في الدار المقابلة. مصدره قبو الدار المعتم الذي لم تطأه قدم طوال الصيف. فهرع الجيران إلى الموقع وكان أخي الأكبر أول من وصل إليه لأنه لم يكن يطيق صبراً على النزول من الدرج وإنَّما أمسك بفرع من فروع الشجرة المحاذية لإفريز السطح وراح يؤرجح نفسه في الفراغ ثم وثب وثبة واحدة إلى قارعة الطريق.

مكثتُ على السطح أرتعد بينما ظلّ الصراخ المستجير يتردّد في الأجواء موقعاً الكآبة في النفوس «أسرعوا، النجدة، قضيا على بعضهما بعضاً».

بعدَ قليل ظهر أخي الأكبر ـ شاب بجبروت هِرَقْل[28] ـ يجرّ معه صبيين مراهقين ممسكاً الأول من ذراعه والثاني من عروة سترته والدم يتدفّق من فميهما، شعرهما منفوش، ثيابهما ممزقة، عيونهما أشبه بعيون الكلاب التي اعتدت كلاب أخرى على جرائها.

كانا لايزالان يبغيان الانقضاض على بعضهما البعض لولا أن ذراعيّ أخي القويتين أبقتهما على مسافة أمان كافية. تمكنَّا والحال هذه من التعرف بصعوبة على «فاهرام» و«هراتش» وهما الابنان المراهقان للأم المنكوبة.

فاهرام وهراتش شقيقان. الأول عمره 19 والثاني 17 سنة. وحدث في اليوم الذي ولد فيه هراتش أن جاءت إلى الدنيا أيضاً بنت الجيران فيرونيكا، فاتفق أهل الطرفين على عقد خِطبة المهد بينهما. وعندما شارف الصبيان على سن البلوغ وقبل أن يعي هراتش وجوداً للنساء ارتبط أخوه فاهرام بعلاقة غرام مع فيرونيكا، متحدياً بذلك عرف المهد.

كان هراتش على علم بحكاية الحب هذه ولكن شعوره بقي حيادياً في زمن كان يقضي فيه معظم وقته في لعب الكعاب وقيادة قطيع من كلاب الحيّ ـ كما كنت أفعل أنا ـ ولكن عندما بدأت قامته تطول واشتد عوده، فطن للجنس الآخر وارتعشت المرأة في قلبه الصغير. لقد كانت فيرونيكا من نصيبه منذ أيام المهد، وهذا ما ارتضته مشيئة الأهل وأقرّه القَدر.

كان الأهل والأقارب قد أغفلوا هذه القصة القديمة، ولكن هراتش أراد الاستحواذ على مارآه أنه من حقه. واعتقد بادئ الأمر أن أخاه ليس

(28) هرقل: من أبطال الميثولوجيا الاغريقية اشتهر بنزالاته مع الحيوانات الضارية. يعرف باسم هيركوليس. وهو غير هِرَقْل الامبراطور البيزنطي الذي هزم العرب قواته في معركة اليرموك.

سوى حجر عثرة يمكن تجاوزه ولكن الحجر الصغير تعاظم تدريجياً حتى تحول إلى جلمود أسود.

لقد كان هراتش بطبيعة الحال يحب أخاه. فأخوه هو الذي هدهد له سريره الهزّاز حين كان طفلاً، هو الذي جال به في الحدائق واصطحبه مراراً إلى بساتين الكرمة ـ وهما بعد صبيان صغيران ـ متحملاً المسؤولية كاملة، كما ساعده في حفظ دروسه وحماه من أذى أطفال الحي الأشقياء، تقاسم معه كل ماوقعت عليه يده من أطايب الطعام، صنع له طيارته الورقية كما علّمه السباحة. ولكن شعرة واحدة من ضفيرة فيرونيكا جعلته ينسى كل ذلك، وفي يوم من الأيام امتنع فجأة عن التحدث إلى أخيه:

لم يفهم فاهرام في البدء سرّ هذا التحول، بل لم يجد ما يستدعي الانتباه، ولكنه مع انقضاء الوقت لاحظ أن هراتش يفقد تدريجياً النظرة الأخوية التي كانت في عينيه وأن كل لقاء بينهما أضحى لقاءً عدائياً يلفّه الغموض.

ـ هراتشيك[29]، عزيزي، ماذا تريد يا حملي الوديع؟ ـ سأله فاهرام ذات يوم.

رمقه هراتش نظرة نفذت إلى بؤبؤ عينيه وتغلغلت في أعماق قلبه. شعر فاهرام بنار الشهوة في روح أخيه فابتعد مطرقاً برأسه. ومنذ ذلك اليوم تجنّب الأخوان الالتقاء ببعضهما البعض ولكنهما لم يكفّا عن إذكاء نار الخلاف بينهما، ناراً كانت تستعر مثل شمس الجنوب.

تورّد خدا فيرونيكا حتى أضحى الدم ينزّ منهما قطرة قطرة بأقل

(29) هراتشيك: صيغة التحبب من اسم العلم «هراتش». أسماء العلم الأرمنية قد تلحق بها النهاية «يك» للتصغير ولغرض التدليل.

ضغط، وازدادت جدائل شعرها ثراءً كأنها شلالات في مهب الريح أما عيناها فصارتا أشبه بقنديلين مشعلين في زاوية نائية منسية تقع في قلب الصحراء، وراح صدرها الناهد يجيش بغناء واعد مؤثر رقيق:

ـ نعم، نعم، سأفعل ماتشاء، نعم، ها قد جئت، ولكنّي سأذهب الآن، لن آتي بعد اليوم إذا كانت هذه هي مشيئتك ـ تقول فيرونيكا وتطلق قهقهتها وأحياناً تلجأ إلى البكاء، فيصعب على محدّثها التكهن إذا كان هذا ضحكاً أم بكاء؟ ولكنها، على أية حال، تبقى متجاوبة إلى أبعد الحدود، لاتكلّ عن الحركة والنشاط ولايخبو رونق الحياة في عينيها مثل عصفورة صغيرة وقعت في قبضةٍ غير رحيمة.

في ذلك اليوم نزل فاهرام وفيرونيكا خفية إلى قبو الدار وهناك جلسا على أكوام الحطب المقطوع والمرصوص على بعضه البعض وراحا يتعانقان فتضاءلت الفجوة بين شفتيهما واشتعلت فيهما جذوة الغرام وتشابكت ذراعاهما مثل جدولي ماء ينسابان في صوبين مختلفين.

صدر صرير من الباب الذي انفتح على مصراعيه وتسلل إلى القبو فتى ذو عينين برونزيتين، تقدم بخطى وئيدة وتوقف على بعد عدة خطوات منهما فتوهّجت عيناه مثل عيني قطة متوحشة. تعرّف فاهرام في هيئة أخيه على عدو لدود كامن فيه ومتربّص، ذاك الأخ الذي عرفه منذ الصغر وهدهد له مهده مراراً وحمله على كتفيه في تجواله.

التقت نظراتهما وخيم وجوم مطبق ثم قفقفَت أسنانهما وسرى شعور غريب من الرهبة إلى الآخر، قبل أن ينقض كل منهما بغتة على غريمه. تقلبا على الأرض عدة مرات ثم انتفضا واقفين واندفعا معاً صوب الصبيّة ضحية حبهما المشترك، يحاول كل منهما أن يستأثر بها لوحده ويحرم الآخر من المساس بها.

ـ لقد دنّستَ طهارة مهدي ـ زمجر هراتش.

ـ ومن أنت لتقول هذا الكلام؟ أنا أنكر ذلك، فيرون من نصيبي أنا ـ همهم فاهرام.

ـ لنرَ نصيب من ستكون ـ ردّ عليه هراتش.

واندفع الاثنان نحوها يحاول كل منهما انتزاعها لنفسه وأحكما قبضتيهما على رقبتها فاختنقت فيرونيكا تحت وطأة حبهما الجارف. أحسّ المراهقان الحانقان كيف خفقت فيرونيكا وكأنها عصفورة صغيرة وقعت في المصيدة ثم أطلقت شهقات متتالية وخارت قواها، ولكنهما مضيا في صراعهما المرير للاستيلاء عليها إلى أن تنبّها آخر الأمر أنّه لم يعد لحبيبتهما وجود ولاجدوى بالتالي من الاقتتال على جثة هامدة. فطفقا حينئذ يحاولان تصفية بعضهما البعض. أقحم فاهرام أصابعه في فم هراتش وشدّ بكل ما أوتي من قوة ليمزّق فمه ويشوّه وجهه. ارتعد هراتش من شدة الألم وأطبق أسنانه على أصابع غريمه حتى تهشّم العظم. أطلق فاهرام صيحة مدوية وكأنها صادرة عن حيوان يُحْتَضَر. وكانت هذه هي الصيحة التي حملت والدتهما للإسراع إلى قبو الدار لتجد هناك فيرونيكا المغدورة ملقاة على الأرض جثّة هامدة والمراهقان في صراع وحشي مريع.

ـ النجدة، النجدة، لقد قضيا على بعضهما البعض، قُتلا، ماتا..

كان أخي الأكبر هو أول من وصل إلى موقع الجريمة وانتشر الخبر الرهيب في لمح البصر في كل أرجاء المدينة.

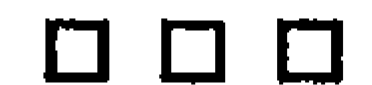
وفجأة تناهى إلى مسامع الناس صوت عويل طاغ ممزّق لنياط القلوب، صادر هذه المرة عن أم أخرى، صوت مالبث أن اشتدّ مع اقتراب مصدره وصار أكثر اختراقاً وتعذيباً للآذان.

ـ ابنتي، مهجتي، يا شمسي الفتية ـ كانت والدة فيرونيكا تلطم وجهها وتنوح على ابنتها التي أصبحت في عداد الأموات وهي الصبيَّة التي كان خدّاها قد توردا لحد أضحى الدم ينزّ منهما قطرة قطرة بأقل ضغط.

التقى الناس الذين حملوا جثة فيرونيكا بالأم التي ركضت نحوهم وطوّقت بذراعيها رأس ابنتها الشاحب الهادئ الصامت وأخذت ترثيها رثاء الأم المحبة المفجوعة.

كان فاهرام وهراتش مايزالان يتبادلان نظرات الموت الأصفر ويشدّان بقوة على أسنانهما وقد أحال التدخل الحاسم من قبل الرجال المحيطين بهما دون أن ينهشا مزيداً من لحم بعضهما البعض.

حملوا جثة فيرونيكا إلى بيت أهلها وكان بريق عينيها قد خبا إلى الأبد وبانقضاء الوقت خفَتَ صوت الأم ثم همد نهائياً. ومضى الناس كلّ إلى شأنه وجلسوا على الشرفات وأسهبوا في الحديث عن وقائع الجريمة حتى أمسى النعاس لاتجدي مقاومته.



10

كنت أعدُّ من أمهر صانعي الطيارات الورقية في المدينة ابتكرُ طيارات طنَّانة مزركشة الألوان ذات ذيول طويلة وأقطار كبيرة. في أمسيات الصيف حينما كان النسيم العليل يهفو فوق أسطحة المنازل وينساب في الشوارع كنا نطلق الطيارات الورقية من الأسطحة العالية، في الوقت الذي تعوم الشمس في بحر الجبال الزرقاء مثل قرص ضخم من المشمش. وتُخيِّم على الأرض ظلمة تتدلى من قبة السماء بستائر بنفسجية عملاقة، تنثال عليها نجوم عديدة تفوق عدداً على كل ما أخرجته السماوات الأخرى.. وتكون طياراتنا الورقية قد انطلقت في الأثير الأزرق الرّحب محمَّلة بقناديل كبيرة متعددة الألوان.

مع تكاثف خيوط الظلام لايشاهَد من الطيارات سوى قناديلها ذات الألوان الزاهية وهي تسبح في الفلك مثل أقمار متمايلة تجوب في الفضاء الفسيح غير قادرة على العودة إلى مداراتها القديمة. أقمار تطوف بالعشرات مساء كل يوم في أعالي السماء. وكان يحدث أن تشتعل النار بغتة في إحدى الطيارات فتفترسها ألسنة اللهب في لحظة واحدة وتصبح أثراً بعد عَيْن.

في يوم من الأيام أطلقتُ طيارتي الورقية في الهواء وأحكمت ربط طرف خيطها إلى سارية السطح ورحت أراقبها وهي تحلّق في الفضاء وأنا مستند إلى أحد أطراف السطح فينتابني شعور من الغرور والزَّهو.

كانت طيارتي تحوم في مستوى أعلى من سائر الطيارات التي أطلقها أصحابها من أسطحة المنازل الأخرى وفجأة تنبهت وإلى السارية وقد بدأت تميل على ذاتها وقبل أن أستطيع الإمساك بها كانت قد سقطت على الرصيف من علو ثلاثة طوابق. انحنيت وأنا مخلوع الفؤاد وألقيت نظرة إلى الأسفل لأتحقق فيما إذا كانت السارية قد وقعت على رأس أحد.

كان الشارع خالياً من المارة والسارية لم تسبب أذى لأحد. ولكن خوفي لم يتبدَّد، إذ رحت أتخيّل الكارثة التي كان وقوعها ممكناً. اكتسب خوفي أبعاداً مضاعفة عندما تخيلت السارية وهي تهوي على رأس والدي الذي كان من عادته أن يعود إلى الدار في مثل ذلك الوقت كل يوم. شعرت وكأن الدنيا قد اسودَّت أمام عينيّ ولم أتمكن من الابتعاد عن طرف الإفريز إلّا بشق النّفس.

ركضتُ إلى الأسفل وقطعت خيط الطيارة ورحت أجمعه بسرعة فائقة. فعلقت الطيارة بشجرة التوت العالية الموجودة في حديقة دارنا. حاولت أن أفكّ خيطها ولكنه ازداد التفافاً بالشجرة ثم خطر ببالي أن أصعد على الشجرة وأخلّص طيارتي من بطش الأغصان عندما ارتفع في الشارع فجأة صوت نهيق هادر أطلقه الحمار الذي يستعمله والدي. سحبت الخيط وقطعته بالسرعة القصوى ثم صعدت إلى حجرة والدي ورحت أراقب الوضع من النافذة. كنت على أحر من الجمر لأرى ما إذا كان والدي سينتبه إلى وجود السارية على الرّصيف. وفعلاً لم يفته الأمر فسأل الخادم.

- كيف سقطت السارية على الأرض؟

لم يتمكن الخادم من الإجابة عليه حالاً. اقترب من السارية وهو

لايزال ممسكاً بلجام الحمار، فاكتشف بقايا خيوط عليها واستنتج دون تباطؤ السبب وشرح الموقف لوالدي الذي أمره قائلاً:

ـ هيا نادِ عليه لنرَ ما الأمر؟ ـ وصعد إلى الطابق العلوي.

لم أتأخّر كثيراً في اتخاذ قرار فيما يجب عليّ أن أفعله في مثل ذاك الظرف العصيب. وثبتُ مبتعداً عن النافذة ثم اعتليت الخزانة الكبيرة التي تحوي ملاءات النوم وتنفصل عن الحجرة بستار كبير عازل. صعدت إلى أعلى نقطة هناك واستلقيت على الملاءات المرصوصة فوق بعضها البعض وكاد رأسي يلامس السقف.

عاد الخادم إلى والدي بعد أن بحث عني في كل مكان دون جدوى وقال:

ـ ياحاج أفندي، لاأثر للولد.

دخلت والدتي الحجرة فسألها والدي أين يمكن أن يجدني، فقالت:

ـ إنه على السطح مع طيارته ـ وكان واضحاً من كلامها أنها ليست على علم بما جرى. أوضح لها والدي الأمر، فأمسكت صدغيها بكلتا اليدين وصاحت:

ـ أواه، العمى لعيني[30]...

انطويت أنا على نفسي في الخزانة من شدة خوفي. بعد مدة قصيرة بدأت والدتي تقلق على مصيري وأخذت تتساءل:

ـ حسناً، حدث ماحدث ولكن أين هو الولد؟

جاء أخوتي وأخواتي وانطلقوا يبحثون عني في أرجاء الدار. فتّشوا

(30) «العمى لعيني»: تعبير عامي شائع.

في كل مكان عدا غرفة والدي. فمن يمكن أن يخطر بباله أنني أتخذ من تلك الغرفة بالذات مخبئاً لي.

أُرسِلَ كل واحد من إخوتي إلى بيت جار من الجيران أو الأقارب، ولكنهم عادوا جميعاً خائبين. فقال والدي:

ـ ابحثوا عنه فوق أشجار الحديقة ـ واندفع إخوتي إلى الحديقة ولكنهم عادوا بأيدي خاوية.

ـ لابد أن العتمة قد حالت دون أن ترونه ـ قالت والدتي مشكّكة. فأجاب أخي الأكبر:

ـ ولكنها ليلة مقمرة يا أمّاه.

وضع والدي قدح العرق أمامه (كنت أراقب مايحدث من شق الستارة) ثم أمسك به ورفعه عالياً كي يتجرّع منه ولكن القدح بقي عالقاً في الهواء وظهرت على وجه والدي أمارات قلق بالغ.

ـ ماذا جرى له يا ترى؟ تساءَل متنهداً وارتعشت نبرة صوته ثم خفتت في جو من الكآبة البالغة.

من المؤكد أن والدي كان سيأخذني في حضنه ويضمني إلى صدره لو أنّي ألقيت بنفسي خارج الخزانة في تلك اللحظة، ولكن لاأدري لماذا لم أقم بذلك.

ـ بنيّ هاكوب، خذ الحصان واذهب إلى المدينة[31]. لابد أنه عند خلّانه ـ قالت والدتي موجهة كلامها إلى أخي الأكبر ـ ثم أضافت موصية إيّاه.

ـ خذ المسدس معك. إذا وجدت الصبي عندهم لاتحضره معك، لأن

(31) تقصد مدينة خاربيرت المجاورة.

ذلك سيخيفه، إنما اتركه يبقى عندهم وبعد عدة أيام سيأتي به أولاد الخال.

بعد ربع ساعة سمعت وقع حوافر تطأ بثبات على الطريق المرصوفة بالحصى ثم ساد الحجرة صمت ثقيل وهذا ما دفعني إلى التزام الجمود التام. قادني الجمود إلى أحضان نعاس عذب وانقطعت كل صلة بيني وبين الواقع إلى أن وجدت نفسي في النهاية أتدحرج من علوٍ على سجاد الحجرة. عندها استيقظت وتذكرت كل شيء ورحت أحاول الهرب ولكن أختي الكبيرة أمسكت بي. هرعت إلى والدتي التي احتضنتني وقبلتني بدموع تخالط البسمة. ألفيت نفسي ـ وقد سكن رأسي على صدرها الرحب ـ في وضع لأأرى فيه شيئاً مما يحدث حولي. وفجأة أحسست بشوارب والدي وبرائحة سجائره المميَّزة. كان هو الذي يقبلني الآن مردداً «يا لك من ابن ضال، يالك من ابن ضال».

بعد وقت قصير سمعت وقع حوافر الحصان مرة أخرى وكان أخي هو القادم. وما أن بلغ عتبة الدار حتى صاح:

ـ لم أجد له أثراً هناك.

وعلت أصوات الضحك. كنت أتابع أخي الأكبر وأنا قابع تحت ذراعِ والدي ورأيت كيف تبدَّلت نظرة الغضب في عينيه رويداً رويداً وحلت محلها ابتسامة أخوية مؤثرة. اندفعت نحوه وتعلقت بخاصرته فحملني عالياً وعانقني. ما أطول قامته وأشدّ قوته.

رغم كل ذلك منعني والدي صبيحة اليوم التالي من إطلاق طيارتي الورقية. وراحت أيام الصيف الذهبية تمضي سدىً وأنا أشعر أن قلبي يفرغ من محتواه. بتُّ أصعد إلى السطح مساء كل يوم أراقب «الأقمار» الهائمة في السماء بغم وكآبة عظيمين. ففي الأيام الأولى لم يبدُ الأمر

فادحاً إلى هذا الحد ولكن بمرور الوقت ومع اضمحلال قرص الشمس في سماء الصيف المنقضي وهبوب نسمات لطيفة حولي مداعبةً جبهتي، أخذ الحزن العميق يلف روحي.

ذات مساء عندما كنت جالساً على سطح الدار أراقب طيارات أترابي من الصبية وهي تحلق في الفضاء، في تلك اللحظات السحرية من المساء عندما تسيل من قبّة السماء جداول من نورٍ تسير في مسارب مشمشية اللون تنصبّ في لجّة بحر عظيم نيّر الأغوار، صعدت والدتي إلى السطح لتلقي نظرة على أصناف المربى المفروشة على السطح لتجفّ تحت لفح الشمس، هناك وقع نظرها عليَّ وأحسَّت بتعاستي البالغة، تعاسة أشبه بغمام أسود يجثم على أفق تلك الأمسية الرائعة. فدنت مني وحملَت رأسي بين يديها وسألتني:

ـ ماذا بك يا صغيري؟

رحت أُحدّق في «الأقمار» السابحة في السماء ولكنني لم أتمكن من الاحتفاظ بنظري طويلاً على ذاك النحو وسرعان ماغصَّت عينايّ بالدموع.

فقالت:

ـ سأقول لوالدك أن يأذن لك بإطلاق طيارتك، ولكن عليك ألا تربطها إلى السارية.

ـ لن أربطها ـ نشجْتُ باكياً.

في الصباح انكببْتُ على صنع طيارة جديدة أكبر من أية طيارة أُخرى صممتها في حياتي.

* * *

ذات يوم قال لنا أحد المعلمين الشباب وكانت تربطنا به علاقة ود وصداقة:

ـ ما رأيكم يا أولاد أن آخذكم إلى ضيعتي؟

كنا نعرف أن القرية التي يقصدها تقع على سفح جبل ماسدار وأنها موطن أشجار عتيدة تبلغ من الثّخانة مايمكن لعائلة ريفية بأكملها أن تتخذ من جذع إحداها سكناً لها. ومما سمعناه أيضاً أن الماء ينبجس من نبع موجود تحت أرض الكنيسة ويتدفق بغزارة شديدة يمكنها من جرف عربتين اثنتين مع ثيرانهما بعيداً. أمّا نهر أرادزاني[32] فيشقّ مجراه أمام القرية وكأنه شريط أزرق متمعّج.

انطلقنا مشياً على الأقدام في وقت متأخر من النهار تفادياً لشمس الظهيرة. وكنا نسير في طرق جانبية مختصرة وأحياناً في أراضٍ زراعية، ندوس الزرع في الحقول الذهبية، نرهو تارة تحت قبة السماء الزرقاء المرصّعة بالنجوم، ونتدافع طوراً في جو من الهزر والمزاح، ندنو بين الفينة والأخرى من الجداول الرقراقة لنعبّ من مياهها الغزيرة الثرثارة، نتأمل العشب الميّار على جنباتها فيتراءى لنا بلونه الأخضر الصارخ كصيحة حادة تمزّق سكون الليل.

ها نحن الآن في رحاب حقل من القمح، تطلّ السماء علينا وكأنها تنحدر على رؤوسنا فتتراقص النجوم أمام مآقينا. ثمة صمت جليل لايعكر صفوه سوى وجودنا نحن والشهب المتساقطة من السماء.

قال المعلم:

ـ هل تريدون أن نمكث هنا حتى بزوغ الشمس؟

(32) نهر أرادزاني: التسمية الأرمنية لنهر الفرات الشرقي (مراد صو) الذي ينبع من جبال طوروس ويسير في سهل خاربيرت قبل التقائه بنهر الفرات الغربي (قره صو).

توقفنا عن المسير فشعَرنا أن نطاق السكون قد ازداد من حولنا حتى خُيِّل إلينا أن السماء باتت قريبة منا أكثر من أي وقت مضى. فارتمينا على سنابل القمح وكان الطقس صحواً صافياً لايضاهيه في ذلك سوى عذوبة المياه في السواقي. والسكون العميق لايزال مخيّماً. لاصوت، لاهمسة غير أنفاس الرفاق النائمين وتنهّدات السنابل الذهبية.

تمنيت أن يبقى كل شيء على حاله ـ السماء بنجومها والأرض بسنابلها والسكون بزرقته الصافية.

ظهرتْ بغتة ـ من حيث لاأدري ـ غمامة بيضاء صغيرة شفافة، لايزيد حجمها عن حجم دثار صغير، أخذت تضطرب في بحر الضباب البنفسجي حتى تناثرت أشلاؤها وانحلَّ ماتبقى منها مثل حلم من الأحلام. شعرت بأجفاني تطبق ولكنني بقيت مسهّداً أترقب شمس الصباح.

فجأة علا صوت رفاقي. ففتحت عيني ورأيت الشمس وهي تعوم في لجَّة السنابل، تبث في الروض روائح طيبة كانت حتى وقتئذ دفينة في أحضان الليل. وبرزت إلى الوجود ألوان جديدة. رفَّت آلاف العصافير محلقة في الفضاء. وهكذا مع انبلاج نور يوم جديد تحرر كل شيء من غفوة الليل.

* * *

كان جارنا آليك آغا يقف أمام باب داره مساء كل يوم، يدسّ يديه في جيوبه ويراقب المارة دون أن يتحرك من مكانه. كان الكثير منهم يبادرونه بالتحية ولكنه يكاد لايرد عليهم إلّا بغمزة عين.

كان قد نيف على الخامسة والأربعين دون أن يتزوج، ولكن موضوع زواجه كان مثار حديث العامَّة في الحي بأسره. يُحكى أن والديه قد

توفيا منذ مايقرب العشرين عاماً، بعد أن حاولا جاهدَين أن يوفقا في تزويجه ولكن لم يرغب أحد أن يزوّجه ابنته.

لم يكن آليك آغا يعاقر الخمر ولم يكن عصبي المزاج أو فقير الحال، وإنَّما امتاز بالطبع الهادئ والوداعة إلى حد كانوا يشبهونه بالبقرة الوديعة التي يملكها.

على الرغم من تلك الطباع التي اعتادت الأمهات تقديرها لدى المتقدمين لخطبة بناتهن، فقد كان آليك آغا يعاني من مشكلة تتمثَّل في تعابير وجهه التي كانت تزرع الخوف في قلوب الأطفال ليلاً، بل أن البعض من معارفه المقربين كانوا يرتعدون من مظهره. وكل هذا يرجع إلى لحيته السوداء الطويلة التي أضفت عليه منظراً مخيفاً. وبسبب تلك اللحية لم يقدر آليك آغا أن يجد له زوجة مناسبة في هذه الدنيا تكون عزاء للروح والجسد كما يقال.

لم يكن هذا الأمر يبعث في نفسه الأسى لأنه كان ـ كما يبدو ـ قد اهتدى إلى ضرب من ضروب الحكمة المجزية بذاك الخصوص، ولكن لامذهب من مذاهب الفلسفة كان ليمنح سكينة البال لشقيقته اسكوهي التي تصغره بخمس سنوات.

كان العرف السائد في ذلك الزمان لايقرّ الزواج للأخت قبل زواج أخيها الأكبر.

ـ كيف يمكن للأخت أن ترتمي في أحضان زوجها وأخوها بعد من غير حضن دافئ ـ هذا هو التعليل الذي كان الناس يقدمونه في ذلك الزمان. إقدام الأخ الأكبر على الزواج هو السبيل الوحيد لكي يُغتفر لشقيقته الصغيرة تفكيرها بالزواج.

حين كانت اسكوهي شابة في مقتبل العمر لم ترفع صوت مناهضة،

ولكن حين بلغت الأربعين، لم يعد يجدي معها أي تبرير فلسفي، رغم أن آليك آغا والأهل المقربين كانوا قد عدلوا عن رأيهم وأبدوا موافقتهم على زواج الأخت الصغرى دون أن يكون ذلك مرهوناً بزواج أخيها.

ولكن من كان ليكترث بها الآن، وهكذا بقيت اسكوهي دون زواج ومع مرور الأيام راح نوع من العنف المكبوت يتفجّر فيها، لون من الشراسة التي تميّز العذراء المتقدمة في السنّ.

ترتفع أصوات الضوضاء والصياح وتكسُّر الأطباق. ومن بين ذلك يُسمَع صوت آليك آغا بنبرته الهادئة وهو يقول «مهلاً، مهلاً، عيب أن تفعلي هذا».

ولكن بالنّسبة لإسكوهي لم يكن قد تبقّى شيء مما يمكن أن يثير حياءها. لقد جاءت إلى هذه الدنيا وشبّت وبلغت من العمر أشدها ثم تقدمت في السنّ ولكن لاأحد قد ضمّها إلى صدره بعد. فأي نوع من العيب يتوجّب عليها أن تحسب له حساباً بعد الآن.

بام.. ويهوي الطبق مع كل مافيه على رأس آليك آغا وتتلطّخ لحيته بالشحم.

هكذا مضى الشقيقان العازبان يعيشان معاً في البيت الواسع المهجور، يسيئان معاملة بعضهما البعض. فرغم مايتمتع به آليك آغا من رقة ودعة في معاملة الآخرين إلّا أنه في الوقت نفسه كان يتصف بجملة من الصّفات ذات الطابع القاسي العنيد.

كانت اسكوهي تصبّ غضبها على البقرة حينما تطلق خوارها المتواصل في الربيع. فيتهيّأ آليك آغا لاصطحاب البقرة إلى الضيعة كي يخمد هدير خوارها. ولم تكن اسكوهي تكتفي بركل البقرة أو إطلاق اللعنات عليها وإنّما تذهب إلى خزانة الأواني المطبخية وتتلقف بعضاً من

الأطباق العتيقة والنفيسة تطرحها أرضاً إمعاناً في تحطيمها. فهذا أسلوبها في استنشاد الراحة.

حين يشهد آليك آغا ذلك كان يخاطبها بهدوء قائلاً:

ـ حسناً فعلتِ، لقد ارتحتِ.

وفي اليوم التالي يصطحب معه البقرة إلى الضيعة ويتركها هناك لترتاح من توترها الجنسي ثم يعود بها ثانية.

* * *

لم يكن آليك آغا هو العازب الوحيد المتقدم في السنّ في حيّنا. فعلى بُعد بضعة دور من منزله كان يقيم الحاج صوغومون. في كل مرة يدور الحديث حول آليك آغا لم يكن الحاج صوغومون يتفوّه بأكثر من «آليك، شأنه كشأني، حمار مثلي».

كان الحاج صوغومون قد نيف على الأربعين واشتعل الشيب في شعره. كان رجلاً ساذجاً على العموم ذا عينين زائغتين، يكسب قوت يومه بإصلاح سروج الحمير.

أمّا سبب تأخره في الزواج فيرجع إلى وضعه العائلي. كان قد بلغ درجة من النضج حينما توفي والده، ثم مضت عدة سنوات أخرى وانتقلت والدته إلى رحمة الله. وبعد سنتين من وفاتها كادت عمته تفلح في إقناعه بحسنات الزواج ولكنه ابتلي بالحبس. وبعد خروجه من السجن صار حبيس أفكار الشؤم. وهكذا مضت السنون واستفحل الشيب في رأسه ثم أخذ يسعل بعض الشيء. عند ذاك توصل هو وكل من حوله إلى قناعةٍ بأنه يجب عدم تأجيل مسألة زواجه أكثر من ذلك. وهكذا تزوج الحاج صوغومون.

كان من العادات الدارجة في ذلك الزمان أنه عندما ينصرف

الضيوف بعد حفل العرس ويختلي العريس بعروسه في حجرتهما، يتجمّع المراهقون من أبناء الحيّ الذين تتراوح أعمارهم مابين العاشرة والسادسة عشرة تحت نافذة العروسين ويشرعون في إطلاق دعابات قاسية مريرة.

كان الواحد منهم يحضر معه من الأدوات والأواني مايمكن أن تُصدر أكثر الأصوات نشازاً. فمنهم من كان يأتي ببرميل فارغ أو صفيحة محروقات وآخرون يجلبون معهم أجراساً صغيرة أو طبلاً أو بوقاً، والغالبية تكتفي بقطعتين من الخشب المسوَّى أو الحديد المستطرق. وتقتصر مشاركة البعض على مجرد افتعال الصخب وإطلاق الصيحات والركض والوثب. وهناك مجموعة لاتقوم سوى بتأجيج نار الدعابة. ينضم كلاب الحيّ أيضاً إلى هذه الجموع، فالأمر سيان لهم لأنهم سينبحون ويعوون حتى طلوع الفجر، فمن الأفضل لهم والحالة هذه أن يختلطوا مع رفقاء النهار الأشقياء.

بعد أن غادر الضيوف حديقة الدار في الساعة الثانية عشرة ليلاً (وكان الحفل قد أُقيم في العراء لأن الفصل كان صيفاً) أُضيء القنديل في حجرة الحاج صوغومون وامتدت يد لتحكم إغلاق الستار.

تجمّع الأولاد تحت النافذة وعلا صوت ضجيجهم الذي كان في حقيقة الأمر صخباً وحشياً عنيفاً لايعرف الرفق، وقد أيقظ سكان الحيّ أجمعين فنهضوا من فراشهم الممدود على أسطحة المنازل واصطفوا بملابس النوم على امتداد الأفاريز.

كلما كان الضجيج يركن إلى الهمود بعض الشيء حتى يشتد ثانية وينطلق بصورة أكثر نشازاً وذلك بتشجيع جموع الناس الذين راحوا يثيرون حماس الصبية بتعليقاتهم المحرّضة.

ـ يا حاج صوغومون... ـ يصيح أحد الصبية بنغمة ممطوطة. ويلقى نداؤه صدى لدى المردِّدين. يعقب ذلك صوت موسيقا نشاز هو مزيج من صوت البرميل وصفيحة التنك وألواح الخشب وقضبان الحديد، يضاف إليه أصوات الطبل والبوق، فيما يمضي المنادي بنغمته الممطوطة:

ـ الحاج صوغومون قد تزوّج... ويردِّد الحضور العبارة من ورائه بالنغمة الممطوطة نفسها. ومرة أخرى يستشري في الجموع صخب مقيت.

كان هذا المشهد مما يعتبره العرسان مألوفاً وطبيعياً فيتقبلان الواقع دون تذمّر ويلتفتان في الليل لإحياء فجر حياة جديدة. ولكن الحاج صوغومون لم يطق صبراً وفتح نافذة حجرته وخرج على الناس بلباس النوم متدلياً من النافذة حتى مستوى خصره، يكيل لهم الشتائم:

ـ ألا تخجلون؟ ماذا دهاكم؟ هيا، عودوا من حيث جئتم يا أولاد الزنا، لتروا أن أباءَكم أيضاً ينامون مع أمهاتكم...

كان صوته عالياً جداً فانتابته نوبة سعال سبَّبت بحّة في حنجرته. صفق درفتي النافذة متقهقراً إلى حجرته دون أن يتمكن من اتمام جملته. تعالت أصوات جلبة وقهقهات على أسطحة المنازل.

ـ أواه، يا له من أحمق مغفّل، لم يتمالك نفسه. لماذا خرجت إلى الناس. عد إلى حضن زوجتك.

أمّا جماعة المستهترين فقد أطلقت العنان لصخبها الجامح من جديد وبانفعال متجدّد، مما أوصل الحاج صوغومون إلى ذروة عصبيته. فعاد ليواجههم. فتح نافذته وقال بجدية تامة:

ـ أقول لكم ابتعدوا.

ـ الحاج صوغومون قد تزوّج ـ صاح أحدهم بالنغمة المعهودة وردَّدَ الآخرون من بعده ـ الحاج صوغومون قد تزوَّج.

فردّ عليهم:

ـ نعم، الحاج صوغومون قد تزوج. من أنتم كي تتحكموا بمزاج الحاج صوغومون، يا أولاد الزنا؟ ماذا أقول لكم يا أوغاد عن أهاليكم؟ ـ ولاحظ الحضور أن هناك يداً في الظلام تحاول أن تشده إلى الداخل وترجوه بصوت مكتوم:

ـ ياصوغومون آغا، دعهم وشأنهم، سيضجرون وينصرفون.

ـ دعيني يا بنت ـ صاح الحاج صوغومون قبل أن ينسحب.

أُضيف إلى الهرج والمرج القائم على أسطحة المنازل تعليقات أخرى لاذعة:

ـ هيه، يا حاج صوغومون، لنرَ إن كنت ستنام الليلة.

ـ شيء لايصدق، امرأة في ذمّة الحاج صوغومون.

ـ لاشك أنه سيتفنَّن في صنع سرج خاص بها.

ـ ويحك يا حاج صوغومون، اشتهيت أن تتزوج، أليس كذلك؟

ومرة أُخرى يختلط الحابل بالنابل وتتوالى كلمات المزاح المثقل بأصوات كل ماهنالك من أدوات من طبل وأخشاب وصفائح تنك وقطع حديد وأبواق، مع مايعني كل ذلك من ضوضاء وزعيق وبعيق.

وقف أحد الصبية وسط الحشد. كان بدين الهيئة، قصير القامة، ذا شعر كثّ وصوت أجشّ وعينين لامعتين مشاكستين، وقد لاحت في ضوء القمر ابتسامة الغدر على شفتيه الغليظتين. أعلن على الملأ.

ـ يا أولاد، يبدو أن الحاج صوغومون قد خلد إلى النوم، دعونا نصعد إليه.

وفي الحال وثب بعضهم وشرعوا يتسلّقون الجدار وما أن بلغ أولهم النافذة وأخذ يدق على خشبتها حتى أسرع الحاج صوغومون إلى فتحها وتوجيه لكمة إليه بقبضة يده جعلته يتدحرج إلى الأسفل. لم يُصب بأذى ولكن وقوعه أهاج الجمع ودفعهم إلى المزيد من المقارعة.

وفجأة وعلى حين غرّة ظهر الحاج صوغومون في عرض الشارع بملابسه البيضاء الداخلية وراح يوجه الضربات يمنة ويسرة، فتبعثرت جماعة الأولاد هنا وهناك، ولكن الحاج صوغومون تمكن من وضع يده على أحد الصبية وطرَحه أرضاً تحت قدميه وطفق يوجه إليه الركلات حتى انقطعت أنفاس الصغير.

أطلّت العروس من النافذة متدثرة بلحاف أبيض مشدود على رأسها وراحت تنوح بصوت مفجع:

ـ يا صوغومون آغا، أتوسل إليك، عد إلى الداخل.

ولكن الحاج صوغومون لم يكن مستعداً لتلبية ندائها، إذ كان منكباً على تسديد الركلات إلى الولد البائس الذي خمدت أنفاسه.

قفز بعض الرجال من أسطحة المنازل وأمسكوا به:

ـ ألا تخجل من نفسك يا حمار، ماذا ستقول إذا مات الولد؟

ـ ليمت ميتة الكلاب، أنا أيضاً رجل مثل سائر الرجال.

صبّوا قليلاً من الماء على وجه الطفل ولكن دون جدوى. كان قد فارق الحياة.

جاء رجال الدرك وقبضوا على الحاج صوغومون وأخذوه معهم كما هو بملابسه البيضاء الداخلية.

تفرّق الناس وخيم سكون عميق لايتخلّله سوى نحيب العروس التي كانت تندب حظها طوال الليل وتقول «لم يكتمل زفافي». وكانت إحدى الجارات تعزّيها قائلة:

ـ وليكن. غداً تتزوجين من جديد. لنحمد الله أنه لم يحدث شيء مما لايحمد عقباه.

وهكذا لم يُكتب للحاج صوغومون الدخول من عتبة الحياة الزوجية ومكثت عروسه تنتظره عدة أيام في منزله برفقة خالتها وأخيراً عادت إلى بيت أهلها.

وأخذ الجيران يقولون:

ـ المسكينة، عادت إلى بيت أهلها كما خرجت منه.

* * *

كانت الشمس قد قاربت على المغيب ولكن دبيب الناس في الشارع لم ينقطع. الطقس ربيعي دافئ والقمر يلوح في الأفق. كنت ألعب في الشارع حين شعرت فجأة بحركة غير اعتيادية من حولي، حيث راح المارة يتهافتون من كل صوب على ركن من أركان الشارع كما يتهافت الدجاج على الحبّ. ساد المجتمعين صمت عميق بل إن شيئاً من القلق بدأ يظهر جلياً على قسمات وجوههم. ركضت نحوهم ورأيت أن عنصرين من الدرك قد أحاطا بجارنا نيشان آغا، يجرّانه أمامهما وهو يقاومهما بكل ما أوتي من قوة. كان يحمل على كتفه سلة ضخمة يبدو أنها كانت ثقيلة جداً إذ احدودب ظهره تحت وطأتها وانتفخت أوداجه. فسأله أحد العنصرين:

ـ ماذا تخبِّئ في السلة؟

فأجاب نيشان آغا على الفور.

ـ عنب.

أخذ الدركيّان يحكمان الخناق عليه، فأي نوع من العنب هذا الذي يؤكل في الربيع؟ من المؤكد أن نيشان آغا قد أخطأ الجواب في غمرة ارتباكه، ولكنه حاول أن يتدارك خطأه فقال:

ـ إنه عنب مجفَّف، زبيب.

راح الدركيّان يلحّان عليه كي ينزل السلّة ويكشف الغطاء.

أسرع الناس بالانفضاض عن نيشان آغا. فالأمر واضح. لابد أنه ينقل ذخيرة من الطلقات من مكان إلى آخر وقد وقع الآن في يد الدرك ومصيره هو السجن أو النَّفي أو ربَّما الاعدام شنقاً.

ـ هيا، ضع السلة على الأرض واكشف الغطاء عنها.

قاومهما نيشان آغا وسع استطاعته ثم راح يناشدهما ويتوسل إليها:

ـ حسناً، سأرفع الغطاء، لكن اسمحا لي فقط أن أحمل السلة إلى البيت واكشف الغطاء عنها هناك أمامكما.

ولكن الدّركيين لم يتزحزحا عن موقفهما. وكيف ذلك وهما قد نجحا لتوّهما في ضبط عمل معادٍ للحكومة ويريدان أن يعطيا للواقعة أهميّة كبيرة ولابد أنهما سيُكافآن على جهدهما من قبل السلطات المستبدة.

التفت نيشان آغا نحو جموع الناس ملتمساً الشفاعة من كل فرد منهم، ولكن لاأحد يريد التدخل لأن الخوف مسيطر على القلوب.

أرغمه الدركيان أخيراً بإنزال السلة على الأرض. عند ذاك سُمع أنين

حاد وعندما أُزيل الغطاء خرجت من السلة امرأة أخفت وجهها بيديها وراحت تنشج باكية.

أصاب الحشد المذعور فجأة اضطراب أهوج وارتسمت ابتسامات شيطانية على الوجوه وسُمع أحدهم وهو يقول:

ـ نيشان آغا ينقل العاهرات في سلة...

وانضم آخرون إلى إطلاق التعليقات:

ـ وهن لايحتملن البقاء في السلة...

ـ أواه، ياله من رجل رذيل، يخبئ عاهرة في سلة...

حاولت المرأة أن تفلت من الناس ولكن الدركيين ألقيا القبض عليها، وحاصر قسم من الناس نيشان آغا وقسم آخر المرأة وشرعوا يصفِّقون بأيديهم ويستهزئون بهما.

أفلت نيشان آغا من الحصار المفروض حوله وانطلق الناس في إثره وقد نسوا أمر المرأة. هاهو الآن يعدو هرباً من جموعهم التي كانت تردِّد:

ـ كان ينقل عاهرة في سلة حينما قبضوا عليه...

أطلق الدركيان سراح المرأة التي ولَّت هاربة كالناجية من لسع النار. توارت عن الأنظار ولم يتمكن أحد من معرفة مَن كانت وإلى أين اتجهت.

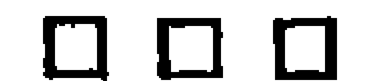
بلغ نيشان آغا عتبة داره ولكنه لم يحاول الدخول وإنَّما تجاوزها حتى يتفادى احتشاد الناس أمام الباب. تابع الحشد ملاحقته وسُمِعَت عبارات التهكم القاسية من جديد.

ولج نيشان آغا زقاقاً ضيقاً ثم انتقل إلى زقاق أوسع وجموع الناس

لاتزال تلاحقه. تعالت أصوات الحشد لأنه أصبح أكثر عدداً.

حين أدرك نيشان آغا أن لامفر أمامه عاد ثانية إلى شارعنا وانسلَّ إلى داره. تجمهرت الغوغاء أمام بابه. تناقلت الألسنة تفاصيل الخبر بمزيد من المبالغة وصار الحديث يدور حول أكثر من عاهرة واحدة.

ظل القوم يتصايحون مدة تربو على الساعة ثم انصرفوا إلى أعمالهم. لم يجرؤ نيشان آغا على الخروج من بيته إلَّا بعد عدة أيام. ويقال أنه صرح لأحد معارفه بقوله: «لقد غدوت مهزلة في طول المدينة وعرضها بسبب خمسين غراماً من اللحم».



11

كانت قوافل الجمال القادمة من بلاد الرافدين تمر من أمام دارنا وتمضي إلى سيواس والمراكز التجارية الأخرى في آسيا الصغرى، وفي الخريف، حين تختفي الحقول والبساتين في ربوعنا بتمام خصبها، تبدأ رحلة العودة إلى الصحارى المترامية الأطراف والمدن البابلية والعربية المزدهرة والغنية بالأحجار المتألقة ألق النجوم.

كانت الجمال تحمل إلينا التمور الطيبة المذاق من بلاد الجنوب. ومع وصول القوافل يعمّ النشاط في السوق وتصدح المدينة بأكملها على أنغام أجراسها وتزدان بنظرات الجِمال الرزينة العاقلة التي تملأ أصواتها المتوسلة الممدودة المنهكة أجواء المدينة.

تتميّز نظرات الجمال بالهدوء والسلام تماماً مثل سماء البادية، نظرات تأبى أن تفارق مخيلتنا حتى لو غابت القوافل عن مرأى بصرنا. كانت الجمال تجوب بصمت شوارع مدينتنا، تتفرّس في جدرانها بعيون اعتادت التطلّع إلى البعيد المطلق، باحثة عن ملاذ آمن في الأفق الهادئ، غير عابئة بجموع الأولاد التي تسير خلفها سعياً للحصول على وبرها الذي يصلح لحياكة الجوارب الشتوية.

يمر في الجوار جمل مزيَّن مثل عروس شرقية مزدان بعقود وخرز وكُسَار من الزجاج وأجراس متباينة النغمات وكساء حريريّ وضفائر صوفية منمّقة. إنه جمل صاحب القافلة الذي يصطحب معه أفراد

عائلته في رحلة يريهم فيها بلاد الشمال العجيبة.

على ظهر هذا الجمل السَّنِيم المزيَّن بشتى الزخارف يتسدَّى هودج تلفّه ستائر حريرية ملونة تنسدل متموجة على إيقاع حركته. تتوارى وجوه النساء خلف الحجاب الذي يستر وجه الواحدة منهن من أسفل الوجه حتى منتصف الأنف ومن أعلى الوجه حتى الحواجب، تأتلق عيونهن السود من ورائه مثل شمس الجنوب. وهن يتشدَّقن دون كلل فتتجاوب حركة فكوكهن مع ترنحات الناقة ويمضين في مضغ الطعام في سكينة وتراخ، يتأملن النوافذ وأسطحة المنازل والمارة من رجال ونساء، وقد غارت أجسادهن في بحر الوسائد الصغيرة ذات الألوان الباهرة والأشكال المستديرة.

إن لنساء البادية عيون حالمة تهزهزها الجمال ليل نهار على طول الدرب من بلاد بابل إلى مدن وقرى آسيا الصغرى.

* * *

ها هي القافلة تشد رحالها. لقد حان وقت الرحيل. يهبّ الجمل على قوائمه ويجيل النظر نحو الأفق الذي احتجبت معالمه. يهرع الخادم الأمين ويجلب سلماً صغيراً يسنده إلى ضلوع الجمل فيرتقي رب العائلة السلم ويصعد على ظهر الجمل ويركن إلى زوجته.

عناق.. رنين أجراس... إيقاع متهادي ودبيب حركة يؤذن بقرب الرحيل.

تسير القافلة ليل نهار ولاتتوقف إلّا عندما تقتضي الحاجة إنزال بعض المتاع ومقايضتها بأخرى أو بيعها ومن ثمّ التهيؤ للسفر من جديد. حين تقترب قافلة من هذه القوافل من مشارف مدينتنا نسمع هسبهسة أجراسها وطنينها العذب يتردد من بعيد تحت سماء مكتظة بالنجوم.

يتقلّب أولئك الذين لم تلفهم بعد غلالة النوم في مراقدهم على أنغام الجمال إلى أن تحطّ القافلة رحالها في إحدى ساحات المدينة أو تمضي بسبيلها دون توقف، عندها يتضاءل رنين الأجراس وتخمل في حضن سماء زرقاء منمّقة بالنجوم.

* * *

في إحدى الساحات المؤدية إلى حيّنا حطت إحدى القوافل رحالها منذ ما ينوف على الثلاثة الأيام. راحت تنبعث منها رائحة هي مزيج من وبر الجمال وعجين الخبز وجُبَب الجمّالين، وتعالت أصوات النوق المنهكة وتقاطعت نظراتها المسالمة. ضرب رجال القافلة في الأرض أوتاد خيام واطئة منسوجة من اللباد وأشعلوا مواقد نار في المساء. إنها حياة في غاية البساطة، يقوم الجمّالون بمدّ القوت إلى جمالهم ويداعبونها ويمسدونها دون كلل. وليس من عادة الجمّالين الاستغراق في ضحك عالي النبرات، إنّما يكتفون بابتسامة خفيفة باهتة شاحبة لاتكاد ترتسم على وجوههم السّمر حتى تتلاشى. ولكن ابن البادية يتميّز بنظرة لاهبة، متلألئة، طافحة بنور الشمس. له عينان بيّنتان دائمتا اليقظة، تحملان إلينا دفء الرمال وسكينة الصحراء.

ها قد انطلقت القافلة في رحلة العودة وضجّت الدنيا برغاء البعير الصارخ المستغيث والمفعم شوقاً. ولكن أحد الجمال عَقِرَ في مكانه، جثم على الأرض يأبى النهوض، وراح يحملق حواليه دون أن يبدر منه أي تصرف آخر.

اجتمع رجال القافلة حوله وأمعنوا النظر في أعماق عينيه وأدركوا ما يختلج في نفسه ـ لقد استعند الجمل. شحب وجه الجمّال، الذي يطعمه ويعتني به، تحسّباً من غضب صاحب القافلة.

يبدو أن الجمل قد استاء من سوء معاملة بعض الناس له.

عاد صاحب القافلة إلى الجمل وأمر الجمّال قائلاً:

- ابق معه حتى يزول عناده، ثم الحق بنا.

انصاع الجمّال لأوامره وعلا صليل الأجراس من جديد. أدار الجمل العاند رقبته صوب القافلة المبتعدة وحدّق نحوها طويلاً ثم أطلق نداء استنجاد ممدود جعل صاحب القافلة يوقف سير القافلة برمتها - لعل الجمل لايريد الفراق عن الإبل - ولكن دون جدوى، فالجمل ظلّ راقداً على الأرض لايجنح إلى النهوض. تابعت القافلة طريقها إلى بلاد الرافدين وإلى الصحارى البابلية والعربية.

بسط صاحب الجمل المعاند جبّته على الأرض بجانب الجمل وتدثّر بعبّاءته وغطّ في سبات عميق والأمل يساوره بأنه إلى حين استيقاظه سيكون قلب الجمل قد لان ونسى حقده، فيتمكن من اللحاق بالقافلة في وقت متأخر من الليل.

مضت أيام والجمل متشبّث بعناده البهيمي والجمّال قد أضناه التعب لكثرة مابذل من جهد في ملاطفته. لقد تحجّر قلب الجمل وبات كالصخر الذي يوجد بوفرة في بلادنا[33].

بدأ برد الخريف يثير الخوف في نفس الجمّال الجنوبيّ هذا ولم يتبقّ من زاده إلّا اليسير، وهو الذي لايعرف أحداً في تلك البلاد كي يطلب العون. أخذ يقتات من الزاد العجيني الطري المحضّر للجمل وراح يشير إلى الأولاد الذين كانوا يجتثون نُتَف الوبر من ظهر الجمل بأنه سيقدم لهم الوبر بنفسه إذا هم أعطوه خبزاً.

(33) تسمّى أرمينيا «بلاد الصخر والحجر» عند الشعراء والكتاب الأرمن.

خلال عدة أيام تجرّد الجمل تماماً من وبره، إذ باع الجمال كل ماعليه. وبدأ بطل الصحراء ذاك يكابد شدة البرد مثل صاحبه. لم يبق من الوبر مايصلح مقايضته بالخبز ولاحت أيام التسوّل على الأبواب. بدأ أولاد الحي يحملون الخبز وبقايا الطعام إلى الجمّال في حين دأب هو على احتضانهم وتقبيلهم تعبيراً عن امتنانه.

قرر بعض الشبان الأشدّاء مد يد العون إلى ابن البادية.

ـ لو قام الجمل مرة واحدة فقط لانطلق بنَفَس واحد إلى عمق الصحراء ـ راودتهم فكرة، فأتوا بعارضتين وزجُّوا بهما بصعوبة بالغة بين قوائم الجمل الرابض وشرع عشرون شخصاً منهم في رفعه.

نَضْنَضَ الجمل واشتد هديره وجعجَعَ متوسلاً وانتصب واقفاً على قوائمه، فعمَّت البهجة في القلوب. ولم يعرف ابن البادية كيف يعبر عن فرحته فلجأ إلى ابتسامته الخفيفة وطفق يعانق الناس يمنةً ويسرةً. ولكن بعد دقيقة أو اثنتين ترنَّح الجمل أماماً وخلفاً واتكأ على ركبتيه وبرك على الأرض من جديد. وعاد الحزن يلفّ ابن البادية. وقال الجميع:

ـ يا له من حيوان عنود.

بدأَت أولى نتف الثلج تتساقط على البلاد متلاشية قبل وصولها إلى الأرض، وحين أخذ الثلج يوشي أثوابنا السود رأينا في رسوماتها أعمالاً طبيعية تفوق أكثر الأعمال التطريزية رقة. كنا نتأمَّل الثلج فلا يسعنا إلَّا أن نبتهج ولكن زخات الثلج الأولى تلك كانت تروِّع ابن البادية. كان الجمل أيضاً يحملق في ندف الثلج العجيبة وحين تحط على أهدابه ندفة كبيرة يطبق أجفانه ويهزّ رأسه بحركة عصبية.

ركع الجمّال أمام الجمل وقد تدثَّر بعباءَته ودفعه يأسه المرير إلى البكاء لأول مرة. كنا قد وصلنا إليه حاملين بعض الخبز ولكن ابن البادية

المتضور جوعاً لم يعد يعير الخبز أي اهتمام. جادت عيناه بالدموع في الأخدود المرتسم على طرفي أنفه، متوارياً في تشعبات شواربه ولحيته، دموع أحرقت أجفانه رغم حبات الثلج. راح الجمل يحدّق النظر في وجه صاحبه متفرساً في أعماق عينيه، متأملاً دموعه، يبادله الجمّال في ذلك بنظرات تشق طريقها عبر دموعه لتستقر في عيني الجمل، وتنسكب الدموع الساخنة لتحرق الأجفان من جديد.

اختلط ابتهاجنا الغامر لسقوط الثلج برثاء ابن البادية المفجع وفجأة مدّ الجمل عنقه واشرأبَّ إلى صاحبه حتى اختلطت أنفاسهما وأطلق صرخات مستجيرة وتحرك للنهوض من مرقده.

صحنا جميعاً: قام الجمل... قام الجمل.

كفكف الجمّال دمعه وجمع الخبز الذي أتيناه به وسفع بالسرج وأحال على ظهر الجمل وانطلق نحو الصحراء باشاً مبتسماً. ازدحم الناس على طرفي الطريق ينظرون إلى الجمل العنيد الذي كان يخطر مترنحاً ويطلق هديره المستغيث واضعاً الأفق البعيد، البعيد جداً، نصب عينيه.

كان الجمّال يحيّي الجموع الواقفة في الشارع ويلتقط قطع النقود التي يرمونها إليه ويحشو الخرج بكسرات الخبز وينطلق نحو شمس الجنوب ورمالها. وهكذا ابتعد الجمّال عن بلادنا في الوقت الذي كان الشتاء الجائر يدق الأبواب بعد انصرام الخريف بأوراقه الصفر الصدئة.

* * *

كان الخريف يتريَّث كثيراً قبل أن ينأى عن بلادنا ويتلكأ في رحيله حتى تموش نساء العائلات المعوزة ما تبقى من عنب بعد القطاف وتنضج أنواع المربّى المعروضة على الأسطحة تحت الشمس.

في هذا الوقت من العام بالذات كنا نشعر بأن للشمس وجه آخر يتّسم بالمودة، وتكسو أشجار حديقتنا بلون أصهب ضارب إلى الحمرة الشارقة، تنحدر أوراقها الضخمة وكأنها أكفٌّ مبسطة تتمايل متقاعسة في الهواء، تضاء بأشعة الشمس فتبدو مثل ألسنة نار متطايرة من أتون حريق هائل.

وينشب صراع عنيف بين ريح الخريف ووهج الشمس، تُخلي في نهايته الشمس الجبّارة موقعها أمام الريح التي لاتلبث أن تتّخذ رويداً رويداً شكل عاصفة ثلجية ضارية. يحل الشتاء القاسي الطويل الأمد وينهمر الثلج على هيئة حبات بالغة الضخامة بحجم ورق الشجر فيتراكم في الشوارع ثم تعلو سويّته حتى تغطي النوافذ فتُطمر البيوت وتنسدّ الأبواب ويكاد الشارع يستوي مع سطح الدار مسهِّلاً بذلك السير إليه مباشرة ومن هناك إلى الطابق السفلي نزولاً من الدرج.

عندما يكفّ الثلج عن التساقط يكون قد طغى تماماً على الشوارع فيحلّ البرد القارس ويتكثف الثلج ويجمد ويُسمَعَ صوت انسحاقه تحت أقدام المارة. ولايبق هناك داع للإطلال من النوافذ من أجل معرفة عدد المارين في الشارع ـ فالنوافذ تكون مغطاة أصلاً بالثلج الكثيف ـ إنّما يمكن الاستدلال على ذلك من وقع الأقدام، بل من الممكن التعرّف على الجيران من صوت أقدامهم.

يمر أحدهم في وقت متأخر من الليل. فتتعرَّف عليه والدتي في الحال من صوت أقدامه.

ـ إنّه كيراكوس آغا ـ تقول ـ أين تراه ذاهب في مثل هذا الوقت؟ أرجو أن لايتعلق الأمر بمرض. فهذا الرجل لم يغادر بيته في مثل هذا

الوقت منذ ثلاثين عاماً. لابد أن شيئاً ما قد حصل.

أول ماتقوم به والدتي في صباح اليوم التالي أن تبعث أحد الخدم إلى دار كيراكوس آغا لتستفسر عما يمكن أن يكون قد حدث في منتصف الليلة المنقضية. يعود الخادم ويخبرها:

ـ أنَّ الرجل يبعث سلاماً ويقول إنه لم يقع ما يستدعي القلق فالطفل أصابه مغص في بطنه فجاء إليه بالدواء.

فتطمئن والدتي لأن الأمر لايتعلق بوفاة. لاشيء يقلقها قدر الوفاة. وكانت تقول:

ـ إذا مات أحدهم فلا شفاء يُرتجى. كل شيء يمكن أن يعوَّض يكفي أن لايكون هناك موت.

كانت الثلوج والعواصف تدوم ثلاثة أشهر تنشغل خلالها العائلات المعدمة التي تقطن في حيّنا بنسل ألياف القطن عن بذورها، أمّا العائلات الميسورة فتتسلى بالتهام المأكولات على الدوام، فتنتفخ أجسادهم بغير تناسق وتتدلى جيوب الشحم من الرقاب ويصيب حركاتهم تباطؤ وتبلُّد مشوب بالنعاس وتخلو أحاديثهم من أي اجتهاد، يرطنون الكلمات بلوي الثّغور ويطلقون القهقهات السخيفة ويغطّون في نوم عميق. حين ينهضون من رقادهم لاهمّ لهم سوى احتشاء المزيد من الطعام ثم العودة إلى سلطان النوم. تظهر إضافة إلى الانتفاخات الشحمية المنشأ انتفاخات من نوع آخر، تلك المتعلقة بالحمل، تكتسب عند منتصف الشتاء مظاهر واضحة للعيان إلى حد فاضح.

في أواسط الشتاء كانت النساء من عائلتي يمتلئن على هذا النحو ويتَّخذن شكلاً مكوراً، يكثرن من تناول الحوامض، يأكلن طعامهن خلسة دون أن يراهن أحد. بعد فترة وجيزة تخلص إلى أسماعنا ـ من

مواقع خفية في أركان الدار ـ تأوهات أوجاع الوضع، فتعمّ الجلبة بين معشر النساء، يتبع ذلك صراخ الأطفال الحديثي الولادة الذي يصدر من كل حجرة ومن كل زاوية من زوايا الدار. ويغدو من الصعب اجتياز حجرة المطبخ لكثرة ماتنشر على حبالها المشدودة من ملابس أطفالٍ. هذه الحبال لاتتجرّد من أحمالها طوال الأشهر الستة القادمة. الملابس تُغسَل وتُنشر دون توقف وفي كثير من الأحيان تتراكم فوق بعضها البعض بسبب قصر الحبال.

وهكذا تبدأ فترة يتميَّز فيها والدي بمزاجه العصبي. ففي الخارج ينهمر الثلج وتهب العواصف الثلجية، أمّا في الداخل فلا حدّ لزعيق الأطفال. يواظب والدي على السؤال اليومي نفسه.

ـ أي يوم من الشهر نحن اليوم؟

وعندما يكون الجواب «الثلاثون منه» يفرح كثيراً ويتمتم قائلاً:

ـ هذا الشهر أيضاً قد ولّى.

ويتهيأ للسفر إلى استانبول هرباً من صأصأة الرُّضَّع. وقبل أن يمضي في سفره كان يحضّر قائمة بأسمائهم حتى يتذكرهم جميعاً ويعود إليهم محملاً بالهدايا. كانت والدتي تبعث إليه بعد رحيله قائمة متمِّمَة تحوي أسماء المولودين الجدد. وأحياناً كانت ترسل إليه بقائمة مُبالغ فيها.

كانت تقول:

ـ الاستزادة خير وفائدة.

عند عودته يضع والدي في عهدتها صندوقاً من المشتريات ولايتدخل بعدئذٍ في التفاصيل. كان من عادة النسوة أن يأتينّ إليه مع أطفالهن ليقبّلن يده. فيقول والدي «أحسنت» لكل واحدة منهن ويقبّل

أطفالهن ولكن حين يرى أنه لانهاية لرتل الرضّع كان يتذمر ويقول:
ـ أوف، أوف، ألم يكن لديكن شيئاً آخر تفعلنه؟

* * *

كنا نملك كرمة في منطقة «أوفا ـ باغلار» وهي منطقة زراعية قريبة من المدينة فيها العديد من البساتين التي تجود عنباً ولوزاً. تقع أرضنا في موقع يكاد يتوسّط الكروم الأخرى.

في أواخر الخريف، عندما يحين القطاف، كان أصحاب الكروم ينتقلون إلى هناك مدة 10 ـ 15 يوماً، ينصبون فيها خيامهم البيضاء وينهمكون تماماً في عملية القطاف. ولشدة البرودة في الليالي كانوا يوقدون النيران في بساتينهم فتبدو جنائن «أوفا ـ باغلار» للناظر من سفح الجبال مثل فسحة من السماء اضطرمت فيها النيران من كل جهة.

كنا نرقص ونغنّي حول نار المخيّم وتتمتع الفتيات في تلك الأيام بحرية تسمح لهن بالرقص حول النار التي تستعرّ وتتلظّى حتى تصطلي وجوه الراقصين بلهيبها. خلال عدة أيام تلقى أغلب الفتيات البالغات من يخطبها. فبعد حمّى الرقص والغناء ولهيب النيران تحتدم النار في قلوب الشبان أيضاً. أولئك الذين يفلحون في الاستحواذ على مودة قلب يافع يتوارون عن الأنظار وراء الخمائل بعيداً عن النيران، يختبئون تحت الدوالي المثقلة بالعناقيد التي تزداد حلاوة واحمراراً، فتتوقّد في قلوبهم نار من نوع آخر... نار الحب الأبدي.

وفي حلكة الليل اللازوردي البارد وتحت ضوء القمر تتلاقى الشفاه وتسري في القلوب رعشة حبّ سرمدية. يشعر الشاب الذي يحتضن فتاته كأن الطبيعة برمّتها قد طوقته بذراعين من نار، كأنه يحمل بين يديه الطبيعة بكل ما أينعت من ثمار وأوتيت من أعذاق عنب لوحتها

الشمس. ها قد انطوى في أحضانه حقل مترامي الأطراف مفعم بعبير العشب النضر. فهذه الفتاة ليست هي «زاروهي» التي عرفها في السابق وإنَّما نار متأجّجة بين ذراعيه.

ـ لنرَ أين تواريا ـ يُسمع فجأة.

يجمد المراهقان في مكانهما وصدراهما متلاحمان وشفاههما منطبقة على بعضها البعض ـ إنهم الرفاق المشاكسون الذين انفضوا عن محيط النار ويريدون الآن أن يديروا مقالبَ للمراهقين الذين تواروا وراء أوراق وعناقيد العرائش.

يتضامُّ المراهقان بقوّة أكثر فأكثر فتتسم اللحظة هاتيك بالأبدية.

عندما ينتهي القطاف ويعود الناس إلى ديارهم، يلاحظ كبار السن أن ابنهم (أو ابنتهم) يبدي حماسة زائدة ويميل إلى الاهتمام بشعره مكثراً من تبليله وتمشيطه حتى يلمع مثل الكهرمان تحت تأثير النور. يبدو من الواضح تماماً أن الطبيعة بما تحمل من معاني الخصوبة والعطاء في الخريف قد مسَّت شغاف القلوب.

ولايمضي وقت طويل حتى يخرج أهل الفتى للقاء أهل الفتاة قاصدينهم في زيارة تتسم بالرسمية. في البدء لايعرف أحد سوى البنت عن غرض الزيارة. إذ تكون قد أُحيطت علماً بواسطة قصاصة ورق تركها الفتى على السطح يقول فيها «سيأتي أهلي إليكم مساءً ليطلبوك من أهلك. عندما تُسألين عن رأيك لاتخجلي، قولي إنك موافقة أيضاً».

ـ إذا كنتم تريدون أن تسمعوا رأينا فنحن موافقون، ولكن من الأجدر أن نسأل عن رأيها ـ هكذا يأتي جواب أهل الفتاة.

وفي وقت متأخر من الليل تبحث والدة الفتاة ـ ولاأحد غيرها ـ الموضوع مع ابنتها.

ـ يا ابنتي زاروك[34]، هناك من يطلب يدك، ما رأيك؟

فلا تقدر الفتاة على الإجابة. يستحوذ عليها خجل شديد وتتوقد وجنتاها وتهرب من أمام والدتها ضاحكةً. تبوح الأم بنتائج التشاور إلى زوجها الذي يقول:

ـ إيه، يبدو أن الوقت قد حان لتتزوج وتذهب إلى بيتها الجديد.

ومع بزوغ فجر اليوم التالي يكون كل شيء قد تبيَّن ولكنهم لايتعجلون في الردّ. العجالة قد تدل على أن البنت سهلة المنال. ويستغرق الرد في بعض الأحيان أكثر من شهر يوهمون خلاله أنهم يجتهدون في إقناع ابنتهم. ولكن ما أن يخلصوا إلى الرد النهائي حتى يقوم طرف الفتى بتقديم خاتم الخطبة دون تمهُّل دلالة منهم على رغبتهم في إتمام الأمور على أحسن شكل حباً بالفتاة التي اختاروها بأنفسهم.

قد يحدث أن جذوة الحب التي اشتعلت على جنبات الكرم، تحت مظلة السماء وعلى مرأى من القمر، لاتتماشى أبداً مع طبيعة العلاقات بين أهل الطرفين، فتتراكم الغيوم السود إيذاناً ببدء مأساة مؤسفة. ولايمكن لأي نوع من التوسّط أن يحيد الأهل عن موقفهم المعارض. فالعناد الصلب لايمكن تفتيته بسهولة. كيف ذلك وهم إضافة إلى شخصيتهم الأرمنية يتسمون بالعقلية الريفية.

وينتشر الخبر المفجع ـ لقد رمى الشاب بنفسه عن سطح الدار وتهشّمت جمجمته على الأرض الصلدة. ويعقب ذلك خبر آخر لايقل فجاعة. لقد تجرّعت الفتاة سمّاً كان قد حمله إليها الشاب بنفسه قبل أن ينفِّذ في نفسه حكم الموت.

□ □ □

(34) زاروك: صيغة التدليل لاسم العلَم «زاروهي».

12

لم يكن هناك وجود على الإطلاق لأية مؤسسة حكومية أو شعبية تُعنَى بالمعتوهين.

المعتوهون... كانت الشوارع تعجّ بأصناف كثيرة منهم، بعضهم قد جاء من الريف والبعض الآخر من مدن أخرى. الكثرة منهم كانوا فيما مضى أناساً عقلاء ثم منوا بلوثة في عقولهم ووجدوا أنفسهم خارج نطاق أسرهم.

ويتبادر إلى ذهني الآن بأن غالبيتهم كان من الممكن أن تُتاح لهم فرصة الشفاء، ولكنهم بعد أن وجدوا أنفسهم على قارعة الطريق وانسدَّت أمامهم أبواب الرعاية، تلاشت فرصهم في استرداد عافيتهم، وراحت جموع الأولاد والعابثين تلاحقهم وتستفزّ أعصابهم وتسبب لهم مزيداً من البلبلة في فوضى حياتهم النفسية. إنها عادات المجتمع الريفي المتّسم بالرياء، مجتمع لايتورع عن لفّ حبل المشنقة حول رقاب الناس من أجل أتفه الأسباب المتعلقة بالعادات البالية وباسم الحفاظ على ما يُدعى بالسلوك الأخلاقي القويم، ولكنه في الوقت نفسه يفتقر إلى الدوافع الأخلاقية لإظهار الشفقة ـ على أقل تقدير ـ تجاه هؤلاء التعساء. لقد كان هذا المجتمع المنافق يبتهج عندما يرى الأولاد والناس الجلَفاء يمارسون أعمالهم الشيطانية بحق المعتوهين.

* * *

أذكر السيد باغداسار وهو رجلٌ طويل ذو لحية كثة سوداء طويلة وحاجبين سوداوين عريضين. كان في الماضي معلمَ مدرسة قبل أن يستفحل جنونه اثر قصة حب أوصلته إلى طلب الزواج من ابنة أحد إداريي مجلس أمناء الكنيسة ولكنه قوبل بالرفض بحجة أنه «معلم مليء الرأس ولكنّه خاوي البطن»[35]. وها هو الآن يجوب الشوارع مرتدياً معطفاً فرنسياً أسود، ينظر حواليه مشدوهاً. يبدو أنه خائف من شيء ما.. وفجأة تراه يتقهقر ويهرب ـ ماذا رأى؟ لاأحد يعرف ولاأحد يريد أن يعرف.

ـ جاء السيد باغداسار.. ـ يصيح العابثون الجُلفاء.

ويرغي السيد باغداسار ويزبد وينفعل ويحرن كأنه فرس أسود أُطلق سراحه للتوّ، يلقي بين الفينة والأخرى نظرة إلى الوراء بعينين مذعورتين واجفتين، يهرب من شارع إلى آخر بمزيد من الانفعال والتخوف، تتابع حركاته جموع الناس في كل مكان ـ على عتبات الأبواب، وراء النوافذ، على أسطحة المنازل أو في حنايا الشوارع، تتألب عليه بكل فظاظة هاتفة:

ـ جاء السيد باغداسار.

ماذا كان يقتات هذا الرجل ـ السويّ فيما مضى ـ وأين كان يقضي لياليه؟ لاأحد يدري. أظافره تتقلّم من تلقاء ذاتها وذلك بتعرضها للكسر أمّا شعره فقد كان يطول ويطول باستمرار ويتّسخ ويتّخذ أشكالاً منفرة. إلى يومنا هذا تعتريني قشعريرة وأشعر بشعري ينتصب عندما أتذكره.

ولم يكن السيد باغداسار هو الوحيد من بني جنسه. كان هناك

(35) وهو من الأمثال الرائجة عند محدثي النعمة. يقولون أيضاً «العلم لايُطعم خبزاً».

مجنون من الرعايا الترك، رجل طيب القلب، يتمتع في حالته الطبيعية بصفات تبعث على الإرتياح. فقد كان يتقن الحديث حول شتى الموضوعات، ولكنه كان يثور في لمح البصر ويتحول إلى وحش كاسر، يحطِّم ويهشِّم كل مايجد أمامه. ويحدث ذلك كلما قال أحدهم «فِشت». أمَّا «فست» هذه فلا تعني شيئاً على الإطلاق، مجرّد لفظة هتافية. كان هذا المجنون يختلف عن السيد باغداسار فهو لم يكن مثيراً للشفقة وإنَّما كان الناس يهربون منه ذعراً وخوفاً. ولايعود إلى حالته الانبساطية إلَّا بعد أن يتسبَّب في أذية نفر من الناس بجروح خطيرة أو إطاحة أكوام الثمار المعروضة للبيع أمام المتاجر أو تحطيم زجاج المحلات. وبعد كل هذا تخفّ حدة جنونه ولكن وعلى حين غرّة، يعمد أحد أولئك الذين يجدون متعة في التهكّم بالناس إلى إطلاق صيحة «فِشت» من جديد فيتكرَّر المشهد نفسه ولكن بفصول أقسى وأشد إيلاماً.

كانت هناك فتاة ذات وجه ممسوخ وشعر أجعد قذر، ثوبها مشدود إلى الأعلى يكشف عن ساقين يكسوهما جلد متشقّق مسودّ. كانت تقف في وجه عابر السبيل وتقهقه بصوتٍ شيطاني نشاز ثم تشدّ ثوبها إلى أعلى كاشفة عن عورتها بشكل تهكّمي ساخر.

عندما يعود والدي إلى الدار ويرفض الاقتراب من الطعام نعرف أنه التقى بها في طريقه.

كان هناك مجنونٌ آخر، من عادته أن يختار شارعاً من الشوارع كل يوم يقف في نقطة معينة فيه، ينطلق منها إلى نقطة أخرى وهكذا يذرع المكان جيئةً وذهاباً دون توقف وهو مُغرَق في تفكير عميق، شابكاً يديه خلف ظهره، مرتاح البال تماماً، لايعير أدنى اهتمام لأصوات الناس من حوله. يعمد أحياناً إلى التوقف هُنيهة والتطلّع إلى امرأة مارّةٍ في الجوار

فيبتسم لها ابتسامة عارضة لاتخلو من تهكم، وبعد ذلك يغوص ثانية في بحر أفكاره ويعود إلى حركته المعتادة بطمأنينة بالغة.

لم يكن هذا المعتوه من سكان المدينة الأصليين. لاأحد يدري من أين أتى. كان قصير القامة، ممتلئ الجسم، متين البنية، مكوّر الهيئة، ذا وجنتين حمراوين وشعر أشقر. إذا تكرّم عليه أحدهم برغيف خبز كان يتقبله بكل رضىً وينادي على الكلاب ويفتّت لهم الرغيف بأكمله ويظل يراقبهم حتى ينهوا طعامهم وينصرفوا ثم يقطب حاجبيه ويغوص في أفكاره من جديد ويعود إلى مشيته المعتادة.

والمجانين تنوعت أشكالهم وكثرت أعدادهم وانتشر حضورهم ولكن لم يخطر ببال أحد أن يلمّ شملهم تحت سقف واحد ويقدم العناية لهم، فهذا أمر لم يعهدوه ولايشعرون بالحاجة إليه.

أذكر تماماً كيف أنه عندما جاء أحد المغتربين من أمريكا وقال أنه في تلك البلاد يجمعون البُلْه ويعتنون بهم في دور خاصة تشبه القصور استغرب الجميع من هذا الكلام وقالوا:

- يا له من بلد عجيب هذا الذي يسمونه أمريكا...

في يوم من الأيام دفع الغضب بوالدي إلى التصريح بأنه سيجنّ. تملكني الذعر وتخيلت في الحال أنه من الممكن أن يلقى المصير نفسه في الشارع.

المجانين... كم كان عددهم كبيراً.

كان هناك رجلٌ يبدو عاقلاً في الظاهر ولكن يا له من معتوه أخبل، ظل سبع سنوات يحتفظ بيديه مدسوستين في جيبيه مطويتين كالقبضة. ذات مرة اجتمع عليه عدد من الشبّان الأشداء وتمكنوا من إخراج يديه عنوة - كانت الأصابع قد أصابها العطن ونسجت غلالة قطنية حولها

كما تحدث للجثة في القبر. كانت ابنتاه وابنه الوحيد التعيس الحظ يتولون أمر إطعامه.

كان هناك مجنون آخر يعتلي كل يوم سطح أحد المنازل ويقعد على الإفريز محركاً ساقية في الفراغ مهدداً الناس بأنه سيرمي بنفسه من الأعلى. لم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب منه خوفاً من أن يقوم فعلاً بتنفيذ وعيده. إلى أن اختلّ توازنه ذات يوم وهوى من علو ثلاثة طوابق على أرض الشارع ورأيت كيف سال دماغه على الرصيف.

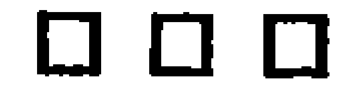
كان من الطبيعي أن يكون لبعض هؤلاء المجانين أسر وأقرباء ممن لايرضون أن يُترَك نسيبهم الأبله تحت رحمة الشارع لذلك كانوا يبقونه لديهم و«يعتنون» به في الدار. ولكن أي عناية هذه التي يقدّمونها له في الحقيقة؟ كانوا يُحكِمون ربطه ويأتون بشخصٍ قوي البنية عديم الرحمة، يحمل نسيبَهم التعس إلى قبو الدار ـ إلى حجرة الحطب أو الفحم ـ وينهال عليه ضرباً دون هوادة.

ـ غريب جداً أن يكون عقله غائباً عنه ـ يتساءَل «العقلاء».

وكانوا يكرمون الجلاد الأجير بأنواع الطعام والشراب فيشحذ همّته وينفذ مهمته على أكمل وجه.

ـ لاتنظروا إليَّ نظرة استخفاف ـ يصرّح الجلاد الأجير ـ أنا أعرف كيف أعيد إليه عقله ـ ويمضي إلى القبو بعزم ونشاط، فيملأُ العويل الوحشيّ المكان لأن حطباً كان يتكسّر على عظام الرجل البائس.

هذا هو المنهج «الطبي» الوحيد الذي كان متبعاً في ذلك العالم القديم الموغل في القدم.



13

ذات صيف ظهر في مدينتنا بغتة رجل عاري الساقين، حافي القدمين، حاسر الرأس، يرتدي ثوباً من جلد الثعلب لايكاد يصل إلى ركبتيه، يقبض في يده عصا طويلة تفوق قامته طولاً، تتدلى من إحدى ذراعيه حقيبة جلدية مسوّرة بسلسلة حديدية رفيعة. كان رجلاً أسمر البشرة ـ لعله من بلاد العرب أو الهند ـ ذا لحية خفيفة لطيفة المظهر مستدقة الطرف وشفتين حمراوين داميتين ووحمة على جبهته.

لم يكن هذا الرجل يتفوّه بكلمة وكل مايقوم به هو أن يسير بين جموع الناس ويجمع مالاً في حقيبته الجلدية. ولم يمض وقت طويل حتى شاع خبر يقول بأن عقدة لسانه ستحل بأمر من الله بعد مرور سبع سنوات من يومنا هذا، عندئذ سيبعث الله بواسطته وصيته الأخيرة إلى عباده.

إذا كان هذا الرجل لايقدر أصلاً على الكلام، فمن أين وكيف عُلِمَ الغموض المتعلق بحالة بكمه وصممه؟ لم يتكبد أحد مشقة إثارة هذا النوع من التساؤل.

بات هذا الرجل ـ الذي كان من المُعْتَقَد أنه آت من بلاد الجنوب ـ موضع احترام الناس أجمعين وتعاظم احترامهم له عندما أيقنوا أنه لايسعى إلى الفوز بنفع شخصي. فقد كان يستغني عن كل مالاتتسع له

حقيبته الصغيرة حتى لو كان شيئاً ثميناً. هكذا وجد الناس أنفسهم مضطرين إلى إجزائه نقداً ومنهم من وهب له نقوداً ذهبية.

كان يقضي الليل في المقبرة التركية داخل خيمة صغيرة مُضَاءَة بنور شحيح. ويقال إنه كان يتهجّد طوال الليل ولاينام أبداً، يمشي بين الناس نهاراً ولاينام ليلاً، ولاأحد يتساءَل كيف يمكن له أن يحيا. سبع سنوات كاملة لن يتفوّه بكلمة، سبع سنوات كاملة لن يُغمَض له جفن، سبع سنوات كاملة سينصرف خلالها للدعاء فقط ـ وبعد ذلك ستصغي البشرية جمعاء إلى كلمة الله الموعودة.

وفي كل يوم كان يعتلي مأذنة الجامع المرمرية ويحدق ساعة كاملة إلى السماء البعيدة عاقداً ذراعيه على صدره وممسكاً بعصاه. ويجتمع في الأسفل حشد كبير من الناس يراقبونه. فتبدأ شتى الأساطير بالذيوع ـ إنه يناجي الربّ، بل يقف إلى جواره تماماً ولكن البشرية الآثمة لاتبصر الحقيقة. كان الكثيرون منهم يمضون في تأويلاتهم إلى حد الإدّعاء بأن كل ماهو منظور منه ليس إلّا صورة عنه أما هو فقد صعد إلى الله وسيهبط بعد قليل.

ولكن البعض من شذاذ الآفاق لم يشاؤوا أن تنعم البشرية بفرصتها للإطلاع على كلمة الله التي ستحلّ بعد سنوات سبع وفي ليلة من الليالي ـ بعد أن حملتهم الظنون إلى الجزم بأنهم سيلقون أكداساً من النقود تحت جلد الثعلب الذي يرتديه ـ انقضوا عليه ونهبوا مالديه من مال.

لم يُلقَ القبض على اللصوص ولكن حكايتهم ذاعت في المدينة ومنها تبيَّن ـ من جملة ماتبيَّن ـ أن هذا الرجل الذي شاء الله أن يجعله أصماً أبكماً أذرَبَ في تلك الليلة وطفق يطلق جملة من السباب

والشتائم المروعة في وجه اللصوص الذين داهموه، كما انكبَّ - هذا الرجل الذي نذر نفسه لخدمة الرب - يجهد بكل ماأوتي من قوة كي تبقى الأموال في حوزته. وكان قد قايض ذلك الكمّ الهائل من النقود ذات الفئة الصغيرة التي جمعها بنقود ذهبية صرفة، ولم يجد اللصوص عنده أي نقد من الفئة الصغيرة.

منذ اليوم الذي تلى الحادثة اختفى كل أثر له في المدينة وهجرَنَا نهائياً، ولكن إلى أين ذهب وماذا حلّ به؟ لم يدر بذلك أحد.

* * *

وبهذا الخصوص سأسرد عليكم هنا تفاصيل حادثة بطلها شخصية أخرى مماثلة.

ذات يوم جاء إلى مدينتنا مواطن أمريكي من أهالي الولايات المتحدة يُدعى المستر جايكوب.

كان هذا المستر جايكوب مبشراً بروتستانتياً مهمته توزيع الروح القدس على الناس. نعم، لاأكثر ولا أقل - توزيع الروح القدس[36]. وكيف سبيله إلى ذلك؟ كان يدعو العامة من البروتستانت إلى المصَلّى ويلقي عليهم عظة باللغة الانكليزية (يتولى أحدهم الترجمة)، يردِّد بعدها الصلوات مغمض العينين ناشراً ذراعيه في الفراغ. وبعد الصلاة كان يدعو الحضور إلى الالتزام بالصمت الكامل بضع دقائق وأخيراً يعلن على الملأ.

(36) نزل الروح القدس على تلامذة السيد المسيح بعد خمسين يوماً من قيامته، راحوا إثر ذلك يتحدثون بسائر اللغات ويلقون العظات الحكيمة مما أدهش القوم حولهم. يُحتفل بذلك اليوم في التقويم المسيحي في عيد الخمسين أو العنصرة. أما تقبُّل أو تلقي الروح القدس عند عامة الأرمن فيعني التمتع بخصائص من القدسية والمهارات الدينية والدنيوية العظيمة وقد يأتي ذلك أحياناً من باب التهكم كما يبدو واضحاً في سياق القصة.

ـ لينهض على قدميه كل من تلقى الروح القدس.

في البدء كانت قلة من الناس هي التي تنهض ثم راح الناس ينهضون فرادى وزرافات. ولم يكن أحد يقدر على الاعراب عن مكنون شعوره لدى تلقيه «الروح القدس»، ورغم ذلك فقد كانوا ينتفضون واقفين بالجملة. كان كل الذين يتلقون الروح القدس يفرغون مافي جعبتهم من مال في خزينة المستر جايكوب وهي خزينة أوجدت خصيصاً لكي تعينه في بث الروح القدس في كل مكان.

انبرى من بين الرعايا البروتستانت بعضهم ممن أرادوا أن يضعوا حداً لهذه المهزلة ولكنهم لما لم يلقوا نصرة لجهودهم خضعوا في النهاية للأمر الواقع وسعوا هم أيضاً لتلقف الروح القدس. وغدا موضوع الروح القدس حديث أهل المدينة على مدار شهر كامل. كان من بين الرعايا البروتستانت جماعة ممن يتميّزون بالنفاق الشديد فقطعوا علاقاتهم مع أولئك الذين لم يتلقوا الروح القدس وأحجموا عن إلقاء السلام عليهم.

انتشرت حالات الطلاق والمشاكل العائلية المتنوعة وحالات الانفصال (كان يحدث أن يتقبّل الأبوان الروح القدس ولكن الأبناء يمتنعون عنها، يتقبلها الأشقّاء بينما تمتنع الشقيقات، يتقبلها الزوج ولاتتقبلها الزوجة أو العكس وهكذا).

كان الزوج المتقبّل للروح القدس يوصي زوجته:

ـ غداً ستذهبين لتلقّي الروح القدس، لاأُريدك أن تتململي في هذا الموضوع.

ويشتد وطيس النقاش فيلجأ الزوج أو الأخ المتقبّل لنعمة الروح القدس إلى رفع العصا أو فردة الحذاء وينهال ـ باسم الروح القدس أيضاً ـ ضرباً على الزوجة أو الأخت المناهضة للروح القدس.

أما أولئك الذين كانوا أول الأمر يسخرون من الذين تقبلوا الروح القدس وجدوا أنفسهم آخر المطاف يتقبلونها هم أيضاً وينضمون إلى صفوف الذين يهزأون بمن لايتقبّلها.

كان الذين يتقبلون الروح القدس لايعودون إلى ممارسة أعمالهم في دكاكينهم وذلك لتجنّب الإنهماك في غمار العمل الحِرَفي، ذلك لأن العمل في أية حرفة مهما بلغت من البساطة أو النزاهة كان بمثابة الضلوع في خطيئة ما. وهكذا بقي عدد كبير من المحال مغلقاً.

كان يحدث فجأة أن توجد أبواب أحد المحلات موصدة في صبيحة يوم ما بعد أن كانت مشرعة حتى يوم أمس. الأمر واضح. لقد تلقّى صاحبه الروح القدس. حين يرى أصحاب المحلات المجاورة أن الدكان لم يفتح أبوابه يقولون:

ـ لقد تلقى الروح القدس ابن الحمار..

ـ نعم، نعم، للأسف الشديد.

لاقت كوميديا الروح القدس رواجاً في أوساط البروتستانت إلى درجة بات من المعتاد أن يدق الواحد منهم باب أحد معارفه عند مروره بالجوار ويبادره بالسؤال:

ـ يا مراد آغا، هل تلقيت؟

ـ ماذا تقول؟ هل من المعقول أن أبقى حتى هذه اللحظة دون أن أكون قد تلقيت؟ أيها الحمار. ليسامحك الله، ليسامحك الله. مضت أيام ثمانية مذ تلقيت.

ـ أنا لم أتلقَّ بعد.

ـ اذن أذهب غداً لتتلقى على وجه السرعة، عار عليك يا مغفَّل.

تقبلت عمتي الصغرى ـ التي كانت متزوجة من رجل بروتستانتي ـ الروح القدس بعد ثلاثة أيام فقط من ظهور المستر جايكوب. فقد كانت ـ كما يحلو أن يقال ـ من أوائل المتلقيات. وعندما جاؤوا بالخبر إلى والدي، طلب منا أن نستدعيها. فقمنا بذلك ولكنها لم تستجب. جاء زوجها الذي قال:

ـ يا حاج أفندي، إنها تخاف أن تمثل أمامك.

ورد عليه والدي قائلاً:

ـ مانوع هذه الروح القدس التي تقبَّلَتْهَا وزرعت الخوف في قلبها؟

ثم أطلق شتيمة عنى بها المستر جايكوب، حَوَت من ظلال المعاني الشيء الكثير.

وأخيراً بقيت حفنة من الناس يعدّون على الأصابع ممن أصرُّوا على عدم تقبل الروح القدس. ومن أجل هؤلاء المعاندين ـ الخاطئين الميئوس منهم حسب رأي غيرهم ـ أقام المستر جايكوب حلقة صلاة أخيرة وابتعد عن المدينة بما اكتنزه من أموال مسدلاً الستار على الفصل الأول من الكوميديا. وبعد رحيله أَخَذَت أحداث الفصل الثاني تتفاعل.

بدأ متقبلي الروح القدس يخرجون من بيوتهم ويحلّون أقفال محلاتهم، متخلين عن مطالعة الكتاب المقدس (وهي المهمة الوحيدة التي اعتكفوا عليها منذ تقبلهم الروح) وذلك بسبب تدني دخلهم.

ومع فتح المحلات كثرت الفضائح اليومية في الحيّ. فكل من تقبل الروح القدس في الماضي وعاد الآن إلى متابعة نشاطه كان يتعرَّض للهزء والسخرية. بدأ هذا بشكل تلقائي ولكنه لقي دعماً من وراء

الكواليس من رجال الدين الأرثوذكس[37] وتأجّجت نار السخرية والهزء حتى آلت الأمور إلى مأساة كاملة. فما أن يقرر أحد متقبلي الروح القدس الخروج من داره وفتح باب محله حتى يرى لفيفاً من الناس قد احتشدوا حوله، يصفقون ويلوحون بأيديهم، يتدافعون، يسخرون منه ويبصقون على وجهه. إلّا أن البعض من متقبلي الروح القدس تحمَّلَ هذا العناء بنوع من الزهو والاعتزاز مشبهاً ذلك «بآلام السيد المسيح». أذكر واحداً منهم على سبيل المثال راح يتضرَّع إلى الله أثناء تعرضه للاحتقار الشديد، رافعاً نظره صوب السماء وفاتحاً ذراعيه وهو يقول:

ـ يا سيدي يسوع المسيح، إنني ماضٍ في دربك...

والمضي في درب المسيح كان يعني له أن يتعرض لما تعرَّض له المسيح في سبيل الروح القدس.

تريَّثَ الكثيرون منهم ردحاً من الزمن قبل أن يقدموا على إعادة فتح محلاتهم، آملين أن يسأم الناس من ملاحقتهم ويلف الموضوع النسيان ولكن لا الناس سئموا ولا لف موضوعهم النسيان. فالكل يعرف مَن مِن هؤلاء مازال معتصماً في بيته وكذلك متى من المرجَّح أن يخرج. لم ينج أي منهم من سخرية الناس.

بعد شهر من الزمن بلغ أسماعنا نبأ يقول بأن المستر جايكوب قد قُتِلَ على الطريق بين ديكراناكيرد[38] والموصل على أيدي أناس

(37) وهم ممثلو الكنيسة الأم وبطبيعة الحال لاتروق لهم الطوائف المنشقة من صلب كنيستهم لذلك يعمدون إلى استغلال الفرص لتبيان موقفهم من المعتقدات التي يعتبرونها دخيلة.

(38) ديكراناكيرد: مدينة قديمة في جنوب شرق تركيا الحالية كانت عاصمة أرمينيا في عهد الملك ديكران الكبير (95 ـ 55 ق.م). في موقع آثارها تقوم حالياً قرية فارقين.

أشرار مجهولي الهوية. عندما نقلوا الخبر إلى والدي قال:
- هكذا زال أعظم شرّ عرفناه.

* * *

البروتستانت... كيف ظهرت هذه الطائفة إلى الوجود[39].

كان كل من يشعر بالامتعاض من تصرفات أحد القائمين على أمور الكنيسة من كاهن وخوري وشمّاس وقندلفت، يقصد مصلّى البروتستانت ويتلو صلواته هناك معلناً انضوائه تحت جناح المذهب الجديد.

كان هناك نجار يدعى مامبريه احتدم الخلاف بينه وبين زوجة قارع ناقوس الكنيسة (هما في الواقع جاران) فذهب النجار وأشهَرَ انتسابه إلى البروتستانت. كان من عادة البروتستانت إطلاق لقب بارون[40] على كل من يميل إلى البروتستانتية. وهكذا بين ليلة وضحاها تحوَّلَ الأخ مامبريه إلى بارون مامبريه وأخذ يذرف دموع التماسيح في المصلّى متضرّعاً إلى الله «يا رب، أشعل بوقود روحك القدس قلوب عبادك».

أُعجب الهير[41] «أيمان» - وهو ألماني شيَّدَ معهداً تعليمياً في مدينتنا وانكبَّ بحماسة بالغة في تحويل المسيحيين إلى مسيحيين - أُعجبَ

(39) الآراء الواردة في هذه الصفحات لاتعبر بالضرورة عن رأي المترجم الذي يرى أن الطائفة البروتستانتية (الانجيلية) الأرمنية إنما ظهرت إلى حيز الوجود في القرن الماضي من متن الكنيسة الأرمنية بسبب حاجة بعض المتدينين الأتقياء إلى إجراء إصلاحات كنسية كانت الكنيسة الأم بأمسّ الحاجة إليها ولكن الظروف السياسية التي كانت تمر بها الأمة الأرمنية، لاسيما الخضوع للحكم الأجنبي الروسي والعثماني، لم تكن لتسمح بتنفيذها على النحو الديموقراطي المأمول.

(40) بارون: سيد بالأرمنية.

(41) هير: سيد بالألمانية.

إعجاباً شديداً بشخصية مامبريه ودعاه ذات يوم إلى مكتبه وعرض عليه العمل لديه مقابل راتب مغرٍ، كما وهبه مجموعة من ملابسه البالية.

ظهر مامبريه في شوارع حيّنا ذات يوم مرتدياً ثياباً أوروبية ـ ياقة مقواة وربطة عنق مشدودة. لو كان أحدهم قد ظهر مرتدياً زيّاً رومانياً قديماً لما كان ليبدو بمثل تلك الغرابة التي ظهر فيها مامبريه. وقد اضطرته الثياب العصرية أن يقصّر من طول شاربيه أيضاً.

ورغبة منه أن يبرز طاعته وخنوعه أكثر فأكثر لمعت في رأسه فكرة غريبة حقاً، والأغرب من ذلك أنه سعى إلى العمل بها. دخل إلى غرفة الهير أيْمَان في يوم أحد بعد انتهاء الصّلاة ووقف أمامه وقد اتخذ هيئة تنم عن البلاهة (وهي حالة كانت تبدو واضحة على وجه كل من يخرج من المصلّى وذلك دلالة على تطهّره من الذنوب) وقال بنبرة مؤثرة:

ـ هير أَيْمَان، إنني أشعر بالأسف الشديد لأنني ولدت هكذا أرمنياً.

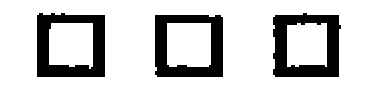
وكانت النتيجة أن الهير أَيْمَان قام من محله وبصق في وجهه دون أدنى تردُّد وطرده من مكتبه وأول ماقام به في صبيحة اليوم التالي أن فصله عن عمله. لقد كان بارون مامبريه يتوقع منه تصرفاً مغايراً تماماً، إذ كان على اقتناع بأنه سيتفهَّم وضعه وسيخفف من «آلامه» وسيرفع أكثر من مكانته.

تردَّد النجار مامبريه عدة أسابيع أُخرى على المصلّى بالحماسة نفسها ولكن الهير أَيْمَان لم يستدعه ثانية إلى العمل. وبعد أن أيقن أنه لاخير يرتجى من البروتستانت ارتدى ثيابه العادية وعاد إلى كنيسته الأولى. كان ظهوره لأول مرة في الكنيسة مشهداً فريداً من نوعه ـ طوال

القدّاس كان يناجي ربّه بصوت عال نشاز ويصلّي ثم ينحني على الأرض ويقبّل السجاد ويجهش بصوت عال: «ربّي، التوبة، التوبة، لقد تصرفت تصرف الحمير، ربّي، اغفر لي».

تصالح مامبريه بعد القداس مع قارع ناقوس الكنيسة وزوجته في جو احتفالي وطلب منهما قبولِ اعتذاره، كما منح معلمَ المدرسة الملابس التي حصل عليها من الهير أيمان وعاد إلى فتح محله وأطلق شاربيه من جديد حتى أخذا شكلهما السابق المرموق وأصبح يستقبل زبائنه القدامى ويعبر عن امتنانه لهم.

حين كانوا يدعونه أحياناً «بارون مامبريه» على سبيل الدعابة، كان يرجوهم قائلاً «كرامة لله، لاتنطقوا بهذه الكلمة، أشعر كأنَّ الشّوك يوخز جسمي كلّه».



14

كان لدينا نسيب يمتّ إلينا بصلة قرابة بعيدة ندعوه «العريس مانوك»، ولم نكن نحن فقط الذين ندعوه بهذا الاسم وإنما كل سكان المدينة يعرفونه به. كان رجلاً فارع الطول، بالغ النحافة، ناتئ العظام ذا عينين زرقاوين قابعتين في قعر محجريهما، تبلغان من الضآلة مبلغاً جعل عمتي تقول إنهما قد ثقبتا بإبرة.

في كل مرة يأتي إلينا (وينبغي هنا الاعتراف بأنه لم يكن يتردَّد علينا كثيراً) كان الراشدون من أهل الدار ينظرون إليه نظرات مريبة يداهمهم شعور من الخوف العميق وكأن حياتهم باتت مهدَّدة. وتقول عمتي:

ـ جاء نباش القبور من كوربي[42]....

كان العريس مانوك لايعير أهمية لتلك الأحاديث والنظرات، بل على العكس من ذلك كان يكشف عن ابتسامة واهنة ويبادر بالسؤال:

ـ كيف حالكم، هل أنتم بخير؟

ولايرد عليه أحد ولكن بعد صمت طويل تهمّ عمتي بالكلام فتقول:

ـ يا عريس مانوك...

ولايتوانى العريس مانوك عن قطع حديثها لأنه يعلم من نبرة صوتها ماذا تنوي أن تقول.

---

(42) كوربي: قرية قريبة من مدينة المزيرة (موطن الكاتب) في سهل خاربيرت.

ـ اسمحي لي أن أقطع حديثك بالعسل. سلّمينا من لسانِكِ...

فتلوذ عمتي بالصمت وهي في الحقيقة لاتملك أن تفعل غير هذا، ذلك لأن المعروف عن العريس مانوك أنه لايتردَّد عن استعمال أقذع الكلام في تعليقاته الحادة.

بعد إسكات عمتي كان العريس مانوك يلتفت نحونا وينشغل بنا نحن الأطفال. لقد كنا نحبه حبّاً جمّاً لأنَّه يتمتع بسمعة رجل مقدام ويقصّ علينا الحكايات البطولية.

ـ شتاء قارس عاصف ونحن على قمة الجبل، حاصرتنا الذئاب... الخ ـ وهناك العديد من الحكايات على هذا النحو والتي كانت بلا شك تأسرنا. وعندما يتوقف عن السرد كنا نهتف بصوت واحد:

ـ يا عريس مانوك، نتوسَّل إليك، بالله عليك...

فيعود إلى متابعة حكايته بنشاط وحيوية. حين يشرع في سرد أقاصيصه تتَّسع حدقتا عينيه إلى حد تتكشَّف زرقتهما بكل وضوح. ومع مرور الأيام توضَّح لنا سر الاسم الذي يحمله ـ نبَّاش القبور.

لم يكن العريس مانوك صاحب محل أو حرفة ورغم ذلك كان يحيا حياة يسر إلى حد بعيد. وما أقصده هنا أنه لم يكن يمتهن مهنة مألوفة، فعمله يتلخَّص في إخراج الموتى من قبورهم. فكيف كان يقوم بذلك؟

الموتى يُلفّون عادة بأكفانٍ غالباً ماتكون منسوجة من حرير أو قماش آخر فائق الجودة. عمله إذاً يقوم على التجارة بقماش الأكفان. هل لكم أن تتصوروا شخصاً ينسلّ ليلاً بمفرده إلى المقبرة ويقترب من جدث الميت المدفون حديثاً ويزيح عنه الغطاء ويميل إلى الأسفل ويمسك بالجثة ويشدها إلى أعلى ثم يطرحها أرضاً ويقوم بفك كفنها ويربطه حول خاصرته، وأخيراً يعيد الجثة إلى موضعها ويهيل عليها

التراب بحيث لايبقى مايثير الانتباه صباحاً، وأخيراً يقترب من سور المقبرة ويعتليه ثم يثب إلى الشارع ماضياً إلى بيته حيث يخلد إلى النوم قرير البال.

بعد أن انكشف سرّه أمامنا تبوَّأ العريس مانوك في نظرنا مكانة أكثر بطولة مما مضى، رغم أننا بدأنا مثل الآخرين نشعر بالخوف العميق منه وكأن حياتنا باتت مهدَّدة.

حين كانوا يحثونه على التخلّي عن عمله هذا، لاسيما بعد أن تقدَّم به العمر، كان يرد عليهم.

ـ عملي مريح جداً...

لقد كان يتمتَّع بخاصية أُخرى ـ وهي القدرة على النباح مثل الكلاب بشكل طبيعي. هذه الملكة أنقذته مرات عديدة من الوقوع في شرك المطاردين. فعندما يسمع وقع أقدامهم أثناء نبش المدافن يلجأ إلى تقليد نباح الكلاب فيلوذ أولئك بالفرار مرتعدين. وحتى السكان الأرمن القاطنين في المنازل المقابلة للمقبرة كانوا يصابون بالهلع لدى سماعهم أصوات النباح في منتصف الليل ويرسمون إشارة الصليب على وجوههم ويتهامسون فيما بينهم.

ـ لابد أن العريس مانوك يزيح النقاب عن كفن جديد، يا إلهي، أنقذينا يا أمّنا يا مريم..

عند مرور جموع المشيعين في الشارع نهاراً كان العريس مانوك يراقبهم من نافذة داره ويبتسم ابتسامة خفيفة ويقول بنبرة تهكمية:

ـ أواه، لقد توِّفي الحاج مصطفى رحمة الله عليه، وهو الآن في طريقه لملاقاة ربه. وداعاً له، ليذهب حيث يشاء، ولكن ليس قبل أن أُجرّده من كفنه.

ويأوي إلى الفراش مبكراً كي يحتفظ بكامل قواه ليلاً.

* * *

كان لدى العريس مانوك حمار قد خدمه سنين طويلة إلى أن تقدَّم به السن وبات لاينفع في شيء فأراد أن يبيعه. أشار إليه كثيرون أن يطلقه في العراء ولكنه كان راغباً في بيعه (والمقصود بإطلاق الحيوان في العراء هو تركه وشأنه في الحقل الفسيح، يرعى كما يشاء، يربض حيث يشاء ويقف على قوائمه متى شاء هكذا إلى أن يحين أجله).

ولكن العريس مانوك توفَّقَ في بيع حماره واستغرب الجميع وعلّق والدي على الموضوع ساخراً:

- لاشك أنه حمار من اشترى ذاك الحمار.

بعد ثمانية أيام من اتمام البيع لجأ الشاري إلى المحكمة مطالباً بإلغائِهِ. وأخذ الشاري في المحكمة يبيّن كيف أن الحمار الذي اشتراه غير قادر على هضم الشعير إذ بات يطرحه مثلما يتناوله وهذا يعني أن موته أصبح وشيكاً.

وراح يتساءل في المحكمة:

- هل يجوز أن تقتات دجاجات الحيّ على نفقتي أنا؟

وتوقع الحضور أن يتراجع العريس مانوك أمام هذا الدفاع المحكم. فأي جواب يمكن أن يسعفه؟ ولكن على أيّة حال لقي جواباً فقال:

- إن مابعته ليس بطاحونة وإنما مجرد حمار.

وجدت المحكمة أن ادعاءَات الشاري غير واقعية وقررت صحّة البيع.

□ □ □

15

كانت الحياة على ذلك الدرب الروماني القديم تتجلى بضروب متنوّعة غريبة وأغربها على الإطلاق أولئك العائدون من أمريكا ـ أي أرمن أمريكا، الذين لم يجلبوا معهم غير ملابسهم الجديدة وبعض المفردات الانكليزية، بالإضافة إلى تمغُّج في حركة الفم ليس فقط لدى النطق بالمفردات الانكليزية وإنَّما أيضاً لدى الحديث بلغتهم الأم. على سبيل المثال، «هوفانيس» الذي كان يُعرَف فيما مضى بالحمار هوفانيس (لأدري كيف تغير لقبه هذا لدى عودته من أمريكا وأصبح يُعرَف بالسيد هوفانيس) كان عند الحديث بلغته الأم يبدو وكأنه يستخف بها، حركات فمه أشبه بمن يمور في فمه لقمة حارة.

وكان القريون السذَّج يقولون:

ـ ابن الملعون، إنه يجيد الانكليزية إلى درجة يتحدث الأرمنية على نحوها.

ولأن الفكرة التي نشأت عندي عن اللغة الانكليزية جاءَت عن طريق المبشرين الأمريكيين الجهلة ومن الأرمن الأمريكيين فإنني شعرت بالكره تجاه هذه اللغة. في سنين حياتي اللاحقة، عندما سنحت لي الفرصة لإتقان اللغة الانكليزية والحصول على تعليم عالٍ أمريكي المنهج توصَّلت إلى قناعة بأن المرء في غنى عن ثني فمه عند النطق بلغة شكسبير وديكنز وبايرون[43].

(43) الثلاثة من أعلام الأدب الانكليزي.

إلّا أن استغراق الأرمن الأمريكيون في ليّ قسمات وجوههم لم يكن يدوم أكثر من بضع سنين، فما أن تبدأ الملابس التي جاؤوا بها من أمريكا بالاهتراء ويتم استبدالها بأخرى محلية حتى تهترئ اللغة المكتسبة أيضاً وتحلّ محلها اللغة الأم وتعود أساليب التهجّي إلى سابق صِيَغها بعيداً عن أنماط المحاكاة الباعثة على السخرية.

كان هناك شيء آخر - غير ما ذكرته - يميّز العائدين من أمريكا - وهو أسنانهم الذهبية. لايمكن تخيّل الواحد منهم إطلاقاً دون سنّ ذهبيّة.

السن الذهبية تعتبر علامة تفضيلية في مجتمعنا وهم بسبب تمتعهم بها تمكنوا من الاستحواذ على أجمل الفتيات للزواج. لقد تحول 99 بالمئة منهم إلى أناس أفاضل لا لسبب سوى لأنهم أصحاب أسنان ذهبية. شقيقتي الكبرى ذهبت ضحية لزواجها من صاحب سن ذهبية. ولكن هذه حكاية أخرى لاأرغب بسردها هنا، فهي تثير في نفسي مشاعر الأسى وذكراها تجثم على صدري.

كان للحمار هوفانيس (عفواً السيد هوفانيس) إثنتان من تلك الأسنان في مقدمة فكه العلوي. ومن بين جميع الذين عادوا من أمريكا كان هو الوحيد الذي لم يتمكن من أن يجد زوجة له وذلك لسببين أولهما أنه بالَغَ كثيراً في تقدير أهمية أسنانه الذهبية وشَمَخَ بأنفه وثانياً لأنه كان في الواقع مجرد حمار لاأكثر ولاأقل.

بعد عدة سنوات من عودته بدأت جملة من الغضون الجديدة تظهر على وجهه. فقد كان يضحك على الدوام لإظهار أسنانه وهي لم تكن تظهر بوضوح إلّا إذا استغرق في الضحك. لهذا السبب تبنّى الحمار هوفانيس عادته القبيحة المتمثّلة في الضحك المتواصل. وسرعان ما ظهرت على وجهه غضون جديدة مصطنعة هذه المرة.

ـ يا سيد هوفانيس، أراكَ تحمل خبزاً معك ـ يسأله أحدهم.

ـ نعم أحمل خبزاً، ها ها ها ـ يطلق ضحكة خرقاء.

وفي موقف آخر:

ـ كيف حالك، يا سيد هوفانيس؟

ـ بخير، الحمد لله، ها ها ها.

ويتكرر المشهد ذاته في مواقف الحياة اليومية. على سبيل المثال يقول أحدهم أن الجو ماطر اليوم. فيجيبه:

ـ نعم، إنَّ الجو ماطر، ها ها ها.

وهكذا تتكرر هذه السَمَاجة في مواقف لاحصر لها.

وحدث أن مات الحمار هوفانيس. عانى ألماً في بطنه مدة ساعتين وتأوه كثيراً ثم أسلم روحه. فقالوا:

ـ لابد أن الحمار قد التهم عشباً ضاراً عسر عليه هضمه.

أُطبقَت شفتاه بعد وفاته فأصبح من غير الممكن أن تظهر أسنانه الذهبية. فقرر أقرباؤه ضرورة ظهور تلك الأسنان عند دفن جثمانه ولكنهم كانوا كلما يحاولون إبرازها تعود الشفتان للانطباق. وقع أقرباؤه في هم مبين ومضوا يقدحون أذهانهم لإيجاد وسيلة لإظهار أسنانه.

وتساءَلت خالة المتوفّي:

ـ هل من المعقول أن يوارى الثرى دون أن يرى الناس أسنانه الذهبية على الأقل؟

التمسوا مشورة الغرباء ولكن لاأحد أفلح في إيجاد الوسيلة المثلى، وفي آخر الأمر توصَّل أحد أقربائه إلى الحل ـ وهو إبعاد

الشفتين عن بعضهما بعضاً بواسطة عودي ثقاب يتم إخفاؤهما تحت الشاربين.

عند تشييع الجثمان كانت الخالة العجوز تندب وتنوح:

ـ آخ، أنا فداء أسنانك الذهبية...

أمّا الحمار هوفانيس فقد كان بشفتيه المنفرجتين أشبه بمن يواجه رحمة السماء بضحكة رعناء.

* * *

كان الأرمن الأمريكيون يعودون إلى ديارهم وهم يحملون معهم أحياناً أمراضاً «حضارية» (مثل السِفلِس وأمراضاً زهرية أُخرى) ومنهم من كان لايتخلّى عن بعض العادات القديمة ذات الطابع الاقطاعي.

أقامت في جوارنا أُسرة مؤلفة من أخ وأخت ووالدتهما. يقال بأنه كان للأسرة فيما مضى أب هاجر منذ زمن بعيد إلى أمريكا. وقد وُلِد ابنه «هوفسيب» بعد شهرين من رحيله. تلقّت الأسرة منه بعد رحيله إلى أمريكا رسالة أو اثنتين ثم انقطع الاتصال بين الطرفين فاضطرّت الأم للعمل غسالة في بيوت الناس كما تولّت أعمالاً منزلية أُخرى من أجل إعالة ولديها إلى أن تخرّجا من المدرسة الثانوية والتحقا بالتدريس واستطاعا بذلك أن يخففا شيئاً من العبء الذي كان ملقىً على عاتقها.

لقد كانت حياتهم تتسم بالبساطة دون أن تخلو في الوقت نفسه من ومضات سعيدة.

ذات يوم ظهر في هذه الأسرة رجل محدودب الظهر، أشيب الشعر، هزيل البدن، ناتئ العظم، دائم السعال. لم يعرفه الشقيقان ولكن والدتهما أخبرتهما بأنه والدهما، فتقبّلاه دون حماس ولكنهما عاملاه

باحترام رغم أنه منذ 18 سنة خلت كان متنصلاً من القيام بواجباته تجاه زوجته وولديه تاركاً إياهم في فقر وعوز.

لم يكد يمضي على مجيء الوالد بضعة أيام حتى انتشر في الحي خبر فظيع مفاده أن «هوفسيب قتل والده». تأكَّدَ الخبر في لحظات. نعم، لقد قتل هوفسيب والده بطريقة مأساوية إذ دقَّ رأسه في الحائط مهشماً إياه.

رغم صحة ماتردَّد بدا وكأن الأمر غير قابل للتصديق من قِبَل الناس الذين عرفوا هوفسيب جيداً لأنه كان شاباً صالحاً حَسَن السيرة، طيّب العشرة، لايمكن له أن يلحق أذى بطير فكيف له أن يكون قاتل أبيه؟

اقتيد هوفسيب إلى السجن وبعد شهر بدأت محاكمته. ولكن بحلول موعد المحاكمة كانت ملابسات كثيرة عن القضيَّة قد بدأت تتوضَّح دافعةً غالبية سكان المدينة إلى الوقوف في صَفِّهِ. تمَّ جمع العرائض المذيَّلَة بالتواقيع وقُدِّم إلى المحكمة أيضاً العديد من الالتماسات، كما عرض بعض المحامين خدماتهم دون مقابل ولكن هوفسيب رفض عروضهم مصرّاً الدفاع عن نفسه بنفسه.

كانت الجريمة قد وقعت في الظروف التالية: شرع والد هوفسيب ويدعى السيد جون (وهو الاسم الذي حمله في أمريكا بدلاً عن اسمه الأصلي هوفانيس) منذ اليوم الأول لعودته يسيء معاملة زوجته، مدَّعياً أنها سلكَتْ في غيابه (الذي دام 18 سنة) مسلكاً غير مشرف وأنها خالطت رجالاً كثيرين (رجالاً في الحقيقة وهميين). تدخَّل هوفسيب وأخته في الدفاع عن والدتهما مؤكدين له بأنها كانت مثال المرأة العفيفة التي ظلَّت محتفظة بالمكانة الأخلاقية الرفيعة التي تتميَّز بها أمّ وَجَدَت نفسها في ظروف بائسة ودون معيل، وأنه حتى لو سلّمنا بأنها لم تكن كذلك، فليس للسيد جون أيّ حقّ في مقاضاة زوجته التي هجرها

بنفسه تاركاً على عاتقها وزر تربية طفليهما، دون أن يحفل بالإبقاء على حدٍّ أدنى من الصّلة بينهما، فهو لم يمتنع عن إرسال المعونة المادية فحسب وإنّما عزف حتى عن إرسال مجرد مكاتيب «ناشفة».

لكن السيد جون ظل متشبّثاً برأيه، فقد ادّعى اطّلاعه على ذلك من بعض المصادر وأراد على أساس ذلك أن يقتصّ من زوجته. طوال الأيام التالية بذل الابن والابنة كل مافي وسعهما لاقناع الأب الصفيق المتغطرس كي يعدل عن فكرته، لكنه سحب حديدة الأوزان ورماها على زوجته ليشجَّ رأسها، وقد أصابها - لحسن الحظ - في قدمها.

بعد هذه الواقعة أيضاً لم يفقد الأخَوَان أملهما في إعادة الأمور إلى نصابها وناشدا والدهما بالتروِّي ولكن السيد جون تمادى كثيراً في سلوكه المجحف حتى بلغ به الأمر إلى إشهار مسدسه الذي جاء به من أمريكا.

واجه هوفسيب جموح والده وتمكن من احتوائِهِ بقوة ساعديه بعد أن انتزع المسدَّس من قبضته وانهال عليه ضرباً حتى اصطدم رأسه بالجدار المقابل، وعلى هذا النحو قتل الابن أباه الصفيق المتغطرس الذي رآه لأول مرّة في حياته.

بعد أن توضَّحَت كل هذه التفاصيل تراجَع الرأي العام عن موقفه المتعاطف مع الأب المقتول وأصبح يناصر المرأة البريئة والمجرم البريء مثلها. اكتفى هوفسيب في المحكمة بأن يقصَّ على الحضور حكاية أمه المعذّبة. وكانت قصة وجدانية مؤثرة جعلت عيون الحضور والقضاة تدمع على السواء. روى كيف عملت والدته ليل نهار في غسل ملابس الناس حتى نزت قطرات الدم من أطراف أصابعها المرهفة. روى أيضاً كيف أن العديد من الشبان الميسوري الحال قد طلبوها للزواج ولكنها

رفضتهم جميعاً خشية أن يقع طفلاها تحت رحمة أب غريب، وبعد كل هذا يظهر إلى الوجود رجل مجهول يحمل اسم جون، جاء إليهم كي يملأ كأس سعادتهم شقاءً.

قررت المحكمة إخلاء سبيل هوفسيب.

حين عاد هوفسيب من المحكمة أخذته والدته في أحضانها وأجهشت بالبكاء وقالت:

ـ ماذا كان يضيره لو أنه عاش معنا بسلام؟

بعد هذه الحادثة لم يعد هوفسيب يحتمل الإقامة في مدينتنا، فاصطحب معه والدته وأخته وقصد مدينة أخرى كي يتخلّص من كل ماحوله والذي مافتئ يذكره بالمأساة الرهيبة التي عاشها.

□ □ □

16

أقبلتُ على تصفُّح جريدة «الصحافة الشرقية» الأسبوعية التي كانت تصدر في مدينة إزمير وأنا بعد أمام كوّة البريد (لم يكن البريد يصل إلى بيوتنا عادة فكنا نستلم الصحف والرسائل من مبنى البريد مباشرة) وما أسرع ما وقع بصري على قصيدة مذيَّلة باسمي وبدا توقيعي ذاك - ولايزال يبدو لي حتى الآن - وكأنه منضّد بحروف من ذهب. وأحسست وكأنّ قدميّ لم تعد تثبتان على الأرض وشعرت بنوع من الانطلاق كأنني أسبح في الفراغ.

كنت مأسوراً بعالم الشعر منذ أمد طويل، أقرأ الدواوين وأقرض الشعر وأساهم في المنشورات المدرسية بل قمت بنفسي في تحرير عدد من المنشورات الشهرية المكتوبة بخط اليد ولكن حتى تلك اللحظة لم يكن قد طبع لي شيء.

عندما كانت والدتي تراني ساهراً في غرفتي الصغيرة أقرأ وأكتب كانت تناشدني قائلة «هيا يا ابني الحبيب، هيا لتنام، فلا بطرس ولابولس يمكن أن يخرج من أرومتنا». كانت تقصد بهذا الكلام أن لاأمل في أديب يخرج من بين ظهرانينا. بعد صدور تلك القصيدة لم تجتاحني مشاعر الغرور والعتوّ ولكن لاأدري لماذا انتابني شعور مثقل بالجدّية دام بعض الوقت، قلت لوالدتي حينها «أرأيتِ؟ كنت تقولين أن لابطرس ولابولس يمكن أن يخرج من أرومتنا، ولكن ها قد خرج». بطبيعة الحال لم تكن والدتي قادرة على تقييم كتاباتي

ولكنها لما تحمله من الاحترام الشديد للحرف المطبوع ابتسمت وقبّلتني.

غرفتي الصغيرة.. كانت غرفتي تلك تقع بين الدورين الثاني والثالث، تؤدي إليها سلالم جانبية خاصة. كانت غرفة صغيرة جداً مكتظة بالكتب (دواوين شعر على وجه الحصر) واللوحات الفنية، لها نافذتان تطلّان على سطح الدور الثاني، تحجب الأفق عنهما شجرة توت في حديقة جيراننا، فلا يمكن للناظر أن يلتمس زرقة السماء إلاّ عبر الفسحة المطلّة من بين جنبات أوراقها. في تلك الغرفة كتبت أول قصيدة مطبوعة لي، وهناك اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أقرأ أشعار توريان[44] وأشعار ميدزارينتس[45] فيما بعد.

كان الشاعر ميدزارينتس محط عبادة شبيبة الريف. كنا نتابع بامتعاض تفاصيل الجدل الدائر حوله من قبل بعض الكتاب التافهين المبتذلين ونكتب إليه الرسائل التي تشد من أزره. وقد بعث لي ديوانه «أناشيد جديدة» كهدية، شعرت على أثرها ـ صراحة ـ بالزهو. كنت أتأمل صورته الفوتوغرافية ساعات طويلة مأخوذاً بشخصيته، مولعاً بترديد أبيات محببة من شعره.

تمنيت كثيراً أن أطلق لحيتي لأتشبّه به ولكن ـ للأسف الشديد ـ لم

(44) بيدروس توريان (1851 ـ 1872): شاعر أرمني ولد في ضاحية اسكودار الواقعة على الطرف الآسيوي من استانبول. له قصائد في الحب والطبيعة والوطنية. يعتبر أدبه انقلاباً عظيماً في اللغة الأرمنية بأسلوبه الجزل ولغته النقية. توفّي مبكراً بعد أن ذاق ألم المرض سنة كاملة. صدرت له أعمال شعرية ومسرحية بعد وفاته بجهود مجموعة من أصدقائه.

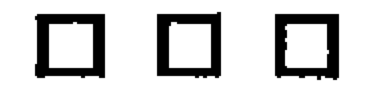
(45) ميساك ميدزارينتس (1886 ـ 1908): شاعر أرمني ولد في بنكان (ولاية سيواس) وواظب خمسة أعوام في الكلية الأمريكية في مرزوان (الأناضول) ونال النجاح التام في المواد الأدبية وصار في مدة حياته القصيرة من أعظم وأشهر الشعراء الأرمن المحدثين وفتح في الشعر الأرمني أبواباً غير مطروقة. من آثاره «قوس قزح» و«أناشيد جديدة».

يكن هناك أي أثر ولاحتى لزغب الشعر على وجهي. رغبت كذلك أن يُطبَع كتابي الأول بذات نوعية الورق والحلّة والغلاف الذي ظهر فيه ديوانه «قوس قزح» وفي المطبعة ذاتها. وتحقق ماحلمت به ولكن للأسف لم يترك في نفسي الانطباع المنشود. عندها أدركت بوجود شيء ما، مضمون باطني خفي ينعكس في الشكل الطباعي، موجود عند توريان وميدزارينتس ولكنه غير موجود عندي. كتيب أشعاري البكر هذا ذو حظوة فريدة في قلبي لأنه مُهدَى لذكرى ميساك ميدزارينتس وهو هدية بخسة في حدّ ذاته ولكنه كان في ذلك الوقت جلّ مايمكن لي أن أقدّمه.

بعد سنوات طويلة عندما انحنيت أمام ضريح شاعري في استانبول وهممت أن أقبّل قبره البارد بدا لي ميساك كأنه يكلمني ويحدثني عما يكنّ في نفسه من شوق عارم إلى الشمس. هذا الشاعر الفريد الذي تغنّى بألوان قوس قزح يرقد الآن في هذا الموقع الذي لالون له ولادفء. يا شاعري ميساك، هل ضاقَت عليك السماء أم أن عينيك لاتزالان تبصران فسحة في زرقتها؟

لقد كبرتُ الآن وأصبحتُ في عداد البالغين، أمَّا أنت فقد بقيت في مقتبل الشباب وها أنذا أدنو منك بكل مايحمله الإنسان الراشد من صَبْوة ووداد عميقين وأربّت بيديّ المرتعشتين على رأسك اليافع الجميل، فترشح دموعي في ثنايا قصائدك.

عندما أرتجف، يا أيها الشاب العظيم، من هول البرد في هذا العالم المقفر، أحتضن أشعارك فتتسلّل الشمس التي مجّدْتها في أشعارك إلى أعماق روحي الموحشة، شعاعاً إثر شعاع.



17

كان لنا جيران أتراك أيضاً، ومنهم ابن الجيران «شمسي» الذي كان في مثل عمري وقد نشأنا معاً وترعرعنا سوياً مثل شقيقين اثنين، لعبنا معاً بالكعاب، ضيّفنا بعضنا البعض قطع الحلوى التي كان الواحد منّا يستحوذ عليها من بيته. لقد خرجنا نسبح معاً كما سببنا المضايقات لشقيقته التي تكبره بسنتين دافعين إياها مراراً إلى أحضان البكاء.

كانت شقيقته «سنيّة» تبدو ـ بما لها من خفّة دم وبياض بشرة وشعر ذهبي كأنها من صنع الأثير، وذلك على نقيض ما يتميّز به شقيقها شمسي من بشرة سمراء وشعر أسود وحاجبين داكني اللون وعينين شديدتي السواد.

كانت هناك شجرة أكاسيا عظيمة في حديقة دارهم وقد ولعتُ كثيراً بتشبيه سنيّة بزهرة الأكاسيا البيضاء.

كانت سنيّة تخنّ بعض الشيء عندما تتكلّم فيخرج صوتها من أنفها ـ في صغرها كانت قد وقعت وأصيبت بأذى ـ ولكن هذا الأسلوب في لفظ الكلمات كان يثير متعة كبيرة في نفسي إلى حدّ أصبحت أتمنّى لو أن البنات جميعن يتبعن طريقتها في النطق. كانت هي الصبية الأولى التي لامست أصابعي المواضع الأكثر نعومة في جسد الأنثى فشعرتُ بالمتعة واعتقدت أن المرأة الحقيقية لابد لها أن تتكلم من أنفها حتى تروقني.

الأمر كان مختلفاً بالنسبة لأخيها شمسي، إذ كان يستهزئ بها على الدوام بسبب عيبها ذاك، وهذا ما كان يدفعها للتقرب مني أكثر فأكثر بشعور من الدفء العارم إحساساً منها أنني على النقيض، يطيب لي هذا العيب الذي كان موضع هُزء الآخرين، وكانت تَسمَحُ لأصابعي أن تسيح بحرية على مفاتن جسدها وما أكثرها....

في كل مرة كنت أكتشف في جسدها مواضع مجهولة تماماً، مواضع أكثر شفافية وأنصع بياضاً، يفوح منها أريج أخَّاذ يثير نوازع النفس وكما التجوال في أرض نائية مجهولة المعالم أو التوغّل في حلكة حراج مُخْمَلية ناعمة كنت أجد نفسي، بين لحظة وأخرى، أمام مطبّ جديد أو مُرْتَفَع أو وهدة فتهزّني رعشة جديدة غير اعتيادية، وما أن أجد نفسي أمام غورٍ أو ثنيّة غير مألوفة أو أبلغ ذروة جديدة حتى أتخيَّل أن لاجديد بعد ذلك ويداهمني الاعتقاد بأنني قد كشفت اللثام عن كل بقعة من بقاع هذه الأرض المجهولة الغنَّاء. ولكن أملي سرعان مايخيب. فهناك المزيد من الثنايا، تليها انتفاخات ضئيلة الحجم، ثم أجد نفسي ثانية أمام امتداد صغير ولكن رحْب، مخملي الملمس، أبيض اللون. وعلى صفحة جسدها البضّ تجول خطوط وارتسامات وتقوّسات تأخذ شكل تموجات متدافعة. ها أنا أتبع خطاً من هذه الخطوط فيمضي بي في طريق متعرّجة ملتفّة، لاتلبث أن تتعثّر وتتلاشى دون أثر في غياهب سهل مرمري أملس. فأمضي أنا هكذا من الغامض إلى الأكثر غموضاً ويتملكني شعور بأنني سأصل إلى مبتغاي وأزيح الستار عن كل ماهو غامض خفيّ... نعم، لابد أن ينجلي الليل ويغتسل العالم بندى الصباح، ولكن أين هي سنيّة؟ لقد اختفت تحت أشجار الكرز، لايصدر عنها غير قهقهة.

لقد نزعت آلاف الوريقات من هذه الزهرة الأسطورية ولكن عليّ أن

أنزع مئات آلاف أُخرى كي أصل إلى لب ألبابها. وتضحك سنيّة ويتناهى إلى مسمعي خرير الماء في الغدير الأزرق المنحدر من أعالي السماء...

* * *

ولكن كان يحدث أحياناً أن ينشب خلاف بيني وبين شمسي فنتشاجر دون أن نعرف سبباً لذلك. وفي ومضة خاطفة كان يطلق عليَّ نعت «الكافر» وأرد عليه أنا دون تردد وأدعوه بـ «الكلب». والكلمتان من المفردات التي جئنا بها من الوسط الذي نعيش فيه، من البيت والمدرسة. كل الأتراك كانوا يدعون الأرمن بالكفرة والأرمن يسمون الأتراك كلاباً.

حين يقصد الأتراك والدي في محله كان يرحب بهم ويكرمهم أعظم تكريم ولكن بعد أن يودعهم بالتمنيات المفعمة بالمودة والاحترام كان يغمغم من ورائهم «كلاب». وبطبيعة الحال لدى خروج والدي من ضيافة مماثلة بالغة الحفاوة كان معارفه الأتراك يغمغمون من وراء ظهره «كافر».

الكافر والكلب ـ كيف يمكن لهما أن يتعايشا متجاورين؟ فكل من كان يناديني بالكافر كنت بالمقابل، ودون أدنى تفكير، أدعوه بالكلب. سنية هي الاستثناء، فهي زهرة الأكاسيا التي تعبق في ليالي الربيع الرائقة.

حينما يُعتقَل أحد الأرمن (أو مجموعة منهم) ويساق مكبلاً بالأصفاد إلى السجن مروراً من حيّنا، كان الأرمن يمرون على طرفي الطريق منكسي الرؤوس، أما الأتراك فكانوا يقفون على طول الطريق مبتهجين تملؤهم الغبطة. عندما تسير جنازة أحد الموتى الأتراك كان

الأرمن يمّمون شطر السماء مبتهلين «الحمد لله يا ربّ» ويداخلهم شعور بالسرور لأن الأتراك قد نقص عددهم واحداً.

واختفت سنية وراء النوافذ المسيَّجة وأطبقت غمامة دميمة على وجه القمر الفضي ولم تتمكن أصابعي أن تجوس أكثر في هذا المجهول البديع المطيَّب بالأزاهير وبقيت ثنايا جسدها وخطوطه وامتداداته القصيّة المصونة في حكم المجهول ولم أتمكن من بسط سيطرتي على كامل الحقل المرمري الرغيد.

وكانت سنيّة تمر من أمام درانا، يلفها خمار بنفسجي اللون، تنفذ نظراتي إلى داخل لفاعها وتجول في غياهب ذاك العالم المجهول.

* * *

ألمح صباح كل يوم ومساءه زوجاً من العيون يتطلع من قفص مشربية ويداً تشق طريقها إلى الخارج لتلقي زهرة أمام أقدامي. تقع هذه المشربية على بعد عدة دور منا وتعود ملكيته إلى رجل تركي معروف عنه أنّهُ يمتنع كل يوم جمعة عن إلقاء التحية على أي من معارفه المسيحيين ولايردّ عليهم تحياتهم. ولكن هذه اليد الناعمة، ياسمينة الصباح تلك، لاتتلكأ نهار كل يوم من رمي زهرة حبها أمامي مرتدة إلى الداخل قبل أن أسمع رنين ضحكتها وصيحة سعادتها المكتومة.

هي ثالث زوجة له، صبيّة في مقتبل العمر، حبيسة الأقدار. تثير في نفسي نار التوق والرغبة في رؤيتها والتحدث إليها. أتلقف الزهرة المرمية على الأرض وأحملها معي إلى البيت مستنشقاً عبيرها حتى آخر رمق، فتسري رعشة واجفة في ثنايا فؤادي وتسري في أوصالي قشعريرة ملؤها النشوة.

كان زوجها قد نيف على الستين، خصره مائل، عيناه صفراوان،

تقدحان الشرر. كان يحتفظ بجلد وجهه حليقاً فوق وجنتيه النّاتئتين، يلوي لحيته ويصبغ جلده بالحناء. في كل مرة يغادر فيها الدار كان يوصي زوجتيه الأخرتين بأن تراقبا «بهرية» وأن تمنعاها من الاقتراب من المشربية، إذ لايسمح لأي شيء حتى لنسمة الهواء أن تتسلل إليها.

ولكن بهرية التي تأجّجت فيها شعلة الربيع، لم تجد طريقة للاقتراب من المشربية فحسب وإنّما كانت تمد يدها وتُلقي زهرتها وتطلق آهة من آهاتها. وفي يوم من الأيام سمعتها تقول من وراء المشربية.

ـ تعال غداً إلى الحديقة، سيغيب العجزة عن الدار.

صدح هذا الصوت في دهاليز أُذني وأيقظَ في نفسي شهوة المرأة. أنصتُّ إلى ما قالت ومضيت في سبيلي ولكن بدا لي وكأن كلماتها قد اجتثَّت قلبي وانتزعته من وراء الأسلاك الرفيعة التي تغطي واجهة المشربية. ابتعدت ولكن صدى الصوت ظل يتردد بعنف داخل روحي بل ازداد زخماً وكأن الشمس نفسها هي التي تصيح. تريثت تحت ظلال شجرة ما ورأيت كيف أن الشمس قد نسجت ظلالاً بديعة من الأزاهير على أديم الأرض، ووقع بصري على بهرية وهي تطلّ منها، وسمعت صوتها المترافق مع هفيف النسيم بأوراق الشجر وهي تقول:

ـ تعال غداً إلى الحديقة...

صعدت إلى سطح دارنا ليلاً. كانت فروع شجرة الأَكاسيا تميل نحو الأرض والقمر يتربّع فوق سطح دارنا تماماً. شاهدت في طلعة القمر وجه بهرية بعينيها الكبيرتين السوداوين وشعرها المقصوص، المنسدل على جبهتها. إنها تبتسم.

في صبيحة اليوم التالي تسلقتُ جدار حديقتنا ووثبت إلى حديقة جارنا. أحسست ملابسي قد ابتلت بندى الصباح. كان عليّ أن أجتاز

سياج ثلاث حدائق أُخرى على هذا النحو كي أصل إليها. صعدت على الجدار الأخير. كنت أرتجف ولكن بدا لي وكأن بمقدوري أن أحلّق في الجو. لمحتني بهرية وانطلقَت نحوي.

إنني الآن أسفل الجدار تحت شجرة الرمان المزهرة، تسترني شجيرة الليلك القريبة مني. أصبحت بهرية على مرأة مني وتوقَّفَت. إنها تلهث وترتعش وقد أراحت يديها على صدرها المكتنز.

أحتضنها وأنتشي بفوحان عبيرها وتتلظّى شفتاي بحرقة القبلات.

- لنذهب إلى الداخل - تقول - إلى الداخل.

لقد خرج زوجها الليلة الماضية قاصداً الحي القديم، مصطحباً معه زوجتيه الأخرتين لأمر يتعلق بقضية إرث، وقد أحكموا إغلاق الباب الخارجي عليها بحيث لم يبقَ أي مجال للشك في قدرتها على مغادرة المكان.

أرشدتني بهرية إلى مخدعها وهي ممسكة بيدي. إنها تعانقني الآن فتنتابها موجة من البكاء وتفتر شفتاها عن ابتسامة لاتلبث أن تتحول إلى قبلة تُطبع على شفتيّ.

كانت قد أفاقت للتو بدليل أن فراشها لم يكن مرّتباً بعد. حملتُ جسدها اليافع بين ذراعيّ وارتميت في أحضان السرير. ويالعبق المرأة المُسْكِر.

لوّعتني المرأة على هذا النحو لأول مرة في حياتي. تملّكني الخوف وغمرتني المتعة وانغمست في نشوة الخطيئة الأولى وتحول كل ما حولي إلى جوقة غناء صاخب ماجن.

- بهرية...

سياج ثلاث حدائق أُخرى على هذا النحو كي أصل إليها. صعدت على الجدار الأخير. كنت أرتجف ولكن بدا لي وكأن بمقدوري أن أحلّق في الجو. لمحتني بهرية وانطلقَت نحوي.

إنني الآن أسفل الجدار تحت شجرة الرمان المزهرة، تسترني شجيرة الليلك القريبة مني. أصبحت بهرية على مرأة مني وتوقَّفَت. إنها تلهث وترتعش وقد أراحت يديها على صدرها المكتنز.

أحتضنها وأنتشي بفوحان عبيرها وتتلظّى شفتاي بحرقة القبلات.

ـ لنذهب إلى الداخل ـ تقول ـ إلى الداخل.

لقد خرج زوجها الليلة الماضية قاصداً الحي القديم، مصطحباً معه زوجتيه الأخرتين لأمر يتعلق بقضية إرث، وقد أحكموا إغلاق الباب الخارجي عليها بحيث لم يبقَ أي مجال للشك في قدرتها على مغادرة المكان.

أرشدتني بهرية إلى مخدعها وهي ممسكة بيدي. إنها تعانقني الآن فتنتابها موجة من البكاء وتفتر شفتاها عن ابتسامة لاتلبث أن تتحول إلى قبلة تُطبع على شفتيّ.

كانت قد أفاقت للتو بدليل أن فراشها لم يكن مرّتباً بعد. حملتُ جسدها اليافع بين ذراعيّ وارتميت في أحضان السرير. ويالعبق المرأة المُسْكِر.

لوّعتني المرأة على هذا النحو لأول مرة في حياتي. تملّكني الخوف وغمرتني المتعة وانغمست في نشوة الخطيئة الأولى وتحول كل ما حولي إلى جوقة غناء صاخب ماجن.

ـ بهرية...

البراءة الصرفة. لاشك أنها هي أيضاً تشعر في أعماق صدرها بترانيم أغنية سحرية خلابة ولكنها بعيدة كل البعد عن الظن بخطيئتي، إذ لايمكن لها أن تتخيَّل بأن امرأة في عمر الزهور قد أقدمت على بذل كنوزها الدفينة أمامي دون أن يعتريها أي شعور بالحياء، بل فعَلَت كل ذلك بشوق جامح كالزهرة التي تتفتّح في ظلام الليل وتترقَّب بتلهف إشراقة الشمس في الصباح.

نتوغَّل معاً في أعماق الحديقة ـ تنسحق تحت أقدامنا الأزهار على أديم الأرض بينما الثمار تتدلى من فروع الأشجار. أُصمِّم في قرارة نفسي بأن أصارحها عندما نصل إلى شجرة التوت العالية. ولكن ما أن نصل إلى هناك حتى تشرع ڤيرونيكا بالركض صائحة «هيا، أمسك بي». أركض وراءها دون أن يكون في نيّتي الاستعجال في الإمساك بها، وأخيراً أنال منها ولاأدري من أين تأتينا الدوافع فتنجذب شفتانا إلى بعضنا البعض فيبدو لي وكأن أوراق الشجر من حولنا تتحافَف والثمار تصدح والحديقة تشدو أرقُ الأنغام كأنها قيثارة ذهبية.

ڤيرون[46] ـ يُسمع نداء خفيض. نتلفَّت نحو الصوت. إنها كريستينا. نقترب منها نراها ترتعد خوفاً ولاتقوى على نطق سوى كلمتين:

ـ «بينو» قادم.

ـ وليكن ـ تقول ڤيرونيكا وترتفع ساعديها عالياً لقطف بعض الثمار ويبدو نهداها وكأنهما سيحلقان في السماء الرحيبة.

بينو هو شقيق ڤيرونيكا ورفيق دراستي أيضاً. خوف كريستينا لم يكن نابعاً من اقتراب بينو منّا وإنّما من القبلة التي رأتنا نتبادلها. يقترب

(46) ڤيرون: صيغة التدليل لاسم العلم «ڤيرونيكا».

بينو ونرتقي جميعاً على شجرة التوت، وكانت ثمارها قد استوت تحت لفح الشمس واكتسبت مذاقاً حلواً.

على رأس فيرونيكا أيضاً تقوّضت قبة السماء ونفثت زوبعة الصحراء سمومها المميتة في روحها الهزيلة وتوارى جسدها تحت الرمال اللاهبة. وحدها نجمة الصباح ذرفت بعض الدموع الشحيحة على ذكراها قبل أن يطغى الليل على عيونها الدامية.

* * *

السماء قاتمة كئيبة في صبيحة ذاك اليوم والآثار فوق الأرض توحي بأن الثلج قد تساقط طوال الليل وغطّى الأرض بغلاف من أزهار السوسن. أحمل حقيبتي المدرسية على ظهري وأخرج من البيت وأركض نحو المدرسة. كلاب الحيّ يلقون عليّ تحية الصباح الأولى.

أرى من حولي أُناساً يغذّون الخطى وقد خيّم الصمت عليهم وبان الخوف في عيونهم. أرى امرأة واقفة على ناصية الشارع وفي عينيها خوف عميق. ثمة صمت تام يسود في كل مكان وكأن الثلج قد تحوّل إلى لحاف أبيض يكسو تابوت ضخم. تشعرني غريزتي بحدوث شيء ما، شيء يوجسني بالرهبة ويزداد وطأة كلما خطوت أماماً.

يسدل الستار خلف نافذة أحد البيوت في جو غامض وكأن أصحابها لايرغبون أن ينفذ إليهم نور النهار. يفتح امرؤٌ باب داره ويرصد الشارع من أوله إلى آخره بعينين مرتعبتين ثم يوصده ثانية.

ألتقي بكريكور آغا في الطريق وهو رجل ثقيل الحركة ولكني أجده في عجالة من أمره.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ ـ يبادرني بالسؤال فأجيبه:

ـ إلى المدرسة.

يريد أن يتفوّه بشيء ولكنه يلوّح بيده ويمضي في سبيله ويبدو لي وكأن هذا الرجل المتثاقل أبداً مثل الثور في مشيته يولي الآن الأدبار هارباً وكأنه يريد أن يتجنّب خطراً محيقاً.

ثمة نفر من الناس المنقبضين على أنفسهم، يستعجلون خطاهم مارين من الساحة الكبيرة. أود أن أستفسرهم عن الأمر ولكن لاأحد منهم يرفع رأسه ليصغي إلى ما سأقول. يمرون بسرعة عجيبة.

الحوانيت مغلقة رغم أن اليوم ليس يوم أحد ولاحتى يوم جمعة. بعض الحوانيت ماتزال أبوابها نصف مشرعة. اختلس النظر من خِصاص الأبواب فأرى في داخلها أناساً قد جلسوا في الزوايا منكمشين على أنفسهم، لاينبسون بكلمة، ينفثون دخان لفافاتهم دون أن يألوا وسعاً على الكلام، يرمقونني تباعاً ويبتسمون ابتسامة موجوعة.

كلما أقترب من الساحة الكبيرة أشعر أن السكون يزداد طغياناً. ها هي امرأة لم تجد وقتاً لتسرّح شعرها تتعدّى عتبة دارها بملابس النوم وتمسك من كتف صبي صغير لايتجاوز العاشرة من عمره وتشدّه إلى الداخل موصدة الباب من ورائها.

أصل إلى الساحة. ألمح في وسطها وعلى بساط من الثلج الأبيض كومة سوداء اللون يحيطها جنود أربعة بحرابهم البرّاقة. يدنو منهم بعض الناس فرادى ـ فرادى مذعورين منكمشين، يحملقون في الأرض ثم يغمضون عيونهم وينصرفون مطرقين.

أقترب وألمح رأساً بشرياً دون بدن وقد تجمّد الدم بجانبه فوق الثلج وأكتسب لوناً قاتماً. الرأس مائل على طرف وكأنه يغطّ في النوم. أتلفّت إلى الجهة الأخرى ويقع بصري على جسد رجل يداه مغروزتان في باطن الثلج ـ دون رأس.

أجمد في مكاني، لاأقوى على الحراك.

ـ ابتعد من هنا ـ يأمرني أحد الجنود.

فأمتثل لأوامره.

في فجر هذا اليوم وقبل أن يتبلّج الصبح كان الاستبداد العثماني قد أقدم على ضرب عنق اثنين من الثوار. الأول أمامي هنا والآخر مرميّ في الميدان الآخر شمال المدينة. لأول مرة أجد نفسي أمام الوجه البشع والمقيت للاستبداد. يكتئب الطفل في روحي وتنتابني الرغبة في العودة إلى بيتي ولكن أصوات صخب واهتياج تعلو من الطرف الآخر من الساحة. أشاهد جمعاً من الناس فأتوجّه نحوهم.

ـ إنه فؤاد بيك، إنه فؤاد بيك...

فؤاد بيك شاب تركي جميل المحيّا، عريض الجبهة، رشيق القوام، رجولي الهيئة ذو عينين عسليتين حالمتين، يرتدي ملابس شركسية ويسير بتوانٍ وخيلاء. إنه أحد الثوريين الأتراك الذين جرى نفيهم من استانبول وهو الآن يرفع عقيرته احتجاجاً على اعدام الثائرَين الاثنين.

ها هو الآن يرتقي درجات السلم الحجري لأحد المتاجر ويخطب في الجمع المحتشد أمامه، فتتلاشى نظراته الحالمة وتحل محلها نظرة مهتاجة توحي بعنف نبيل. يمسكٍ بيده قبعته الفرو بينما ينسدل شعره الأشقر على جبهته العريضة. أتمكّن بشق النّفس من تسقُّط بضع كلمات مثل «ليسقط» الخ، قبل أن تطبق عليه عناصر الدرك الموالين للاستبداد الذين راحوا يحاصرونه ويدفعونه إلى الأمام ويقيّدون يديه ويسوقونه بعيداً.

يتفرّق الناس مذعورين مرتعبين ويخيم سكون أثقل من ذي قبل ـ أعود إلى الدار. الستائر مسدلة تماماً. أدخل فلا أحد ينبس بكلمة. أتشبّث بوالدتي فتربّت على رأسي بهدوء، يضيّق السكون خناقه حول

رقبتي. أُريد أن ألعلع بصوت عال ولكن السكوت يثقلني بأغلاله. لقد باتت المدينة كلها أشبه بمقبرة. أصغي إلى دقّات قلبي الثاقبة يتردَّد صداها ثم تؤول إلى التلاشي.

رأس مبتور... أليس هذا هو مايحل برؤوس النعاج دون غيرها؟ من قام إذاً بقطع هذه الرؤوس؟

ـ الجاويش أحمد، الجاويش أحمد.. ـ يتردَّد الاسم بين الناس. فيتمثَّل الجاويش أحمد في مخيلتي على هيئة ذاك الوحش الأسطوري الذي سمعت عنه الكثير دون أن أكون قد رأيته أو حتى أفلحت في تخيّله قط.

* * *

ذات ليلة ماطرة أودت طعنة قاتلة بحياة جارنا معلم المدرسة هاكوب سيمونيان تحت شجر الشوك أمام عتبة داره. ذاع الخبر مع بزوغ الفجر بسرعة البرق ـ قتل الأتراك هاكوب سيمونيان طعناً بمدية ضربات متتالية... الأتراك، الكلاب.

ومع ذيوع الخبر اشتعل الكره بين الطرفين واستفحل الخطب ووقعت بعض المناوشات في عدة مواقع حين ندَّد الأرمن بما حدث، ونشب القتال.

عُقدت طوال اليوم الاجتماعات في دار المطرانية وكانت النيّة تتَّجه إلى إرسال برقية إلى بطريرك الأرمن في القسطنطينية[47] للتشكّي من

(47) بطريرك الأرمن في القسطنطينية (استانبول): هو الرأس الأعلى للكنيسة الأرمنية في الامبراطورية العثمانية. كان له دور بارز في الدفاع عن المصالح الأرمنية والعمل على تحقيق الإصلاحات في الولايات الأرمنية الست في شرق الأناضول. تقلص دوره كثيراً بعد الحرب العالمية الأولى وأصبح محصوراً في خدمة الرعايا الأرمن في الجمهورية التركية. كان عدد أتباعه يبلغ في بداية الحرب العالمية الأولى المليوني نسمة ولكنه أصبح لايتعدّى الخمسين ألفاً بعد مجازر 1915.

الجريمة التي وقعت. حوصرت المدينة من قبل الجنود واتخذت عناصر درك مدججة بالسلاح مواقع لها في أطراف الشوارع ومُنع الناس من التجول كما نفّذت جملة اعتقالات طالت الأرمن دون سواهم. ولجأ كثير من الناس عند خروجهم من الدار إلى وضع لفافات بيضاء حول الطربوش. فكانت عناصر الدرك تسمح لهم بالمرور ظناً أنهم من رجال الدين الأتراك. بحلول المساء باتت المدينة تعجّ برجال الدين من هذا القبيل.

استمرّ الوضع على حاله نحو ثلاثة أيام وتحول بمرور الوقت إلى كابوس مزعج. بقي جثمان القتيل في مسكنه مُحاطاً بالأقارب، إذ كان من المتعذّر تشييعه في تلك الظروف.

أُقيمت الجنازة بعد ثلاثة أيام وتم الافراج عن كل المسجونين ليشاركوا فيها. واحتشد جمع غفير من الناس يناهز عدّة آلاف جاؤوا من كل حدب وصوب كما حضر أُناس من القرى البعيدة أيضاً. ووري جثمان المغدور الثرى دون أن تقع أعمال متطرّفة حيث ساد جو من الهدوء ونكّس الناس رؤوسهم من الخزي. لماذا؟

لأنه تبيَّن بأن قاتل هاكوب سيمونيان لم يكن من الأتراك وإنّما شاباً أرمنياً بل أحد تلامذته السابقين الذين تخرَّج على يديه قبل عامين وعمل في التدريس. ولكن لماذا أقدم هاكوب (وهو اسم القاتل أيضاً) على قتل هاكوب سيمونيان؟

لقد كان لهاكوب سيمونيان قريبة جميلة في مقتبل الصبا ولع بها القاتل ولعاً شديداً. عمد أهلها إلى طلب المشورة من نسيبهم المعلم كي يبتّوا في مصير البنت. وكان رأي سيمونيان عن تلميذه السابق بأنه «ولد مجنون مغفّل». ولكي يوفقا في إقناع ابنتهما أورد الأبوان

رأي قريبهم المعلم المبجَّل بهذا الخصوص، وهو المثقف المشهود له بعلمه وثقافته في المدينة كلها. وأطلعت البنت بدورها الشابَ على الرأي المتداول عنه محاولة منها للإشارة إلى الصعوبات التي تعوقها عن الارتباط به. فقام هاكوب ـ وهو المجنون والمغفَّل حقّاً ـ بقطع الطريق أمام معلمه في منتصف تلك الليلة وطعنه بمدية أردته قتيلاً في الحال.

ولم يكن لأي تركي من سكان المدينة ضلع لا من قريب ولا من بعيد في هذه الجريمة. لاذ الأرمن بالصمت المشوب بشعور من الخزي ولكن الأتراك لم يدَّخروا جهداً في التشهير بما حدث.

* * *

لم يمض على تلك الحادثة أكثر من شهر واحد عندما عُثر على زوجة الجاويش أحمد ـ أحد الغلاة الأتراك ـ جثة هامدة على فراش الزوجية ضحية خنق متعمّد حتى الموت.

كان الجاويش أحمد يعمل منادياً[48] لما يتميّز به من صوت جهوري أجشّ. حين تحتاج الحكومة إلى تعميم إعلانٍ ما كانت تقوم باستدعائه وتكليفه بأداء المهمة. فيلعلع صوت الجاويش أحمد على حين غرّة منادياً ـ... وأولئك الذين لاينصاعون سيُرفعون على أعواد المشانق... ـ لابد أن تُختتَم بياناته بتذكير فجّ بالعقوبة القصوى الموقعة.

فجأة وفي منتصف الليل تنبّه الناس إلى صوت الجاويش أحمد في حارتنا وهو يصيح هذه المرة «لقد خنق الأرمن زوجتي ولاذوا بالفرار...». أعقبه هدير مدوّي وكأنه عويل وحشي صادر من سطح الدار الذي صعد إليه الجاويش وراح يذرعه جيئة وذهاباً، دائراً حول

(48) المنادي: شخص يطوف في الشوارع ويذيع البيانات الرسمية على الناس.

نفسه، مولولاً معولاً، رافعاً ساعديه إلى الأعلى، ملوّحاً بهما في الفراغ، مردداً عبارته «خنق الأرمن زوجتي ولاذوا بالفرار...».

استفاق الناس جميعاً من نومهم وكان الوقت قد تأخر فجلسوا في أسرّتهم وقد أخذتهم الرهبة فابتهلوا إلى الله ولاذوا بالصمت يرقبون ما عساه أن يحلّ عليهم من مصائب مع طلوع الفجر. ولكن الكارثة لم تتمهّل حتى الصباح وداهمتهم في عَرْض الليل.

اكتظ دار الجاويش أحمد بعناصر الدرك والعامّة من الأتراك. وكانت رواية الجاويش أحمد التي نقلها إليهم تؤكد بأن الأرمن قد تسللوا إلى داره وقيدوه وكمّموا فمه بسدادة من قطن ثم انهالوا عليه ضرباً وهو يحاول تحرير نفسه من وثاقه وخنقوا زوجته على سرير نومها قبل أن يولوا الأدبار هاربين.

ومال الأرمن أيضاً إلى تصديق هذا الكلام لأنهم اعتقدوا أنه عمل انتقامي، إذ كان الجاويش أحمد هو الوحيد الذي رضي قبل عدة أشهر القيام بدور الجلاد عند إعدام الثائرين الأرمنيين في الساحة العامة مستعملاً يطقان[49] اللحّامين. وهو لم يكتفِ بذلك بل راح بعد قطع الرأسين يغرف الدم براحتي يديه ويمسح به لحيته ثم ركع على بعد خطوات من الرأسين المبتورين وأقام الصلاة.

بدأت الاعتقالات منذ منتصف الليل واستمرت حتى طلوع الشمس وغصَّ السجن بالأرمن صباحاً. كانوا طوال الطريق إلى السجن يضربون المعتقلين ضرباً مبرحاً ويبصقون في وجوههم ويطعنون في شرفهم.

أما ما حدث في الحقيقة فهو ـ في مساء اليوم الذي وقعت فيه الحادثة كان الجاويش أحمد قد أبلغ زوجته بأنه ينوي الذهاب إلى القرية

(49) اليطقان: سيف تركي محدَّب.

وهو ما اعتاد القيام به في مرّات أخرى. وقصد السوق بغرض استئجار حصان يستعمله في سفره، ووعده بعض السَّاسة بتأمين غرضه ولكنهم جعلوه ينتظر حتى وقت متأخر من الليل دون نتيجة. وعندما لم ينل مراده عاد إلى داره خائباً ليجد هناك أن شاباً تركياً قد استباح حرمة داره وزوجته مستلقية في أحضانه. توغّر صدره على هذا المشهد وثارت ثائرته وأمسك الشاب اليافع من رقبته وراح يخنقه حتى تلفَّظ أنفاسه الأخيرة فألقاه في بئر الماء ثم خنق زوجته الخائنة أيضاً وتركها في سريرها وأسرع يعتلي سطح الدار ويصيح مستغيثاً «خنق الأرمن زوجتي ولاذوا بالفرار..».

استخرجت جثة التركي الشاب من قعر البئر وتم اعتقال الجاويش. كان أهل الفتى المُلقى في البئر من أعيان المدينة ومن ذوي الثراء فتابعوا قضيتهم حتى صدر الحكم بنفي الجاويش إلى قونيا[50] وحرمانه من العودة إلى المدينة ثانية.

ولم يطلق سراح المعتقلين الأرمن كلهم دفعة واحدة، إنّما واحداً فواحداً وبفارق زمني ملحوظ ودام التحقيق معهم حول الجريمة حتى آخر لحظة من الإفراج عن آخر واحد منهم، رغم أن ملابسات الجريمة كانت قد أصبحت واضحة تماماً.

* * *

دنا أحد الأتراك من صاحب متجر أرمني وبعد أن أُعجب ببضاعة ما كانت معروضة هناك استفسر عن ثمنها. فأجاب البائع الأرمني:

ـ الذراع بعشرةِ قروش.

(50) قونيا: مدينة من مدن تركيا الداخلية أصبحت عاصمة الأمراء السلاجقة بعد تغلغلهم في آسيا الصغرى.

فقال التركي:

ـ أعطنيها بخمسة قروش.

ـ لايسعني ذلك، فالبضاعة نفسها قد كلفتني ثمانية قروش.

أصرَّ التركي على اقتناء البضاعة بخمسة قروش أما البائع الأرمني فقد رفض أن يبيعه بذاك السعر، فانصرف التركي على مضض وهو يعضّ على أسنانه.

انقضت عدة أيام قبل أن يعلو لغط في الحيّ. تبيَّن أن الأتراك ينهالون ضرباً على البائع نفسه الذي أبى قبل عدة أيام أن يبيع بضاعته بخمسة قروش. كان التركي قد مر به في الشارع وسأله:

ـ ألن تبيع بخمسة قروش، أيها الكافر؟

ـ كلا.

عندها راح التركي يصيح مستنجداً:

ـ لقد قدحني في ديني، تعالوا اشهدوا يا ناس، كنت أمرّ من هنا بسلام فأسمعني أقذع الكلام بحق النبي والدين المقدس...

وأخذ الرعاع يكيلون الضربات على رأس البائع الأرمني الذي كان يردّ على كل ضربة قائلاً:

ـ لن أبيعها بخمسة قروش، ولكن أهبها دون مقابل، خذوها.

ولم يكن أحد يكلّف نفسه مشقة الاستفسار عن معنى ماكان يردده الرجل المُشبَع ضرباً وعلاقة ذلك بالدين المقدس.

* * *

كان للصائغ ديكران كرم يقع بالقرب من مسلخ المدينة. كنت أقضي زيارة لقريب لي يملك كرماً مجاوراً حينما دلف أحد الأتراك

إلى كرم ديكران حاملاً سلة وطلب منه أن يملأها عنباً.

لم يشأ ديكران أن يقدم له العنب ولكن والدته تدخلت قائلةً:

ـ أعطه ليذهب، قد يحقد علينا.

أعطاه ديكران مقداراً من العنب أقل من سعة السلة. طالبه الآخر بأن يجود عليه بسلة ملأى.

ـ إذا ملأتُ لك سلتك قد تنوء تحت ثقلها ـ قال ديكران ممازحاً وملمّحاً في الوقت ذاته بأنه لاينوي الاستزادة في عطائه. ولكن التركي لم يتخلَّ عن مطلبه وأصرَّ أن تُملأ السلة. تدخلت والدة ديكران ثانية ولكن ديكران استشاط هذه المرة غضباً وأبى أن ينفِّذ الطلب محتجاً:

ـ أعطيتك ما يكفي دون مقابل.

ولكن التركي لم ينكص عن مطلبه فاشتبكا.

كان ديكران نحيل الجسم، ضعيف البنية، أما غريمه فقد كان قوي الساعدين، ضخم الجثة. تقهقر ديكران منهزماً وأشبعه غريمه ضرباً حتى خسر سناً من أسنانه. لم يتدخّل أحد لنصرته. وراحوا يقولون «قد يذهب الوغد ويجلب لنا المتاعب»، وتركوا ديكران تحت رحمته.

بعد خمسة أيام استدعي ديكران إلى المحكمة. ذهبتُ لحضور مداولات القضية رغم أن والدتي كانت قد أوصتني بعدم التواجد في مثل تلك الأماكن.

مثل التركي أمام المحكمة ومنديلاً أبيض يغطي جبينه وادعى ان ديكران قد رجمه بالحجر وشجَّه في جبينه كما قدّم إلى المحكمة التقرير الطبي عن جرحه فصدر الحكم بحبس ديكران مدة شهرين. أُقتيد إلى

السجن والضربات تنهال عليه من كل جانب. كان ديكران طوال محاكمته يكابد العناء ليجعلهم يصغوا إليه ولو لمرة واحدة.

ـ انزعوا المنديل لترو إن كان هناك جرح أم لا.

أما المحكمة فقد وجدت أن تقرير طبيب الدولة وحده دليل كاف لإدانته.

بعد أن اقتيد ديكران إلى السجن وخرجنا جميعاً من دار المحكمة شاهدت بأم عيني كيف تدرّج التركي إلى وسط الشارع وهناك نزع المنديل بكل طمأنينة ودسّه في جيبه، وكان واضحاً تماماً بأنه لايحمل أي أثر لخدش على جبينه ناهيك عن جرح بليغ.

* * *

في نهار أحد الأيام ذاع خبر مروّع مفاده أن أحد الحلاقين الأرمن قد أقدم على قطع ودج أحد زبائنه الأتراك. انتشر الخبر كالنار في الهشيم وسعى كل صاحب محل إلى إغلاق محله والاستعجال بالرجوع إلى داره. وفي ظرف ربع ساعة خلا السوق تماماً من الناس كأنه يوم أحد.

ما الذي حدث؟

عندما كان الحلاق يقوم بعمله اقترب منه أحد معارفه وهمس في أذنه:

ـ لقد اختلط الحابل بالنابل في الخارج بين الأرمن والأتراك، فما أراك تفعل هنا؟

وكانت تلك في الحقيقة دعابة سخيفة ولكنها كانت كافية لدفع الحلاق للاعتقاد بأن العراك قد نشب في الخارج فعلاً، وبما أنه أمام فرصة ملائمة تماماً فقد عزم على الاستفادة منها على أكمل وجه فأهوى

بمشرطه على عنق زبونه التركي الذي كان وقتها يغفو نصف اغفاءة، ثم ألقى بنفسه إلى الخارج والمشرط في يده ليضطلع بدوره في الشجار المندلع. ولدى خروجه من المحل وجد أن الهدوء يسود في كل مكان فصعق من هول ماينتظره من قصاص ولم يجد أمامه منفذاً سوى أن يمتطي حصانه ويفرّ من المدينة.

في المساء اقتاد رجال الدرك زوجة الحلاق إلى السجن وهم يكيلون لها الضربات، مرغمين إياها على البوح بمخبأ زوجها.

* * *

وتم الاعلان عن الدستور العثماني. وتبادل الناس من كل الأعراق القبل وراحوا يتصافحون ويتعانقون وقد جاشت صدورهم بمشاعر الحب والأخوة التي أسرفوا في التعبير عنها أيما إسراف. وفُتحت أبواب السجون وخرج منها السجناء السياسيون ومن بينهم اثنان من أساتذتي.

نُظِّم مهرجان عن الحرية أمام المبنى الحكومي برع فيه الخطباء الثوريون الأتراك في الإشادة بالتشريع الجديد المسمَّى بـ «القانون الأساسي» (الدستور). وكانت تلك هي المرة الأولى التي رأيت فيها ثوريين أتراك - فهل كان من المعقول أن يوجد في صفوفهم أمثال هؤلاء؟ - لم يكن أحد قد أخطرني بذلك من قبل لذلك كان اعتقادي لايميل إلى التسليم بوجودهم.

كنت في طريق عودتي من المهرجان وأنا منبسط السريرة ولكن منهك مغبرّ متضوّر جوعاً، عندما التقيت بـ «شمسي» في الشارع. كان قد مضى زمن طويل على آخر مرة تبادلنا فيها التحية. كان قد نَعتَ والدي بالكافر ووصفت أنا والده بالكلب. ما أكثر ما كنا نفعل ذلك وما أسرع ماكنا نميل إلى التصالح. إلّا أن الإساءة هذه المرة طالت

أهالينا، وقد شعرت بالوطأة الشديدة لكلامه الجارح خاصة وأن والدي كان ـ حين أتى شمسي على ذكره ـ يذوي في مرقده الأخير ويتحول إلى تراب.

نظر إليَّ شمسي من طرف عينه. بادلته النظرة وابتسمت. ابتسم هو أيضاً. لايمكن لي أن أصف بدقة كيف تحركت أقدامنا وتقاربت من بعضها البعض وتشابكت سواعدنا. أمسك شمسي بيدي وأخذني إلى داره. بدا ذاك المكان المألوف في السابق وكأنه غريب لطول غيابي عنه. سار بي إلى الداخل دون أن يراعي الأعراف المتعلقة بالغرباء. قبَّلْتُ يد والدته والتفتّ فرأيت سنيّة التي كانت واقفة تبتسم. امتدت أيادينا نحن الاثنين بمثل تلك العفوية التي تلتقي بها يدا الإنسان عندما يهمّ بالتصفيق.

كان قد مضى وقت طويل مذ رأيتها دون الخمار البنفسجي الذي يلفّها فبدت لي وكأنها قد فقدَت قليلاً ـ قليلاً جداً ـ من رومانسيتها وأصبح دمها أكثر فوراناً.

عندما شددت الضغط على يدها تضرَّجت وجنتاها استحياءً وارتعشت شفتاها والتفتت نحو والدتها وشهقت كلمات مبهمة. أحسست في تنهيدتها كثيراً من الأنوثة جعلني أتخيلها في الحال وهي مجرَّدة من ثيابها.. ها هي الآن تسبح في البركة، يتلاطم الماء البارد على صفحة جسدها الدافئ دفء الشموس.

* * *

القبل والعناق لم تُجد شيئاً إذ لم يمض أكثر من بضعة أيام حتى راح «حكماء» الأرمن يتوجَّسون شراً ويحضّون إخوانهم «بألّا ينخدعوا». أما «حكماء» الأتراك فقد توَّجسوا هم أيضاً شراً وراحوا ينبّهون إخوانهم

«كونوا حذرين، فالأرمن يعملون على تسلّم مقاليد الحكم في البلاد وإلغاء الدين».

وعاد الزمن إلى الوراء من جديد.

* * *

عندما كنا أطفالاً صغاراً كنا نلعب لعبة تدعى «أرمن وأتراك». كانت لعبة بسيطة للغاية ـ في الوسط كومة من الحجارة تدعى القلعة. يتوزّع الصغار إلى مجموعتين تهدف كل منهما احتلال القلعة وتدعى المجموعة الأولى «أرمن» والثانية «أتراك».

ـ أواه، لقد اقتحم الأتراك القلعة....

ـ انتبهوا لقد اقترب الأرمن من القلعة، حطّموا عظام رؤوسهم...

وهي لعبة كانت تعد بريئة، شغف بها الأطفال إلى أن اندلعت الحرب الكبرى، التي جرت فيها وقائع اللعبة ذاتها باختلاف واحد هو أن الطرفين هذه المرة كانا حقاً من الأرمن والأتراك وقد تحفّزا للعبتهما وراحا يمارسانها على أرض الواقع والكراهية العمياء تشتعل في صدورهما.

لم يكن أحد على الإطلاق ينتهرنا للكفّ عن هذا اللهو. عندما كنا نحن الصغار ننهمك في وضع تفاصيل اللعبة، كان الكبار ـ أصحاب اللحى والشوارب ـ وهم أناس يتّسمون بالجدية ويتمتعون بسمعة الناس الحكماء ـ ينظرون إلى مانقوم به ويتبسمون. أما جموع المتفرجين فقد كانت تبتهج أشد الابتهاج كلما تعرض «الأتراك» للهزيمة. تبلغ الإثارة مبلغاً يبدأ فيها «الأرمن» و«الأتراك» بتراشق العبارات والنعوت المشينة التي اعتادوا استعمالها في الحياة اليومية خارج نطاق اللعب. ومع اشتداد جذوة اللعب يبدأ الصغار بالصياح كل يمثّل طرفه:

ـ سددوا ضرباتكم إلى الكلاب...

ـ احترسوا، لقد جاء الكفار...

قبل الشروع في اللعب كنا على الدوام نقف أمام الصعوبة نفسها ـ لاأحد يريد أن يدخل في مجموعة «الأتراك». نضطر إلى سحب ورقة حظ. من كان يسحب ورقة «الأرمن» كان يفرح فرحاً بالغاً، أما أولئك الذين يسحبون ورقة «الأتراك» فيحزنون ويشاركون في اللعب على مضض لا لشيء سوى من أجل الحفاظ على الانضباط الجماعي في اللعب.

هذه هي الروح التي كنا ننشأ عليها. فبدل أن نقول عن الفلفل أنه «حِرِّيف» كنّا في الدارج نقول أنه «تركي». وفي لهجتنا «تترَّكَ المرء» (أي أصبح تركياً) كان يعني أنه ثار ثورة هوجاء وتحول إلى وحش كاسر، وكنّا نقول «لقد نفد صبري، تترَّكْتُ».

والأجيال اللاحقة ستذكر هذه الحكاية العجيبة:

«كان يا ماكان، في قديم الزمان، كان هناك شعب عريق ضئيل العدد، يقطن في الأرض الممتدة من بحيرة ڤان حتى البحر المتوسط ومن تخوم بغداد حتى حدود بيزنطة. عمل أبناء هذا الشعب في كل مجال فمنهم من كان فلاحاً أو مهنياً، مثقفاً، تاجراً، مالك أرض، حمّالاً، موظفاً حكومياً رفيع المستوى، عامل نظافة، خادماً، اقطاعياً... الخ. ولعت بهذا الشعب الشعوب البعيدة الرغيدة التي تربطها به صلات قرابة وكذلك شغف به كبار الوزراء في الحكومات الغربية، لأن أبناء هذا الشعب كانت لهم عيون سوداء جميلة وكانوا ينشرون الحضارة في بحر الظلام في الشرق. وانطلاقاً من مشاعر الحب الجارف قامت هذه الشعوب البعيدة والرغيدة ممثلةً بوزرائها المبجّلين بدفع هذا الشعب إلى

أتون الحرب مع مستعبديه الذين اختلفوا عنه عقيدة وجنساً وثقافة وملكوا السلاح والعتاد وتحكموا بالجيوش والأساطيل وكانوا فوق ذلك يفوقونه عدداً. اندلعت الحرب الكبرى وطغى دخان البارود على الأصقاع وسالت الدماء أنهاراً فأرتأت الشعوب المتعاطفة ووزراء حكوماتها أن تزأر في وجدان هذا الشعب «هيا، لقد دقّت ساعة الحرية، هيا حطّم أغلال عبوديتك وانتصر لكرامتك المهدورة». تألق بريق الحرية في العيون الجميلة السوداء التي يتمتع بها أبناء هذا الشعب العريق ودارت معركة غير متكافئة وجّه فيها هذا الشعب ضرباته بكل قوة وتلقّى الضربات الجسام ولم يتبقَّ منه سوى نفر قليل بمثابة ذكرى لهذا الحدث الوخيم. وأخيراً لم يتورع الوزراء في التداول على بقايا عظام وزفات هذا الشعب بأقصى مايمكن تصوره من تهكم وصَلَف...

وسقطت من السماء ثلاث تفاحات[51]....

□ □ □

(51) خاتمة تقليدية تنتهي بها الحكايات الشعبية الأرمنية وتفيد العبرة والاتعاظ.

18

في ذلك العالم كانت هناك جماعة من الناس ممن ترعرعوا في أكوام الرماد وبقايا الخَبَث المتراكم خلف مواقد الحمامات الشعبية. يُطلق على الواحد منهم بالتركية كولخان بيك (أي أمير أكوام الرماد)، وهم أناس مجهولو الأصل والنسب، كانوا يهيّئون لأنفسهم في فصول الشتاء مراقد لهم في خَبَث الأفران، يندسّون تحته وينامون متدثرين ببقايا الجمر المُطفَأ، خلاصاً من البرد القارس.

كان أُمراء الرماد هؤلاء أشباه عراة، يحيون حياة تشرّد، يلتمسون الصّدقات على عتبات الأبواب، معرّضين أنفسهم للضرب والإهانة، يقتاتون بقشور البطيخ والشمّام والتفاح الملقاة في القمامة، يتخاطفون اللحم من براثن القطط، يستحوذون على رؤوس أو أفخاذ الخرفان المذبوحة في محلات الجزّارين، يلتقطون بيض الدجاج خلسة من الأسواق ويخطفون الثمار والحلوى من أيدي أطفال العائلات المنعمة.

عند الظهيرة كانوا يجتمعون خلف الثكنة العسكرية وينتفعون من الحساء المهدور. كانوا يعتدون على عربات البعير المحمّلة القادمة إلى المدينة فيشتبكون مع أصحابها ويتقاتلون ملحقين بهم الأذى الجسيم. كل ذلك من أجل حفنة من القمح أو الدقيق. كانوا يفضلون الاعتداء على أحمال الشوندر السكري لأنهم بذلك يحصلون على الشوندر الذي يمكن تناوله بعد شيّه في الجمرات المرمدة التي تلفظها مواقد الحمامات.

لم يكن هناك أي تنظيم حكومي أو ديني أو اجتماعي أو خيري يعنى بشؤون هؤلاء «الأمراء». فكانوا يتولون دفن موتاهم بأنفسهم قرب أكوام الرماد دون أن يخلو ذلك من نزاعات عنيفة تصل إلى حد تحطيم بعض الرؤوس في الصراع الدائر حول تقاسم أسماله البالية فيما بينهم.

ووفق القانون البلدي كان من المتوجب على صاحب الحمامات أن يقوم بتنظيف أكوام الرماد عدة مرات في العام، فكانت تظهر خلال ذلك عشرات الجثث للعيان، البعض منها تعود لأناس غطوا في النوم ولم يفيقوا أبداً.

* * *

كان «علي» أحد أمراء الرماد أولئك، وهو أكثرهم وسامة وبأساً، يمتاز بالقامة الطويلة والهيئة الحسنة والقوة الضاربة. لم يكن قد نيف على الخامسة والعشرين حين استدعاه والدي وعيّنه أميناً على المزرعة. لقد كانت مزرعتنا تتعرّض للتخريب على أيدي «أمراء الرماد» ولكن بعد أن تسلّم عليّ مهمته الجديدة لم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب من المزرعة. كان علي يمدّ في بعض الأحيان أتباع مجموعته المقرّبة بالثمار والخضار التي تنتجها مزرعتنا ولكن والدي كان راضياً عنه فبفضل حمايته نجت المزرعة من الاتلاف المحتم.

كان عليّ إنساناً أميناً صريحاً جسوراً، يخرج مظفراً كل مرة يقارع فيها عناصر الدرك. حين بدأ بالعمل عندنا استبدل ملابسه القديمة بأخرى جديدة واستحمَّ للمرة الثالثة في حياته وقصَّ شعره وحلق وجهه ولفَّ حول خصره زناراً طويلاً عريضاً أخضر اللون أقحم فيه خنجراً وغليوناً رفيعاً مثل العصا الذي يستعمله في تأديب المتطاولين.

رغم هذا التحول الكلي في مظهره لم ينس الناس نشأته الاجتماعية وفي كل مناسبة كانوا يرمون في وجهه بكلمات الإزدراء نفسها:

ـ كولخان بيك...

دخل عليّ ذات يوم على والدي وقال والحياء يغلبه:

ـ يا حاج أفندي، إنني أفكر بالسفر إلى مدينة أُخرى. فكلهم هنا يعرفون بأنني «كولخان بيك».

وأجهش هذا الرجل الشديد البأس الذي لم يعرف قط في حياته معنىً للدموع، أجهش بالبكاء من العار الذي يلحقه بسبب أصله وانسابت الدموع الحرّى متدحرجة على خديه، دموعاً لم تعرف جفونه مثيلاً لها من قبل إذ لم يكن قد بكى في السابق إلّا تحت طأة العصا وضربات السياط المفاجئة التي كانت تنهال عليه من رجال الدرك.

ـ لاتصغ إلى مايقال. فبعد عدة سنوات سينسى الناس بأنك «كولخان بيك» وستصبح مثلهم ـ قال والدي ودسَّ في يده عدة قطع من المجيديات الفضية.

لم يكن عليّ يحتفظ عنده بالمال الذي يعطيه له والدي وإنّما يستأمن خالتي العجوز عليها ولم تكن لديه حاجات تزيد على المأكل والملبس، فطعامه يأكله عندنا ويرتدي الملابس التي تشتريها له والدتي وتموّنه عمتي العجوز بالتبغ من مخزون والدي الخاص من تبغ طرابزون[52].

اهتم عليّ في تأمين عمل لكل فرد من أفراد جماعته، فأوجد للبعض منهم أعمالاً منزلية بفضل العلاقات التي أنشأها بالعمل لدينا وأوجد للبعض الآخر أعمالاً في قيادة عربات الخيل والاعتناء بالخيول، أمّا من

(52) طرابزون: مدينة ساحلية في شمال شرق تركيا الحالية، تطل على البحر الأسود. كانت من أشهر مدن اقليم البنطس في العهد البيزنطي وهي منفذ أرمينيا الطبيعي على البحر الأسود.

تبقى منهم فقد تورطوا في عمليات قتل وهربوا إلى الجبال وشكلوا هناك عصابات راحت تبث الذعر في الجوار. وقد قيل أن رفاقه الأشرار هؤلاء كانوا ينزلون من الجبل بين الفينة والأخرى ويجعلون من مزرعتنا مضافة لهم ولكننا لم نرَ أبداً شيئاً من هذا القبيل.

في أكثر من مرة أبقت السلطات في مزرعتنا بعض رجال الدرك المتنكرين بهدف القبض على رفاق علي من رجال العصابات ولكن كل المحاولات باءت بالفشل. علامة واحدة على باب السور كانت تكفي كي لايدخل إلى المزرعة هؤلاء الرجال المنحدرين من الجبل. ولكي لايضيع جهدهم هباءً كانوا ينهبون عابري السبيل قبل أن يولوا الأدبار.

كانت والدتي قلقة على الدوام من أن يتعرض هؤلاء الأشرار لوالدي في يوم من الأيام وينهبون ما معه. وكانت تقول له:

ـ عد باكراً من المزرعة. سينهبونك أنت أيضاً في يوم من الأيام. لاتأخذ معك ساعتك ونقودك على الأقل.

وكان يرد عليها.

ـ لاتأبهي يا امرأة. إنهم يعرفونني جيداً و «لن يشربوا مثل هذه الشَّرْبة»[53].

ولكنهم في يوم من الأيام «شربوا مثل هذه الشَّربة». عاد والدي وقد سُلب منه كل شيء. ذكّرتْهُ والدتي بتحذيرها ولكنه ردّ عليها بالقول:

ـ كان الوقت مظلماً جداً يا امرأة، كما أنهم لم يتعرفوا على صوتي.

(53) مثل شعبي والمقصود هنا أنهم لن يفعلوا شيئاً من هذا القبيل.

ـ هل كان مظلماً إلى هذا الحدّ الذي يجعلهم لايتعرفون عليك؟

ـ إذا كانوا قد تعرفوا عليّ كما تقولين لما أقدموا على «شرب مثل هذه الشربة».

أرسل والدي من قام باستدعاء علي من المزرعة ليلاً، فجاءَ هذا الأخير على جناح السرعة وقد تقطّعت أنفاسه. أخبره والدي بما حدث فاغتمَّ كثيراً وغادر المنزل دون أن يتفوَّه بكلمة.

في الصباح الباكر رمى رجال مجهولون من النافذة ما سُلب من والدي من ساعة ومعطف وأموال وجملة وثائق. وقبل انتصاف النهار جاء عليّ ومثل أمام والدي وقال وقد لحق به العار:

ـ يا حاج أفندي، لم يتعرفوا عليك.

قال والدي:

ـ لابأس، إنهم أُناس يردّون عن أنفسهم غائلة الجوع. لا ألومهم على ذلك.

ذاد عليّ عن مزرعتنا بكل أمانة وبسالة ولم يكن يمر 8 ـ 10 أيام دون أن «يسفك دماً» من أجل شجيرة أو حتى وريقة ضئيلة الشأن في المزرعة.

ذات يوم وقف علي أمام والدي وأفكار شتى تؤرق باله. التمعت عيناه وكأنه قد اكتشف شيئاً ما ويريد الافصاح عنه ولكنه لايجد الجرأة الكافية على فعل ذلك. سأله والدي:

ـ ماذا هنالك يا علي؟

ـ يا حاج أفندي، هناك شيء أُريد أن أطلعك عليه ولكنني على خجل من أمري لأنني أخشى أن تستهزئ بي.

ـ قل لاتخف ـ طمأنه والدي ـ إذا كان الأمر يستدعي الضحك سنضحك جميعاً، لماذا أنت متردّد؟

وبدأ كلامه بعد تردّد لم يمنعه مع ذلك من الحديث بنبرة صادقة مقنعة.

ـ يا حاج أفندي، لقد قررت أن أذهب إلى مكة حافي القدمين، أن أحجَّ إلى البيت الحرام وأعود منه. لقد أخذت على عاتقي هذا النذر وأريد أن أفي به.

ـ ما أزمعت عليه شيء حسن. توكَّل على الله واذهب، ولكن لماذا حافي القدمين؟

ـ حافي القدمين كي تتحقّق الأمنية التي في بالي.

ـ حسناً، حسناً ـ أنهى والدي كلامه ـ ولكنَّ عليّاً كان ينوي أن يفاتحه بموضوع آخر هو في الحقيقة سبب تردده واستحيائه منذ بدأ بالكلام.

ـ ياحاج أفندي، إنني فداء لك ـ قال متوسلاً، وأدرك والدي ما يرمي إليه.

ـ تكلم يا عليّ، تكلم وقل ماتريد، فأنا مدين لك بالشيء الكثير.

تجرّأ علي وقال متلعثماً:

ـ يا حاج أفندي، إن أعطيتني ليرتين ذهبيتين فلن أموت جوعاً في الطريق.

ـ ليرتان فقط لاتكفي ـ قال والدي ـ سأمنحك خمس عشرة ليرة.

انحنى عليّ أمام والدي وأمسك عروة ثوبه وراح يقبلها. وفي اليوم التالي أعلن على الناس اعتزامه على أداء فريضة الحجّ. ووفق العادات

الإسلامية توجّب على أصدقائه أن يغدقوا عليه بالأُعطيات قبيل توديعه إلى بيت الله الحرام.

في اليوم التالي حين أحصى والدي في يد علي خمس عشرة قطعة ذهبية، مسَّ ذلك حس والدتي الديني فقالت له محتجَّة:

ـ إذا أراد مسيحيٌ أن يحجّ إلى بيت المقدس لما كنت ستعطيه قدر هذا المبلغ.

ـ أنا أعرف ما أقوم به ـ رد عليها والدي وأضاف ـ إن عاد سالماً فسيعوضني عن كل هذا.

بعد عدة أيام، حين انطلق علي في رحلته عاري القدمين متدثراً بثوب خبب متقطع، ممسكاً بيده عصا طويلة غليظة، لم يكن هناك سوى نفر قليل من أبناء ملّته في وداعه، ولم يتلقَّ من الوذائم شيئاً يُذكر وذلك لأن انتماءه الاجتماعي رجح على المشاعر الدينية والعقيدة المشتركة.

قبّل علي والدي ثانية من عروة ثيابه ثم قال بنبرة فيها الكثير من التصميم والجرأة والعناد.

ـ يا حاج أفندي، «لن أترك حجرة فوق حجرة في هذه الدنيا»[54].

قبّله والدي من جبهته ودسّ في يده خلسة ليرة ذهبية أخرى وأردف قائلاً:

ـ عندما تمر من القدس ستجد هناك بئر ماء هي بئر يعقوب، حيث التقى المسيح بالمرأة السامرية. أُريد أن تشعل شمعة على تلك البئر من أجل روحي.

(54) مثل شعبي والمقصود هنا أنه سيرى كل مافي وسعه أن يراه في أسفاره.

ـ سأشعل لك أكثر من شمعة يا حاج أفندي، لاتقلق أبداً ـ كان هذا آخر ماقاله علي قبل أن يمضي في طريقه إلى مكة.

رحل علي ومضت سنتان ولاخبر عنه. قال كثيرون:

ـ لقد ذهب إلى مدينة أُخرى وجعل من النقود التي أعطيتها له رأسمالاً أسس به دكاناً يسترزق من ورائه.

لم يحد والدي عن رأيه قيد أنملة:

ـ سترون كيف سيعود إلى هنا آخر المطاف.

عاد بعض الأتراك من سكان مدينتنا ممن قصدوا مكة واستفسر والدي منهم عن علي:

ـ لقد شاهدته في القدس ـ قال له أحدهم ـ لابد أنه سيتأخر في العودة لأنه يسير على الأقدام.

أذاع الحجاج المسلمون الأخبار في المدينة كلها عن حماسة علي وروحه الدينية المتّقدة. بمثل تلك الروح والتضحيات لابد أنه سيمحو كل «الدنس» الذي لحق به من منشئه الاجتماعي الوضيع.

* * *

بعد مضي ثلاث سنوات عُلِّقَت ذات يوم على جدران المدينة اللافتات التي تعلن عن عودة علي من مكة حافي القدمين متعباً منهكاً وبأن من واجب كل مؤمن أن ينهض لاستقباله. ذاع أنَّه راجع بفضائل ونِعم لامثيل لها، استحقَّها لأنه سار إلى مكة عاري القدمين وقد لفحت شمس الصحراء العربية جبينه واكتوت قدماه على الرمال اللاهبة.

بعد يومين أُطلق عليه لقب «بيك»، وقد نال هذا اللقب من عامَّة

المؤمنين بطريقة عفوية تماماً، قبيل مجيئه الفعلي. واستعد كل مؤمن لاستقباله بالأعطيات والهبات.

كان الفصل صيفاً وطبقات الهواء تتماوج بفعل حرارة الظهيرة على صفحة الحقول بينما تلقي الشمس الحارقة اللاهبة جذوتها على أغمار السنابل.

احتشد ألوف الناس على طول الطريق المعفَّرة. اغبرّت السجاجيد الشرقية المفروشة على امتداد ميلين أو ثلاث من الطريق وفقدت بريق ألوانها السحرية.

ظهرت نقطة في الأفق البعيد وراحت تدنو شيئاً فشيئاً حتى اكتسبت ملامح مألوفة. إنه علي ذاته يعتمر قبعة خضراء ويرتدي جلباباً طويلاً أخضر اللون، يمسك العصا الطويلة الغليظة نفسها التي كانت معه منذ اليوم الأول، قدماه حافيتان، صدره عار، ذراعه مكشوفة يظهر عليها وشم الحجّ، دلالة على النعمة التي أُسبغت عليه جزاء رحلته المضنية التي قام بها عاري القدمين مرتدياً أسماله المهترئة.

أخذ الناس يأتونه من كل ناحية في عجالة بصمت وإجلال واجتمعوا حوله يقبّلون بكل خشوع وشم الحج، تلك العلامة الشريفة، رمز استحقاق صاحبها لنعمة ربّه وهداية للمؤمنين تذكرهم بنعيم الجنة.

كان كل من يقبّله أو يلامس أهداب أسماله أو طرف عصاه يمنح أُعطيته إلى هذا الصالح المختار. فكان منهم من منحه أجناساً من الخيل والبعض الآخر تنازل له عن جزء من أملاكه وآخر وهبه دكاناً بأكمله، وآخرون حملوا إليه أصنافاً من الحرير وقطعاً من الفضة والذهب وأوان منزلية ولحف وسجاجيد وأسرّة أغطيتها من أفخر القماش المطرز ومدافئ حطب الخ. وكان الواحد منهم يقبّله ويعلن عن أعطيته. وهكذا امتلأت

العربات التي أُحضرت خصيصاً لهذا الغرض ولما تنتهي الأُعطيات بعد. أما عليّ فقد كان صامتاً مخلوع الفؤاد، وجهه معفّر بغبار الطريق. لقد دخل إلى المدينة دخول الفاتحين العظام وأسطحة المنازل تغصّ بجموع الناس الفضوليين ومشربيات البيوت تخترقها نظرات النساء، تساور قلوب الأمهات منهن الأمل في تزويج بناتهن الصغيرات إلى الصالح المختار.

بقي علي واجماً لاينبس بكلمة وقد نضح جلده العرق وامتزج بالغبار وسال في مسارب على جبينه وأطراف حاجبيه. أخذ يمشي بخطى وئيدة واهنة إلى أن وصل إلى الجامع المشاد في وسط المدينة وهناك انحنى على الأرض أمام مصطبة الباب وقبّل حجره المرمري المتآكل واتخذ وجهة الجنوب ليصلّي ثم دخل الجامع وأقام الصلاة فيها مرة ثانية، وأخيراً نزل في قصر ريفي قُدّم له من بعض الأعيان، وفور وصوله إلى هناك أبدى رغبة في الخلود إلى النوم.

لم يذهب والدي لملاقاة علي فور وصوله ولكن هذا الأخير أرسلَ في منتصف الليل رجالاً في طلبه كي «يتلقّى بركته». حين دخل عليه والدي في مجلسه نهض علي من مكانه واندفع نحوه يعانقه قائلاً:

ـ يا حاج أفندي، بفضلك تحقّق لي ما أردت ولم أترك حجرة فوق حجرة في هذه الدنيا.

قبيل افتراقهما ألحَّ علي بيك على والدي أن يَقْبَل منه النقود التي استلفها منه ولكن والدي رفض ذلك رفضاً باتّاً وقال:

ـ لقد قدّمت لك ما قدّمت من أجل روحي.

ووعد علي بيك والدي أن يمد له يد العون في محنه ومصائبه ولو استدعى الأمر أن يخاطر بحياته. وشكره والدي على ذلك.

* * *

بعد عودته بما يقرب من الشهر فتح علي دكاناً له يسترزق منه ولم يكلف نفسه عناء وضع ميزان أو مكاييل وزن فيه، ذلك لأنه لم يكن يبيع بضاعته مباشرة إلى المشترين. فقد كان يجلس في دكانه محاطاً بالوسائد الحريرية المزركشة، مرتدياً جلبابه الأخضر المطهّر، معتمراً قبعته الخضراء، مطبقاً شفتيه على غليونه ذي الطرف المستدق، داعياً المارة الميسورين إلى دكانه يسألهم:

ـ ماهي الطلبات التي سأتولى إرسالها اليوم إلى داركم الموقّرة؟

فيطلب منه هؤلاء بضائع من شتى الأصناف تاركين لقاء ذلك بضع قطع ذهبية على الوسائد الحريرية.

كان علي بيك يحيا حياة بذخ وإسراف ومجون. نسخة معاصر من حكايات ألف ليلة وليلة. تزوج على التوالي من ثماني بنات صغيرات كلهن في الثانية عشر من العمر، واجتهد كثيراً لاستقدام أترابه من قاطني الأماكن الجبلية المنعزلة إلى المدينة ووعدهم بالمال والمسكن والعمل وكذلك بالحماية ولكنهم رفضوا التخلي عن معاقلهم الجبلية والنزول إلى المدينة.

ذات يوم سمع لغط وجلبة في المدينة. كان علي قد صفع دركياً عالي الرتبة مشهود له بالعنف. فقد شهد عليّ كيف كان هذا الأخير ينهال ضرباً بسوطه دون رحمة على أحد «أمراء الرماد» الذي كان يئن تحت وطأة سوطه أنيناً أشبه بذلك الذي اعتاد عليّ نفسه أن يطلقه مئات المرات في الماضي. رجّح علي في البداية أن يمضي في حال سبيله مبدياً عدم المبالاة ولكن الصوت أرغمه على الرجوع وتوجيه صفعة إلى وجه الدركي.

ـ إنه يناصر هذا الكولخان بيك ـ ردّد الناس هنا وهناك في الزوايا

الخفيّة من الشارع دون أن يتجرأ أحد على النطق برأيه علناً أمام هذا الرجل الصالح المختار.

كان أمراء الرماد يحتشدون ثلاث مرات في اليوم أمام باب دار علي بيك. يتخذ علي مجلساً له خلف النافذة في موقع لايلمحه أحد بينما يقوم خدمه بإلقاء كميّة من الخبز المفتّت أمامهم تتجاوز الخمسين أوقية في كل مرة. عندئذ يبدأ مشهد بالغ القسوة إذ يتطاحن «الأمراء» فيما بينهم من أجل اختطاف كسرة خبز إضافية، يجرجرون بعضهم بعضاً ويتساقطون على بعضهم البعض ويهصرون مَن وقع تحت أقدامهم وأخيراً لايبقى سوى أكثرهم بؤساً ممن لم يتلقَّ شيئاً على الإطلاق ولاحتى كسرة خبز واحدة. فيدعوهم عليّ إلى داره ويقدم لهم بنفسه واحداً فواحداً نصيبهم من الخبز ويودعهم.

ذات يوم قال لوالدي:

ـ آه، كم أنا مشتاق إلى النوم في أكوام الرماد...

في ذاك الجو المشبع بالحرائر والحسان والذهب الخالص كان عليّ يتوق أحياناً إلى حياته الماضية فيأمر أحد خدمه ليرتدي مئزراً متسخاً أحمر اللون أشبه بذاك الذي يضعه نادل المقهى الشعبي، ثم يطلب منه أن يأتي إليه بقهوة مُرّة، بعد أن يتناولها يوصي بأن يقيد ثمنها في حسابه لأنه لايملك مالاً يدفعه، فيخطّ الخادم بقطعة فحم خطاً وراء الباب هو بمثابة توثيق للدين المترتّب عليه كما هي العادة في المقاهي. لقد كان علي يشعر بارتياح شديد لدى ارتياده هذا المقهى الخيالي.

ـ الطبع غلّاب ـ كان رأي والدي بهذا الخصوص.

بعد رجوع علي من مكة تمكن والدي من تنفيذ العديد من

الأعمال مستحيناً به. استرجع بعض الأراضي التي كانت بحكم المستولى عليها، أطلق سراح أقاربه وأصدقائه ممن كانوا في السجن، بل تمكن من الحصول على أذن لتوسيع مقبرة الأرمن، وكانت تلك قضية معلّقة سعى من أجلها جيل كامل من أبناء المدينة حتى أن وفداً قد توجه إلى استانبول لمقابلة السلطان بهذا الخصوص لكنه عاد خائباً.

□ □ □

19

كان لنا جار يعمل في تربية الحمام يدعى آكوب «كشّاش الحمام». كان يملك ما يقارب المئة حمامة. كانت هذه المهنة مُحتقرة جداً، ليس هناك أية مهنة أخرى أدنى منها. ومن الأقوال التي كان الكبار يرددونها «الحمام طير بريء ولكنه الموت بعينه». كانوا لذلك يرتعدون خوفاً حتى لو ظهر الحمام لهم في مناماتهم. كانت والدتي تصاب بالذعر كلما رأت حمامة تحطّ على سطح منزلنا، فترسم بيد مرتعشة إشارة الصليب على صدرها.

في ذلك العالم القديم كان يكفي أن يقال عن المرء بأنه «كشاش حمام» حتى تلحق به أقصى إهانة ولو كان الشخص المعني لاعلاقة له بالحمام. كان مدرس الديانة على سبيل المثال يبصق في وجه التلميذ الذي لم يستذكر دروسه ويوبخه صائحاً:

ـ لاتعرف دروسك، أنت.. يا كشّاش الحمام.

كان يحق لنا أن نشتكي إلى مدير المدرسة عندما يصف أحدهم الآخر بـ «كشاش الحمام»، فذاك خطب جلل وهجاء أفدح من الإساءة إلى الوالدين. أما أولئك الذي يتخذون من هذا العمل مهنة فعلية لهم فقد كان يُشار إليهم بالبنان كما يشار إلى السارق أو العاهرة. مقاطعة هؤلاء لم تكن تقتصر على رفض مصاهرتهم بل تتعدى إلى الابن والابنة فلا أحد يقبل الاقتران بهما. كان الناس يمعنون في تقصّي

الحقائق بهذا الخصوص ليعرفوا ما إذا كان هنالك ذِكرٌ في القصة العائلية لمن مارسوا مثل هذا العمل. وإن حدث أن جاء أحدهم مؤكداً «يُقال بأن شقيق زوج عمة والدة البنت (أو الصبي) كان كشاش حمام» عندئذ يقع ما لامندوحة منه ويردّ خاتم الخطوبة بسرعة خاطفة (إن كانت هناك بالأصل خطوبة معقودة بينهما) وتُحسم علاقات المصاهرة بين الطرفين.

ولكننا نحن الصغار كنّا نكنُّ حباً خاصاً للحمام. فهذه الطيور تحتل مكانة الأبطال في قلوبنا وكل مايقال عنها كان من وجهة نظرنا من قبيل اللغط الفارغ، أشياء غير مفهومة وغريبة إلى درجة تستدعي العجب.. ألا يقطر الزيت المقدس[55] في الكنيسة من ثغر الحمامة الذهبية... الحمامة الفاردة الجناحين، ولايأتي ذكر الحمام في الأغاني إلاَّ رمزاً للبراءة. والطفولة هي البراءة أيضاً لذلك كنا نحمل للحمام الودّ العظيم.

وأذكر أنه كان لدينا تمثال صغير من المرمر يمثِّل فتاة جميلة عارية وقد حطَّت حمامة على كتفها اليمنى. وكان والدي قد جاء به من استانبول ووضعه في غرفته على قاعدة من خشب الجوز وخلفية من قماش مخملي أسود.

ورغم كل ما كانت تلوح على والدتي من مظاهر التوجُّس من الحمام إلَّا أنها كثيراً ماكانت تشبّه الأشياء الجميلة به. فعندما يأتي إلى هذا العالم مولود جديد لأخي الأكبر كانت والدتي تحتضنه وتداعبه وترفعه إلى الأعلى قائلة:

(55) الزيت أو الميرون المقدَّس: يُستخلَص من عدد كبير من الأزهار. يستعمل في الطقوس الكنسية بعد أن يوضع في وعاء له شكل حمامة.

ـ يا صغيري، أنت حمامة يا صغيري.

وعندما تلمح في الحمّام الشعبي صبية فتيّة جميلة كانت تعلق قائلة:

ـ لها جسم رائع الجمال، تماماً مثل حمامة ناصعة البياض.

وكنت أغتبط عندما ترفع من مكانه الحمام وأحزن عندما ترسم إشارة الصليب خوفاً منه. وكان هناك همّ في داخلي يكاد يلوّع قلبي ـ كنت أريد أن أتحرّر من الأهل وأصبح يتيماً حرّاً تماماً، أشتغل في مهنة تربية الحمام. هذه الرغبة كانت تغريني إلى أبعد الحدود وتدفعني إلى سطح الدار كل يوم كي أراقب حمائم آكوب.

كنت أصعد إلى السطح في سرية تامة كي لايعلم بذلك أحد، إذ كان من المخزي جداً أن يُشاهَد فرد من أفراد عائلتنا ـ ولو ولد صغير قليل الشأن مثلي ـ وهو يصعد إلى السطح لمشاهدة آكوب كشاش الحمام. فمن العار أن يبتهج المرء بتحليق الحمام. ولكني كنت أشعر بدافع لايقاوم في نفسي للصعود والتمتّع بهذا المشهد.

لقد كانت الحمائم تحلّق بحركات متداخلة ثملة في رحاب السماء الزرقاء الصافية فأنشرح حبوراً لمنظرها كمن أصابه مسّ من الجنون. كنت أختبئ أحياناً وراء حجر المرداس الموجود على سطح الدار كي لاأبث الخوف في صفوف الحمائم فأفسح لها المجال بذلك للهبوط على سطح دارنا لأتمكن من وضع يدي على إحداها وألمس ريشها بأناملي، ولكن الحظ لم يحالفني ولو لمرة واحدة.

ها أنا مختبئ الآن خلف حجر المرداس أرى أن بعضها قد حطّت على إفريز السطح ولاتبعد عني أكثر من عشر خطوات. أراقبها بتلهّف وحذر شديدين حابساً أنفاسي بكل عزم حتى لاتطير من أمامي. كانت حمائم آكوب تراودني في أحلامي فأراها قد حطّت على رأسي وعلى

كتفي وعلى ذراعي. أصيخ إلى صوت هديلها وافتعل بعض حركات الوثب والرقص ولكني أفاجأ ببقائها حولي، فأمسك في قبضتي ما أشاء منها، ألاطفها، أحبها، أداعبها، أقبّلها وأسكنها في حضني. وفجأة، على حين غرّة، أدرك بأنني مستغرق في حلم ولكن الحلم لايريد أن يتوقف فالحمائم تحوم فوق رأسي وتأبى أن تبتعد عني.

استيقظ ويتلاشى كل شيء ولكن يبدو أنني مازلت أسمع نواح الحمام. فأبقى فترة طويلة أسيراً لهذه المسرّة الفريدة.

لم يكن بوسعي أن أتفهَّم لماذا كانوا ينظرون باستخفاف إلى الحمام ولماذا كانوا يمعنون في إهانة وازدراء كل من كان يتعامل مع الحمام وخاصة كشّاش الحمام آكوب.

* * *

حلَّ المساء وبدأت الشمس تغور وراء الجبال البعيدة وشعشعت جمرة المغيب على زجاج النوافذ وطفقت الأمطار تغسل وجه المعمورة.

صعد آكوب إلى السطح وأطلق سراح حمائمه فحلَّقت في الأجواء وصدرت عنها سيمفونية جزلة. أطاح صوت اصطفاق أجنحتها طائرَ بلبل صغير كان في الجوار فترنَّح ووقع على الأرض. هرع إليه الصغار يحاول كل منهم أن يستحوذ عليه.

تلوَّنت السماء بألوان الحمائم، فمنها ماكانت بيضاء ناصعة وأخرى زرقاء ذات لون صخري قاتم، وبعضها الآخر تباينَت ألوانها بين البيضاء والقاتمة فبدت مثل صفائح ورقية معتمة ملصقة على صفحة قمر مكتمل. ظهرت مجموعات أخرى من الحمائم بألوان اللهب المشوب بالدخان، وكأنها قبسات من أشعة الشمس الآفلة إلى المغيب. ومن

الحمائم أيضاً ماتلونت بالأحمر الضارب إلى الصفرة وكأنها اكتست رداءً منسوجاً من أوراق الخريف.

عندما تحلق أسراب الحمائم البيضاء في عرض السماء أمام الغيوم المتراكمة كأكوام القطن تبدو وكأنها ذابت في بياض الغيوم واختفت. وعندما تصبح الغيوم قاتمة تتلاشى فيها هذه المرة الحمائم الرمادية اللون وكأنها انحلّت في بحر من السحب القاتمة.

ها هو زوج من الحمام يميل لون ريشيهما إلى الأخضر ولكن ما أن تتبدّل مواقعهما حتى ينقلب لونهما في لحظة خاطفة إلى البنفسجي. بعد برهة ترفرف مجموعة أخرى من الحمام يستدل على وجودها من هديلها الخفيق وحركاتها الأنيسة. ألوان هذه المجموعة كلها كستنائية - مزيج من لون مسحوق القهوة والسكر. تطير الواحدة منها في الهواء مادَّةً ذيلها المتقوِّس، مصدرة الهنهنات، محركة رقبتها مثل جدول ماء منساب، بمثل الخفّة والقدرة على المناورة والالتفاف التي تتمتع بها كرة تتقاذفها الأمواج.

الحمام بعد هذا كله يسبب الموت، الموت الأسود الأثيم. لم يكن بوسعي أبداً أن أستوعب هذا اللغز المحيِّر.

«التهى بتربية الحمام وحلَّ على بيته الخراب» هذا ماكانوا يقولونه عند ذكر أحدهم ممن عمل في الماضي البعيد في هذه المهنة.

* * *

كان مربّو الحمام في حالة دائمة من التنافر والتخاصم. فعندما يرى الواحد منهم أن غريمه قد أطلق حمائمه في السماء يبادر فوراً إلى إطلاق أفضل مافي حوزته من حمام ليقوم باستدراج طيور منافسه إليه. كانوا يتخاطفون الحمام من بعضهم البعض وهنا تكمن المتعة في هذه المهنة.

فالحمام طير يحبّ الانفتاح على بني جنسه، يحب أن يغري حماماً آخر أو أن ينقاد هو إليه. فالحبّ هي الغريزة الأقوى لديه.

حين ينكسر شعاع الضوء على الأسطحة الحارة ويتشتّت بريقه مثل قطرات سائل مهراق، تطير الحمائم من كل صوب وتتقافز وتشتعل مناقيرها بنار الحب فتنقر أجسادها في نشوة وتنقب في جذور ريشها ثم تتقارب من بعضها البعض وتتلامس مناقيرها.

في خضم ذلك يلمح كشّاش الحمام كيف أن حمامة (أنثى) قد انطلقت بكل جرأة من أحد الأسطحة وصعدت في أجواء السماء. إنها خلابة المنظر يتبدّل لون صدرها بين الأخضر والبنفسجي تحت وهج الشمس. فيدفع كشاش الحمام حمامة (ذكر) إلى الطيران وهي حمامة من فصيلة راقية يُنسب إليها العديد من «الانتصارات». تنطلق الحمامة الذكر إلى مهمتها وتقوم بحركات دورانية في الهواء وتدور دون انقطاع إلى أن تستحوذ على اهتمام الحمامة الأنثى فتجتذبها وتأتي بها إلى بيت الحمام.

يقضّ هذا الصراع مضجع صاحبَي الحمامتين ويقعان ـ كل من موقعه على أحد الأسطحة ـ فريسة القلق والارتياب التامين، متلهفين لمعرفة وقائع المشهد الأخير، مطلقين الصفير والنداءات المألوفة لشحذ الهمم ونصرة الحمام، وحتى يحين الوقت لاسدال الستار على وقائع هذا الاشتباك يقضيان لحظات أشبه بالاحتضار.

يلوح على صاحب الحمامة التي تمضي منقادة وراء الحمامة الأُخرى اكتئاب سوداوي شديد. ومنذ تلك اللحظة تنطلق شرارة عداوة مميتة قد تصل إلى هدر الدماء. إذ يشعر صاحب الحمامة المنهزمة بأن عاراً عظيماً قد لحق به، كأنه تمرَّغ في الوحل وأنه يفضل أن تُضبط زوجته متلبّسة

في حادثة زنى فيصبح على أثرها موضع سخرية في المدينة كلها، على أن يكون هو الخاسر في منازلة الحمام. وكانت العداوة تتوارث من جيل إلى آخر دون أن يُغفل ذكر الإهانة التي أحاقت بصاحبها في ذلك الحين.

وغالباً ما يثور صاحب الحمامة المقهورة ولايطيق صبراً على انقضاء اليوم بسلام ولايدع مجالاً لتؤول الحادثة إلى مجرد ذكرى أليمة إنَّما يأتي وينتصب واقفاً أمام عتبة دار صاحب الحمامة المنتصرة، وفي قبضته يلمع بريق مدية قد استلّت من غمدها. يحتشد لفيف من مربي الحمام وآخرون من المولعين بهذا الطير وينقسمون إلى فئتين. يصيح صاحب الحمامة المقهورة.

- لقد استحوذ على الحمامة بالنصب والاحتيال.

أي نصب واحتيال يمكن أن يقع في طبقات الجو العليا عندما تتغازل حمامتان؟

- ستعيد إليَّ حمامتي وإلّا... - يريه طرف المدية المجردة من الغمد.

- اذهب حيث تشاء. لن تكون هذه الحمامة لك بعد الآن. أنت رجل وعليك أن تتحمَّل الهزيمة.

وتتشابك السكاكين وتصدر عنها أصوات حادة رنّانة تمزّق أجواء السماء، تعقبها جلبة وتدافع وتجاذب، وتتحول الملابس إلى خرق مهلهلة، فيعلو نحيب النساء وبكاء الأطفال... يراق دم الواحد أو الآخر. فإن كان صاحب الدم المسكوب هو نفسه مالك الحمامة المهزومة يصبح حينئذ من العسير أن يراه الناس لفترة من الزمن قد تصل إلى عدة أشهر. فقد كان ينغلق على نفسه ويسدل الستائر خلف نوافذ داره.

ـ لابد أنه احتمى وراء زوجته، لايريد أن يخرج للناس ـ هذا مايقوله المناوئون.

وإذا كان الدم المراق هو لصاحب الحمامة المظفّرة فقد كان هذا الأخير يخرج إلى الناس بعد تضميد جراحه وهو مرفوع الرأس يغطّي طربوشه المائل أطراف حاجبيه بينما تتدلى شرّابة طربوشه إلى الأمام ـ وهي الوضعية التي تدل على أكبر قدر من الخساسة والاعتداد بالنفس ـ يمضي هكذا في طريقه عازفاً عن القاء التحية على أحد، غير آبهٍ بشيء وكأنه مقاتل شرس راجع لتوه من ساحة القتال.

هذا هو السبب بالطبع وراء قول الراشدين بأن الحمائم بريئة ولكن تحت أجنحتها يتربص الموت الدامي.

ورغم كل هذا الذعر ورغم الدم المراق كانت روحي لاتزال تصبو لملاقاة الحمام. فعندما تلتمع أنصال السكاكين وتدق بيعضها البعض بكل حقد وضغينة كانت الحمائم تمضي في تحليقها في الأجواء العالية المتلألئة الزرقاء مستغرقة في مناغاتها، مستعرضة ألاعيبها ورقصاتها البريئة. فما هي العلاقة التي يمكن أن تربط بين الحمائم وشرف الناس ومكانتهم ونزعتهم إلى الشرّ. إنها تسبح في بحر من أشعة الشمس وعلى أمواج الضوء المتراقص. مابالها اذن إن كان الناس في الحياة الدنيا يهرقون دماء بعضهم البعض ثم يعلّقون وزر خطيئتهم على جيدها الأبيض البريء؟ فكل ماهنالك أن حمامة قد استهوتها حمامة أخرى فاستسلمت لها وتبعتها وحطّت على بيتها الدافئ وتناقرت معها طول الليل وصأصأت وانتشت في غمرة الحبّ، وعند الصباح ومع أشعة الشمس الأولى انطلقت ثانية تلعب لعبة الحب البريئة.

* * *

كان جارنا كشاش الحمام آكوب حلاقاً بمهنته ولكنه لم يكن يخصّص إلّا الجزء اليسير من وقته لمزاولة مهنته تلك. أمّا جلّ وقته فكان يقضيه على سطح الدار يحثّ حمائمه على التحليق ثم يقوم باستدعائها للرجوع إليه، يطلقها ثانية متابعاً تحليق كل واحدة منها بافتتان شديد وقلق كبير في الوقت نفسه.

رغم براعته في مهنة الحلاقة ونظافته المشهودة في عمله، لم يكن يتردّد عليه إلّا قلة من الزبائن لأنه لم يكن يبذل جهداً لكسب رضاهم. كنا نذهب ـ نحن الأطفال ـ إلى دكانه الصغير حيث نجده منكباً على عمله يغطي وجه زبونه بالرغوة البيضاء فلا يبقى ظاهراً منه غير عينيه وجزء من أنفه. ما أن يهم آكوب بشحذ شفرة الحلاقة على الجلد المدبوغ استعداداً للحلاقة حتى نشرع نحن بالحديث عن حمامةٍ ما راجت سمعتها مؤخراً في المدينة.

ـ يقولون بأن حمامة «بايروس» المميزة قد فقست فرخين صغيرين ـ يبدأ أحدنا بطرح الموضوع ويبتسم خفية. نتصرف وكأننا نتجاذب أطراف الحديث العادي منتظرين أن يحين دورنا للحلاقة. ولكن آكوب لايسعه أن يتجاهل هذا الخبر فيتخلّى عن زبونه ويقترب منا ويقول بحسرة واضحة.

ـ من قال ذلك، من أين لكم هذا الخبر؟

ـ أخبرَنا به ميناس.

ـ كلا، لايجوز.

ـ بلى، الخبر صحيح. زوج من الفراخ.

ـ ميناس يكذب عليكم...

ويصيح به الزبون مستغيثاً وقد بدأت رغوة الصابون تجف على بشرة

وجهه وفقاعات الصابون على طرفي منخاريه بدأت تتفرقع مسبّبة له حكة موجعة.

ـ هيا، أتمم حلاقتك يا رجل ودعني أذهب وشأني.

ـ لاتزد كلاماً، فأنا أتداول الآن بشأن في غاية الأهمية ـ يرد عليه آكوب ماضياً في مجادلة الأطفال الملاعين عن حمامة غريمه المميّزة مردداً سؤاله بمزيد من القلق:

ـ قل لي بسرعة يا ولد، قل لي من أين جئت بهذا الكلام؟

ـ رأينا ذلك بأم أعيننا.

ويحزن آكوب أشد الحزن. هذا يعني أن بايروس لن يتأخر في تحقيق أرجحية في المنافسة. تلك الحمامة الفريدة تعود أصولها إلى مدينة ديار بكر وتعتبر من أرقى أجناس الحمام في آسية الصغرى ولها القدرة على اجتذاب أي نوع آخر من الحمام من عرض السماء، والآن قد تزايد عددها بزوج آخر. يعتريه حزن شديد.

ـ مايقال عن هذه الحمامة لهو أكبر من الواقع ـ يهتف آكوب فجأة في محاولة ليعزّي نفسه ولكنه لاينجح في إخفاء الأسى العميق في عينيه ويستشيط الزبون غضباً:

ـ هل ستتمّم الحلاقة أم ماذا؟ ـ ويبدأ بكيل اللعنات.

يلقي آكوب نظرات شذراء تجاه الزبون تزرع الفزع في فؤاده ويتبادر إلى ذهن هذا الأخير بأن آكوب يمكن له أن يستعمل شفرة الحلاقة في غير استعمالها المعروف. ويدنو آكوب فعلاً من الزبون والشفرة في يده ويسأله بنبرة هادئة:

ـ ماذا تريد؟ ـ ولكنها نبرة مفزعة على أية حال تدل على أن

الغضب بلغ ذروته.

ويخفِّف الزبون من سورة غضبه ويقول متوسلاً:

ـ أُريد فقط أن تتمّ الحلاقة وأذهب في حال سبيلي.

ويمد آكوب يده إلى المنشفة ويزيل الرغوة عن وجه الزبون قائلاً:

ـ هيا، انتهى الأمر...

ينتفض الزبون من مقعده ويسرع في وضع الطربوش على رأسه والابتعاد عن المحل وهو على يقين من أنه أنقذ نفسه من هلاك أكيد. يدمدم آكوب متذمراً بعد خروجه.

ـ وكأن ليس لدي في الدنيا مايشغلني سوى حلاقة ذقنه.

عند ذاك نجد نحن الفرصة سانحة للابتعاد عنه تاركين إياه في بحر عذابه الصامت. أمّا هو فيلف سيكارة ويدخنها ساحباً بنهم نفثات الدخان الواحدة تلو الأخرى ثم يغلق محله ويتوجه إلى بيته ونظراته طوال الطريق لاتفارق السماء محاولاً معرفة صاحب الحمائم التي تحلق في الفضاء.

بعد رجوعه إلى بيته كان آكوب يسرع في الصعود إلى السطح وينصرف إلى الاهتمام بحمائمه متناسياً الموضوع الذي شغله قبل قليل، ففي حوزته أيضاً حمائم من آسية الصغرى تتمتع بالشهرة ذاتها. كان قبل اطلاقها في الهواء يمسك البعض منها ويقحم رؤوسها في فمه (أسلوبه في مداعبتها وإظهار الحب لها). على سطح الدار فوق رأسه تُسمع أصوات أجنحتها وهي ترفرف ومع كل رفّة يصيح آكوب من الأسفل وقد تعلّق بهذا المشهد الذي سلب لبَّهُ:

ـ آخ... أنا فداء لك ولجناحيكِ...

* * *

جاء ذات يوم أحد كشاشي الحمام المنهزمين ووقف على عتبة باب آكوب يرافقه مناصروه (وهم في غالبيتهم ممن استحوذ آكوب علي حمائمهم في ظروف متماثلة) اقترب الرجل ثم توقف وصاح متحدياً:

ـ هيا اخرج.

عندما سمعت زوجة آكوب دوي الصيحة ورأت من نافذتها العالية لفيف الناس المحتشدين في الشارع ووقع بصرها خاصة على أنصال السكاكين اللامعة، أسرعت ـ وهي بعد حاسرة الرأس ـ نحو الدرج المؤدي إلى سطح الدار فاتحة نحو السماء ذراعيها النّحيلين الشاحبين شحوب الشمعة. كان آكوب يهبط درجات السلّم بخطوات بطيئة متثاقلة وتعابير وجهه قد تبدّلت تماماً وبدأت شفتاه ترتعشان من شدة حنقه. ارتمت المرأة على أقدام زوجها.

ـ أقبّل قدميك، لاتخرج إليهم.

ولكن آكوب ألقى بزوجته جانباً كما تُلقى الدجاجة وصاح:

ـ أنا رجل، لايجوز ذلك...

تقدم بصمت نحو الخزانة التي يحتفظ هو دون غيره بمفاتيحها، ومع ولوج المفتاح في ثقب الخزانة وقعت زوجته على الأرض مغشياً عليها. فتح آكوب الخزانة وأخرج منها الخنجر الذي توارثه عن أجداده ساحباً إياه من غمده، وقبّل الفولاذ الأصمّ ثم أرجعه إلى الغمد وسار نحو الخارج ولم تكن ابنته موجودة في الدار فبقيت الزوجة ملقاة على أرض الغرفة.

ظهور آكوب أمام باب داره ولمعان خنجره مثل شرر النار في يده كان كافياً كي يتقهقر مناوؤه بعد أن التمّ شمل الرجال المناصرين لآكوب أيضاً. وبعد وقت قصير لم يبق أحد أمام باب دار آكوب،

حينئذ لم يشعر مايعيب رجوعه إلى الدار وهناك وجد زوجته على الأرض فرفعها ورشَّ على وجهها قليلاً من الماء وحين استعادت وعيها قال لها:

ـ ياللك من امرأة قليلة المروءة، حرام أن تكوني أنتِ زوجتي..

* * *

ولكنَّ جرحاً من نوع آخر كان يقضم قلب زوجة آكوب. لم يكن الخنجر مايخيفها. كانت قد رأت العديد منه، بل شهدت زوجها وهو ينزف كما ربطت جراحه مرات عديدة. لقد كانت الزوجة غارقة في التفكير بشأن ابنتهما الجميلة التي شبَّت عن الطوق ولكنها مهدَّدة بالبقاء دون عريس يقبل بالاقتران بها إن لم يتخلَّ والدها عن مهنته المقوتة.

كانت العادة المتَّبعة عند كشاشي الحمام أنهم إذا ما تقدم بهم العمر هجروا الحمام ومنهم من كان يهجره بعد الزواج مباشرة. ولكن لم يلح في الأفق أي بريق أمل في أن يتخلَّى آكوب عن الحمام وينصرف إلى مهنته اليومية.

ـ هيا يا رجل، تخلَّ عن الحمام ـ كانت زوجته تتوسّل إليه وتتضرّع ـ إنَّ لك ابنة، حرام عليك، ستبقى دون زواج.

وكان آكوب يرتعش ويشعر بقشعريرة تسري في بدنه كلما سمع زوجته تأتي على ذكر ابنته فتقفز أمام مخيلته صورة الحمائم الناصعة البياض وكذلك ابنته ذات الشعر الأسود الفاحم والبشرة التي لاتقل بياضاً عن لون الحليب، فلا يستطيع فكاكاً منهما فتخيّم الكآبة عليه ويلفّه العذاب ويجثم الغم على صدره ويبدو الأسى فوق جبينه مثل الضباب القاتم الكثيف، ولايجد من كل ذلك منفذاً إلّا بتوجيهه صفعة إلى زوجته صائحاً في وجهها:

ـ ها قد بدأتِ من جديد في الزعيق، كفى، إنك تجهدين نفسك كثيراً.

وكان يطلب من ابنته الحضور إليه ويستغرق متأملاً في قدها الأهيف وعينيها السوداوين ثم يأخذها ويُجلسها على ركبتيه ويربّت على شعرها فتملأ الدموع عينيه ويتنهد قائلاً:

ـ يا ابنتي، يا ابنتي، يا طول السنديانة..

ولاتفسح له دموعه المجال ليتمّ جملته فكان ينهض في الحال ويصعد إلى السطح ويطلق حمائمه إلى السماء الزرقاء المتلألئة ناسياً هذا العالم وقوانينه الجائرة. ولدى سماعه صوت انتفاضة أجنحة الحمائم في السماء كانت الكآبة تنقشع من أمام عينيه وطيف الحزن يتلاشى عن جبينه فيشعّ حينئذ وجهه ويلتمع كأنه عشب مخضوضر مشبع بالندى.

ولكن زوجته لم تكن لتسمح له بأن يهنأ، فكانت تردد كلامها دون انقطاع.

ـ لك ابنة عزباء، تخلّص من الحمائم، ادفنها في التراب.

ولكن كيف السبيل أمام آكوب للتخلّص من حمائمه. فكل ريشة عالقة بشغاف قلبه، وفي كل لحظة من لحظات اليوم الذي يعيشه وفي كل عمل يقوم به ـ سواء في يقظته أو منامه ـ لايحيا إلّا مع حمائمه ولايطرب إلّا لهديلها. فحين كان طير ما يحلق فوق رأسه عند سيره في الشارع كان آكوب ينتفض ويتطلّع إلى السماء ويقول مبتسماً:

ـ خلته حمامة.

* * *

وسقط كل مافي الكون من ثلوج على رأس صاحبنا وأصبح أشيب الشعر أشبه بحمائمه الرمادية اللون ـ ولكنه احتفظ بقلب طفل صغير يزداد تشبثاً بطفولته كلما كبر عمره. بات يُبقي محله مغلقاً لأيام طويلة خشية أن يجرح مشاعر زبائنه بلامبالاته. وحين يعمل لاتفارق عيناه النافذة وما أن يلمح حمائم في السماء حتى يهجر زبونه ويقف أمام باب محله ممسكاً بيده شفرة الحلاقة، مرتدياً لباسه الأبيض، ساهياً تماماً عن الزبون الذي يمكث في انتظاره طويلاً.

كان من العادة ـ إذا كان كشاش الحمام عازباً غير متزوج ـ أن يطلق الناس السباب والشتائم على والدته أو أخته الكبرى (إن كانت له أخت كبرى). أما إذا كان دون أقارب حينئذ توجّه الشتائم إليه مباشرة. وإذا كان متزوجاً تصبح زوجته هي المستهدفة بالسباب أما عندما تكون له ابنة راشدة فينسى الناس كل ماسلف ويضعونها نصب شتائمهم. وهاقد ناهزت ابنة آكوب سن البلوغ وبلغت ضفائر شعرها إلى ركبتيها وامتلأ نهداها وتلونت شفتاها وخدّاها بلون الرمان، فنسي الناس زوجة آكوب وصاروا يكيلون الشتائم على ابنته. وأخذت زوجته تلحّ عليه أكثر فأكثر:

ـ يا رجل، فكر في الأمر ملياً، حرام عليك. ليتني يا ربي أحيا حياة فقر وتسوّل ولاتكون لي ابنة.

مكوث هذه الصبية البالغة دون أن يتقدم لخطبتها خاطب كان مشكلة مستعصية على الحلّ تقضّ مضجع والدتها. بالطبع كان هناك من أراد الاقتران بها ولكنهم جميعاً كانوا من معشر كشاشي الحمام ولكنهما (آكوب وزوجته) كانا قد أخذا على نفسيهما قسماً بأن لايوافقا على مثل هذا الزواج.

ـ أوه، لتحل اللعنة عليّ، هل من المعقول أن أعطي ابنتي لكشاش حمام؟

وكانت الزوجة تردّد دون ملل أو ضجر.

ـ قلت لك تخلص من الحمام. ألا يكفي أن المدينة كلها تسبّ ابنتك؟

وماذا يمكن لآكوب أن يفعل؟ كيف يمكن له أن يكمّ أفواه كل سكان المدينة؟ وكان لايجد بداً من أن يبادل سباب الناس بالتهجّم ـ عزاءً لنفسه ـ على عفّة نساء وبنات المدينة أجمعين. ولكن مع مرور الزمن أدرك هو أيضاً أن تراشق الشتائم والسباب لن يخفف شيئاً من معاناة ابنته التي تجاوزت كل حدود التحمُّل. وكانت البنت المسكينة قد تعرَّضت إلى صدمة هي الكبرى في حياتها إذ اضطرَّت إلى ترك المدرسة لأن المعلمين فيها بدؤوا ينادونها «ابنة كشاش الحمام». فما أن كانت تُظهر ضعفاً بدروسها حتى كانوا يسخرون منها قائلين:

ـ ماذا؟ ألا يزال والدك يقوم بكشّ الحمام؟

ما العلاقة بين كشّ الحمام وتحضير الواجبات المدرسية؟ لا أحد يدري ولكنهم في المدرسة كانوا لاينسون أبداً في دفع هذه النظرية إلى الأمام والقيام بترويجها على الدوام.

استغرق آكوب في تفكير عميق، عميق جداً، وتوصل إلى حل. فقام بإطلاق شعر لحيته. لقد كانت العادة المتَّبعة عندما ينشأ خلاف يكون أحد أطرافه رجلاً ذا لحية أن لاتُطلَق الشتائم بحق زوجته أو والدته وإنّما بحق اللحية. وهكذا أطلق آكوب لحيته ليوجَّه إليها السِّباب. ولم تفهم زوجته السرّ من وراء إطلاق لحيته بل كانت تجعل من الموضوع مادة للتندر وتقول:

ـ هذا ما كان ينقصنا هنا، رجل دين ولاشيء آخر.

ولكن ذلك لم يكن ليحيدها أبداً عن مسعاها في دفع زوجها إلى التفكير في مصير وشرف ابنتهما، كما هو واجب على كل الآباء.

ـ ماذا سيحلّ بها عندما يفوت الأوان؟ هل ستجعل منها مؤونة للبيت؟ ـ تساءلت زوجته ذات مرة ولكن آكوب رد عليها قائلاً:

ـ لاتثرثري كثيراً، ماذا تريدين أن أفعل أكثر من أنني أطلقت لحيتي؟

ولكن بطبيعة الحال لم تسعفه اللحية في صرف اهتمام الناس عن ابنته البريئة فاستمروا في كيل شتائمهم عليها كلما رأوا والدها يطيِّر الحمام على السطح. وكان آكوب لدى نزوله من السطح يرى ابنته وهي تبكي بمرارة فيسألها:

ـ لماذا تبكين يا حمامتي؟

فتقول من بين دموعها:

ـ لقد أتوا على ذكر اسمي.

ويمسك آكوب حينئذ طرف لحيته ويستغفر ربه وينصرف مبتعداً.

* * *

وطفق مدخول البيت يتضاءَل شيئاً فشيئاً. ولم يبق هناك مايبعث على الأمل من المحل إذ أصبح لايفتح بابه سوى مرة أو مرتين في الأسبوع مستقبلاً ما يصدف من الزبائن. قرر آكوب أن يضحّي بنصف قلبه فباع زوجاً من أفضل ما عنده من حمام لقاء خمس قطع ذهبية برّاقة. زوج الحمام هذا كان بالنسبة له كل قلبه ولكنه اعتبره بمثابة نصف قلبه لحصوله على فراخ منه.

عندما قبض آكوب القطع الذهبية وأخرج من حضنه زوج الحمائم

النفيسة مسلماً إياه إلى صاحبه الجديد طفرت الدموع من عينيه وسقطت على ريش الحمام. لكنه مسح دموعه وطفحت على وجهه علائم السعادة. فالليرات الخمس كافية كي يعيش المرء سنة كاملة دون أن يكون مجبراً على فتح محله و«تحمُّلِ الروائح التي تفوح من أنوف الزبائن».

عاد إلى البيت وكانت ابنته في استقباله. صاح آكوب فجأة من شدة الفرح:

ـ يا حمامتي، يا حمامتي البيضاء.

ثم احتضن ابنته.

قرر آكوب أكثر من مرة أن يبيع الحمام وأن ينهي كل مايربطه بهذا المكان ويلجأ إلى مدينة أو ربما إلى دولة أخرى حيث لايعرف الناس شيئاً عن ماضيه. هاهي ابنته تكبر يوماً إثر يوم ولا أحد يتقدم لطلب يدها. وكان كلما فكّر في المضي قدماً في هذا الحلّ أصابه شعور من الرهبة من هول مايمكن أن يحدث. وكان يلوح له أثناء الليل ـ وهو بين اليقظة والنوم ـ كما لو أن جماعة من الناس من ذوي الوجوه المرعبة ترتقي السطح وتفتح باب بيت الحمام على مصراعيه وتحمل الحمائم بعيداً، بعيداً جداً.

ـ لا، لاتأخذوها، لن أعطيكم شيئاً منها ـ كان آكوب يصيح في منامه موقعاً الذعر في قلب زوجته وابنته، وينتفض كمن أصابه مسّ من أرواح شريرة ويصعد عاري القدمين إلى السطح ويفتح باب بيت الحمام وينصت إلى هديل الحمام حتى يستكين إلى الراحة ثم يهبط السلم.

وأخيراً جاء قرار آكوب ليس ببيع طيوره بل بذبحها والقضاء عليها،

إذ لم يكن يستطيع أن يتقبّل فكرة أن تكون سليمة معافاة، تطير بكل حيوية وتصدر هديلها المحبّب ولاتكون فوق كل ذلك تحت إمرته.

ظهر آكوب ذات أمسية على سطح الدار، وكان قد مضى زمن طويل دون أن يصعد إلى هناك. فقد كانت حالة ابنته تؤرق باله. تمنّى أن لايكون لابنته وجود وأن يكون حراً. هو والحمام... هذا هو تصوره عن الجنة حين ستكون كأس الحياة مترعة بشراب حلو المذاق. ولكن وجود ابنته حقيقة لايمكن نكرانها وهي واقعة تسبب له اللوعة والألم.

انتبهت ابنته إليه عند صعوده إلى السطح. لقد كانت تعابير وجهه تثير الرعب أكثر مما كانت تثيره حين كان يلتقط المدية ويخرج إلى الشارع لملاقاة متحدّيه. وبدا للابنة كأن والدها قد أصابه الضمور وتقدم به العمر كثيراً. أسرعت في الحال إلى والدتها ولم تتمكن من النطق بشيء وإنّما لفّت ذراعيها حولها وبدأت تنوح:

ـ لماذا تبكين، هل جرحك أحد بكلامه؟

وتمكّنَت الفتاة بصعوبة أن تنطق بالكلمة الوحيدة:

ـ والدي...

وهرعت الأم إلى السطح. أما آكوب فقد كان قد سبقها إلى هناك وقام بفتح باب بيت الحمام فطارت الحمائم إلى الخارج وملأ هديرها المتجانس الأجواء وحطّ عدد كبير منها على آكوب نفسه وكأنها تريد أن تعبّر عن اشتياقها إليه.

وقف آكوب وصمت لوهلة ثم اتجه صوب الشمس التي كانت تغيب وراء الجبال البعيدة. نزع طربوشه وأمسك بإحدى الحمائم وسحب مديته... وقطع رأسها. انبجس الدم على القميص الأبيض

الذي يغطي صدره وارتعشت يداه. أمسك بحمامة أُخرى لكنه شعر بأن يديه ترتخيان، فسقطت المدية على الأرض.

في تلك الأثناء أدركته زوجته على السطح ووقع بصرها على المدية الملوّثة بالدم مرمية على الأرض ورأت صدر زوجها الملطّخ بالدم وعينيه المرتعدتين. ولم تلمح والحال هذه الحمامة المذبوحة الملقاة على بعد بضع خطوات منه، لذلك اعتقدت أن آكوب قد جرح نفسه فصدر عنها نحيب يمزّق القلب.

ركضت الابنة إلى السطح واحتضنت والدتها ووالدها كل من طرف. دفعني صراخ الزوجة إلى الصعود إلى سطح دارنا ومن هناك رأيت تعاظم عدد الذين بدؤوا يحتشدون في الأزقة المجاورة وعلى أسطحة المنازل. ولم يكن في وسع الذين أُتيح لهم رؤية ما حدث أن يستشفوا كنهه، فاعتقدوا خطأً أن آكوب يقوم بضرب زوجته وأن الابنة تحاول تخليص والدتها من قبضة أبيها. وكان هذا الاعتقاد كافياً لهم لأن يذكروا اسم الابنة البريئة مجدداً في سبابهم.

أمّا كشاش الحمام فقد ضمّ ابنته الوحيدة إلى صدره المخضب بدم الحمامة وترقرق الدمع في عينيه وقال متأوهاً:

- يا حمامتي البيضاء... أُقدم لك كل حمائمي فداءً لكِ...

وبكي هذا الطفل ذو الشعر الأشيب بكاءً مرّاً وانسكبت دموعه الحارة الدافقة من أطراف عينيه، ومن أعلى طبقات السماء تسربَلَ رذاذٌ بنفسجي اللون بهدوء وسكينة على الأرض.

□ □ □

20

أجد نفسي في آخر المطاف وخطواتي ترشدني إلى المقبرة لأقوم بزيارة أخيرة إلى ضريح والدي. كم كبرت شجرة التوت التي غرسناها فوق شاهدة قبره؟ أرغب في التحدث إلى والدي. ها هو ذا يبدو منتصباً أمامي بقامته المديدة. إنه حزين، حزين مثل شجرة منفردة في سهل أجرد. ثمة صمت... صمت أبدي...

أمعن النظر إلى شجرة التوت وأتفرّس في جذورها التي انغرست في جمجمة والدي وتسلّلت إلى جوفها من ثقب الفم والعينين لتحل الشعيرات المتشعبة محل دماغه. حبة التوت تلك التي هي أكثرها حلاوة لابد أن تكون قد ارتشفت رحيقها من جمجمة والدي ومن فؤاده.

شجرة التوت ـ إنها والدي نفسه وقد تشظّت فروعه واخضوضرت وهبّت الريح تشدو ترنيمة لايصغي إليها والدي فحسب وإنّما هو ذاته مصدرها بحفيف أوراقه الدائم. أمّا الظلال المرتسمة من وحي الشجرة فتكتنفني وكأنها ذراعيّ والدي تلتفان حولي وترفعاني عالياً.

يا أبتاه، إنك تحتضنني الآن بذراعيك اللتين أدفأهما حمو الموت، بينما تبث الريح أنشودتك. وإنّي لربي منصت إليها، أسمعها من صميم قلبي عندما يحتدم بي الشوق، الشوق العظيم إليك، وتراودني ذكراك في أحلامي، يا أبي. إنّها أنشودة دمك الذي يتدفق أيضاً في عروقي، الأنشودة نفسها التي ترتلها الشمس وترددها كل عشبة

صغيرة خضراء وكل وهج من شعاع القمر الفضي الهائم على مسالك الأزهار في دروب حديقتنا، أنشودة سرمدية جليلة، تقطر من أقداح البنفسج في أعالي السماء وتروى الأرض العطشى ثم تسري في عروق الأزهار وترتفع معانقة الشمس ثانية، أنشودة تنساب مع سيول الربيع وتموج في معاطف الأنهار وتجثم على زرقة البحار الساكنة البعيدة الأغوار.

أُقبّل الضريح وآخذ جذع شجرة التوت بين ذراعيّ وكأنني التفُّ حول خصر والدي. تطلق الريح أنشودتها ويُسمع حفيف أوراق التوت. أنشودة أبدية. حياة خالدة وموت خالد أيضاً. شجن دائم وسعادة دائمة أيضاً.

* * *

أتأمل للمرة الأخيرة المدينة التي أُفارقها، فتبدو وكأنها شجرة ذهبية في حضن الجبال اللازوردية.

سفر وترحال...

وتنطلق العربة على الدرب الروماني القديم باتجاه البحر، إلى بيزنطة وروما. تقدح حوافر الأحصنة الشرر في النهار، وفي الليل تنصرف الأحصنة إلى المضغ والاجترار. ننكمش نحن داخل ذواتنا وقد أرهقتنا مراقبة النجوم فتحملنا قيثارة النوم على جناحيها.

في صبيحة يوم من الأيام ينجلي البحر أمامي. ولكن أين البحر وأين السماء؟ لقد اختلطت الحدود في الأفق البعيد.

البحر... تذكرت ببالغ الاعتزاز كيف كان والدي يناديني «ولدي، يا عينان بزرقة السماء».

بعد ليلتين سأكون في استانبول ـ مدينة أحلامي. وددت لو أجدها

كما تصورتها في أحلامي. لعلها في الحقيقة أجمل مما حلمت به ولكنني لاأتوق لأكثر من ذلك لأنني أسعى إلى حلمي لاغير.

* * *

في تلك الأرض القديمة تجود الشمس بحبّات الثمر الناضر وتزخر الأرض بالعشب الزاهي وتتسلل المياه رقراقة في السواقي وتزهو الأيام بألوان صباحيّة باهية، تتوارى عند المغيب بأشكال محمّلة على أجنحة من نارٍ، ويسبح في الأفق قرص فضي اللون تغشاه نقاوة الحليب، وفي أجواء الليل المرصّع بالنجوم ترتفع هامات الأشجار معانقة السماء وتسري في الأزهارِ رعدة تهز الأسارير.

أريد الآن أن أُزيح رأسي المتعب على المرمر السماوي الأزرق وأنصت إلى الأنشودة التي تبوح بها الأشجار والسواقي والنجوم.

□ □ □

صدر من سلسلة «روائع الأدب الأرمني»

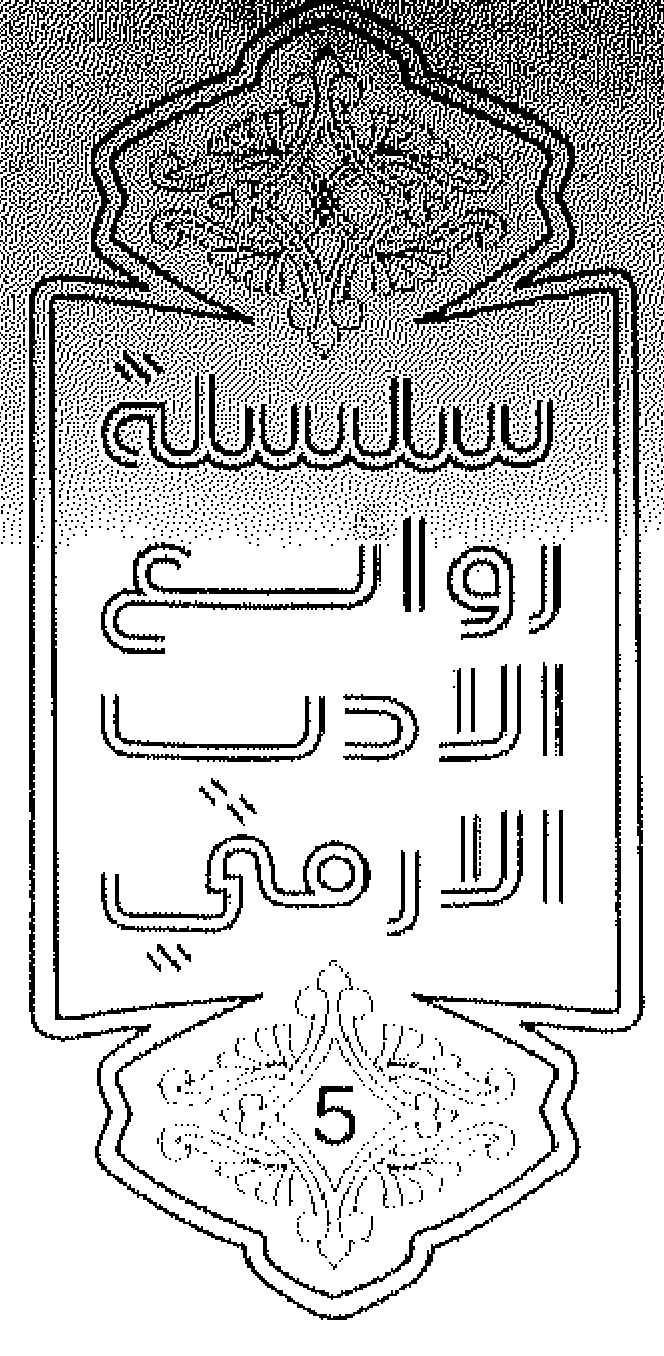
(1) ـ «ملحمة المعري» للشاعر أويديك اسحاقيان،
ترجمة: نظار ب. نظاريان، 1994.

(2) ـ «أنشودة الحياة الخالدة» للشاعر فاهاكن تافيتيان،
ترجمة: المطران بطرس مرياتي، 1994.

(3) ـ «ليحل النور... وقصائد أخرى» للشاعر باروير سيفاك،
ترجمة: مهران ميناسيان، 1995.

(4) ـ «مائة قصيدة حب أرمنية» للشاعر ناهابيد كوجاك،
ترجمة: مهران ميناسيان، 1998.

(5) ـ «الحياة على الدرب الروماني القديم» للروائي ڤاهان توتوڤينتس،
ترجمة: هراج ساهاكيان، 1998.





هذا الكتاب

لا يغرّنك العنوان . فالكتاب لا يتناول تاريخ حقبة زمنية ولا يعرض نظرية ما . يستهل الكاتب عمله هذا بمشهد فائق الروعة :

«ذهبت والدتي الى حظيرة الحيوانات لتقوم بحلب البقرة ومضى وقت طويل دون أن تعود الى الدار .

- يا للعجب - صاحت عمتي فجأة - ماذا جرى للعروس ؟ لقد ذهبت الى الحظيرة ولم ترجع بعد .

ركضوا جميعاً باتجاه الحظيرة ليروا والدتي وهي تفترش الأرض على مقربة من البقرة وتحمل في حضنها وليدها الأزرق العينين. وكنت أنا هذا المولود» .

وتتتابع أحداث الكتاب بمثل هذه المشاهد التي تحكي حياة الطفولة والمراهقة التي عاشها الكاتب ڤاهان توتوڤينتس (١٨٩٤ - ١٩٣٨) في مطلع هذا القرن في المدينة الريفية الجميلة التي تقع في أعالي الفرات . مدينة كاملة تنفض عنها غبار التاريخ وتعود الى الحياة كما عهدها الكاتب بشوارعها ومنازلها وعادات أهلها وتفاصيل حياتهم اليومية . فالكتاب أشبه بشريط سينمائي يعرض حياة هذه الحاضرة العامرة الواقعة على الدرب الروماني القديم .

نادي الشبيبة السورية - اللجنة الثقافية - حلب - ص.ب. ٣٦٩٩
دار الحوار للنشر والتوزيع